مكتبة
الأسرة
١٩٩٨

مهرجان القراءة للجميع

Amly
http://arabicivilization2.blogspot.com

المختار من الكامل فى التاريخ لابن الأثير

قصة صلاح الدين الأيوبى

التراث

الهيئة المصرية

www.alkottob.com

www.alkottob.com

المختار من الكامل فى التاريخ

www.alkottob.com

المختار من
الكامل في التاريخ
لابن الأثير
(قصة صلاح الدين الأيوبى)

Amly
http://arabicivilization2.blogspot.com

www.alkottob.com

مهرجان القراءة للجميع ٩٨

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(روائع التراث)

المختار من الكامل فى التاريخ
لابن الأثير

الغلاف:
للفنان جمال قطب

الإشراف الفنى:
للفنان محمود الهندى

المشرف العام
د. سمير سرحان

الجهات المشاركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة التنمية الريفية
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ: الهيئة المصرية العامة للكتاب

على سبيل التقديم

تواصل مكتبة الأسرة ٩٨ رسالتها التنويرية وأهدافها النبيلة بربط الأجيال بتراثها الحضارى المتميز منذ فجر التاريخ وإتاحة الفرصة أمام القارئ للتواصل مع الثقافات الأخرى، لأن الكتاب مصدر الثقافة الخالد هو قلعتنا الحصينة وسلاحنا الماضى فى مواكبة عصر المعلومات والمعرفة.

د . سمير سرحان

www.alkottob.com

تصـدير

هذه فصول مختارة من كتاب **الكامل فى التاريخ** لابن الأثير وهى تركـز على تاريخ صـلاح الدين الأيوبـى من البـداية إلى النهـاية ، وهى الأحداث التى عـاصرها المؤلف ورواها بدقة شديدة ، ولم تغـير أى شىء فى أسلوب الكاتب أو نحذف حـرفًا واحدًا مما كتـبه حتى يصـبح الكتاب مرجـعًا لكل من يطمح أن يقرأ مـا كتبـه المؤرخون المعاصـرون للحروب الصليبية بلغتهم ومن وجهة نظرهم .

إنه كتـاب ثمين لازم لكل باحث فى التاريخ ، ولكـل من يريد قراءة صفحـات مشرقة من تاريخـنا العربى ، وهو بلا شك زاد لا غنى عنه لمن يريد الاستزادة من المعرفة بتلك الفترة الحافلة بالأحداث . ولقد راعينا الدقة التامـة فى الحفاظ على النص الأصلى حـتى يصبح نافـعًا للباحث أيضًا ، مثلمـا هو نافع للقارىء العـربى المعاصر . إنه تحـفة تراثيـة تفخر مكتـبة الأسرة بتقديمها اليوم فى سلسلة التراث .

مكتبة الأسرة

www.alkottob.com

الكامل فى التاريخ

لابن الأثير

(قصة صلاح الدين الأيوبى)

ثم دخلت سنة سبعين وخمسمائة
ذكر وصول أسطول صقلية إلى مدينة الإسكندرية وانهزامهم منها

في هذه السنة ظفر أهل الإسكندرية وعسكر مصر بأسطول الفرنج من صقلية ، وكان سبب ذلك ما ذكرناه من إرسال أهل مصر إلى ملك الفرنج بساحل الشام ، وإلى صاحب صقلية ليقصدوا ديار مصر ليثوروا بصلاح الدين ويخرجوه من مصر ، فجهز صاحب صقلية أسطولاً كبيراً عدته مائتي شيني تحمل الرجالة وستًا وثلاثين طريدة تحمل الخيل وستة مراكب كبارًا تحمل آلة الحرب ، وأربعين مركبًا تحمل الأزواد ، وفيها من الرجال خمسون ألفًا ومن الفرسان ألف وخمسمائة منها خمسمائة تركبلي: وكان المقدم عليهم ابن عم صاحب صقلية ، وسيره إلى الإسكندرية من ديار مصر فوصلوا إليها في السادس والعشرين من ذي الحجة سنة تسع وستين على حين غفلة من أهلها وطمأنينة فخرج أهل الإسكندرية بسلاحهم وعدتهم ليمنعوهم من النزول ، وأبعدوا عن البلد فمنعهم الوالي عليهم من ذلك وأمرهم بملازمة السور ، ونزل الفرنج إلى البر مما يلي البحر والمنارة ، وتقدموا إلى المدينة ونصبوا عليها الدبابات والمنجنيقات

www.alkottob.com

وقاتلوا أشد قتال وصبر لهم أهل البلد ، ولم يكن عندهم من العسكر إلا القليل ورأى الفرنج من شجاعة أهل الإسكندرية وحسن سلاحهم ما راعهم.

وسيّرت الكتب بالحال إلى صلاح الدين يستدعونه لدفع العدو عنهم ودام القتال أول يوم إلى آخر النهار ، ثم عاود الفرنج القتال اليوم الثاني وجدّوا ولازموا الزحفَ حتى وصلت الدبابات إلى قريب السو ووصل ذلك اليوم من العساكر الإسلامية كل من كان في أقطاعه وهو قريب من الإسكندرية ، فقويت بهم نفوس أهلها وأحسنوا القتال والصبر .

فلما كان اليوم الثالث فتح المسلمون باب البلد وخرجوا منه على الفرنج من كل جانب وهم غارون وكثر الصياح من كل الجهات فارتاع الفرنج ، واشتد القتال فوصل المسلمون إلى الدبابات فأحرقوها وصبروا للقتال ، فأنزل الله نصره عليهم وظهرت أماراته ولم يزل القتال إلى آخر النهار . ودخل أهل البلد إليه وهم فرحون مستبشرون بما رأوا من تباشير الظفر وقوتهم وفشل الفرنج وفتر حربهم وكثرة القتل والجراح في رجالتهم.

وأما صلاح الدين فإنه لما وصله الخبر سار بعساكره وسير مملوكًا له ومعه ثلاثة جنائب ليَجِدَّ السيرَ عليها إلى الإسكندرية يبشر بوصوله وسيّر طائفة من العسكر إلي دمياط خوفًا عليها واحتياطًا لها فسار ذلك المملوك فوصل الإسكندرية من يومه وقت العصر والناس قد رجعوا من القتال ، فنادى في البلد بمجيء صلاح الدين والعساكر مسرعين ، فلما سمع الناس

ذلك عاودوا إلى القتال وقد زال ما بهم من تعب وألم الجراح ، وكل منهم يظن أن صلاح الدين معه فهو يقاتل قتالَ من يريد أن يشاهد قتاله . وسمع الفرنج بقرب صلاح الدين في عساكره فسقط في أيديهم وزادوا تعبًا وفتورًا ، فهاجم المسلمون عند اختلاط الظلام ووصلوا إلى خيامهم فغنموها بما فيها من الأسلحة الكثيرة والتحملات العظيمة وكثر القتل في رجالة الفرنج فهرب كثير منهم إلى البحر وقربوا شوانيهم إلى الساحل ليركبوا فيها ، فسلم بعضهم وركب وغرق بعضهم . وغاص بعض المسلمين في الماء وخرق بعض شواني الفرنج فغرقت فخاف الباقون من ذلك فولوا هاربين واحتمى ثلاثمائة من فرسان الفرنج على رأس تل فقاتلهم المسلمون إلى بكرة ، ودام القتال إلى أن أضحى النهار فغلبهم أهل البلد وقهروهم فصاروا بين قتيل وأسير ، وكفى الله المسلمين شرهم.

ذكر خلاف الكنز بصعيد مصر

وفي أول هذه السنة خالف الكنز بصعيد مصر واجتمع إليه من رعية البلاد والسودان والعرب وغيرهم خلق كثير ، وكان هناك أمير من الصلاحية في أقطاعه وهو أخو الأمير أبي الهيجاء السمين فقتله الكنز فعظم قتله على أخيه ، وهو من أكبر الأمراء وأشجعهُ ، فسار إلى قتال الكنز وسيَّر معه صلاح الدين جماعة من الأمراء وكثيرًا من العسكر ، ووصلوا إلى مدينة طَود[1]، فاحتمت عليهم فقاتلوا من بها وظفروا بهم

(١) طود : بفتح أوله وسكون ثانيه بليدة بالصعيد الأعلى فوق قوص ودون أسوان .

www.alkottob.com

وقتلوا منهم كثيراً وذلوا بعد العزّ وقهروا واستكانوا . ثم سار العسكر بعد فراغهم من طود إلى الكنز وهو في طغيانه يَعْمَهُ فقاتلوه فقتل هو ومن معه من الأعراب وغيرهم وآمنت بعده البلاد واطمأن أهلها .

ذكر ملك صلاح الدين دمشق

في هذه السنة سلخ ربيع الأول ملك صلاح الدين يوسف بن أيوب مدينة دمشق . وسبب ذلك أن نور الدين لما مات وملك ابنه الملك الصالح بعده كان بدمشق ، وكان سعد الدين كمشتكين قد هرب من سيف الدين غازي إلى حلب كما ذكرناه ، فأقام بها عند شمس الدين عليّ بن الداية فلما استولى سيف الدين على البلاد الجزرية خاف ابن الداية أن يُغير إلى حلب فيملكها ، فأرسل سعد الدين إلى دمشق ليحضر الملك الصالح ومعه العساكر إلى حلب ، فلما قارب دمشق سيّر إليه شمس الدين محمد بن المقدم عسكراً فنهبوه وعاد منهزمًا إلى حلب ، فأخلف عليه ابن الداية عوض ما أخذ منه . ثم إن الأمراء الذين بدمشق نظروا في المصلحة فعلموا أن مسيره إلى حلب أصلح للدولة من مقامه بدمشق ، فأرسلوا إلى ابن الداية يطلبون إرسال سعد الدين ليأخذ الملك الصالح فجهزه وسيّره . - وعلى نفسها براقش تجني - فسار إلى دمشق في المحرم من هذه السنة وأخذ الملك الصالح وعاد إلى حلب . فلما وصلوا إليها قبض سعد الدين على شمس الدين بن الداية وإخوته وعلى رئيس بن الخشاب رئيس حلب ومقدم الأحداث بها ، ولولا مرض شمس الدين بن الداية لم يتمكن من

ذلك ، واستبد سعد الدين بتربية الملك الصالح فخاف ابن المقدم وغيره من الأمراء الذين بدمشق ، وقالوا : إن استقر أمر حلب أخذ الملك الصالح وسار به إلينا وفعل مثل ما فعل بحلب .

وكاتبوا سيف الدين غازي صاحب الموصل ليعبر الفرات إليهم ليسلموا إليه دمشق فلم يفعل وخاف أن تكون مكيدة عليه ليعبر الفرات ويسير إلى دمشق فيمنع عنها ويقصده ابن عمه وعسكر حلب من وراء ظهره فيهلك ، أشار عليه بهذا زلفندار عز الدين والجبان يقدّر البعيد من الشرّ قريبًا يرى الجبنَ حزمًا كما قال :

يَرى الجبناءُ أن الجبنَ حزمٌ ... وتلك طبيعة الرجل الجبان

فلما أشار عليه بهذا الرأي زلفندار قبله وامتنع من قصد دمشق ، وراسل سعد الدين والملك الصالح وصالحهما على مأخذه من البلاد ، فلما امتنع عن العبور إلى دمشق عظم حزمهم وقالوا : حيث صالحهم سيف الدين لم يبق لهم مانع عن المسير إلينا فكاتبوا حينئذ صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب مصر واستدعوه ليملكوه عليهم ، وكان كبيرهم في ذلك شمس الدين بن المقدم ومن أشبه أباه فما ظَلَم - وقد ذكرنا مخامرة أبيه في تسليم سنجار سنة أربع وأربعين وخمسمائة .

فلما وصلت الرسل إلى صلاح الدين بذلك لم يلبث وسار جريدة في سبعمائة فارس والفرنج في طريقه فلم يبالِ بهم ، فلما وطىء أرض الشام قصد بصرى وكان بها حينئذ صاحبها وهو من جملة من كاتبه ،

www.alkottob.com

فخرج ولقيه ، فلما رأى قلة من معه خاف على نفسه واجتمع بالقاضي الفاضل وقال : ما أرى معكم عسكرًا وهذا بلد عظيم لايقصد بمثل هذا العسكر ، ولو منعكم من به ساعة من النهار أخذكم أهل السواد . قال : كان معكم مال سهل الأمر ، فقالوا : هنا مال كثير يكون خمسين ألف دينار ، فضرب صاحب بُصرى على رأسه وقال هلكتم وأهلكتمونا ، وجميع ما كان معهم عشرة آلاف دينار ، ثم سار صلاح الدين إلى دمشق، فخرج كل من بها من العسكر إليه فلقوه وخدموه ودخل البلد ونزل في دار والده المعروفة بدار العقيقي ، وكانت القلعة بيد خادم اسمه ريحان . فأحضر صلاح الدين كمال الدين بن الشهرزوري ، وهو قاضي البلد والحاكم في جميع أموره من الديوان والوقف وغير ذلك ، وأرسله إلى ريحان ليسلم القلعة إليه . وقال : أنا مملوك الملك الصالح وما جئت إلا لأنصره وأخدمه وأعيد البلاد التي أخذت منه إليه ، وكان يخطب له في بلاده كلها ، فصعد كمال الدين إلى ريحان ولم يزل معه حتى سلم القلعة فصعد صلاح الدين إليها ، وأخذ ما فيها من الأموال ، وأخرجها، واتسع بها ، وثبت قدمه ، وقويت نفسه ، وهو مع هذا يظهر طاعة الملك الصالح ويخاطبه بالمملوك والخطبة والسكة باسمه .

ذكر ملك صلاح الدين مدينتي حمص وحماة

لما استقر ملك صلاح الدين لدمشق ، وقرر أمرها ، استخلف بها أخاه سيف الإسلام طغدكين بن أيوب وسار إلى مدينة حمص مستهل

جمادى الأولى ، وكانت حمص وحماة وقلعة بعرين وسليمة وتل خالد والرّها من بلد الجزيرة في أقطاع الأمير فخر الدين مسعود الزعفراني ، فلما مات نور الدين لم يمكنه المقام بها لسوء سيرته في أهلها ، ولم يكن له في قلاع البلاد حكم إنما فيها ولاة لنور الدين ، وكان بقلعة حمص والٍ يحفظها ، فلما نزل صلاح الدين على حمص - حادي عشر الشهر المذكور ، راسل من فيها بالتسليم ، فامتنعوا ، فقاتلهم من الغد ، فملك البلد وأمن أهله ، وامتنعت عليه القلعة وبقيت ممتنعة إلى أن عاد من حلب على ما نذكره إن شاء الله ، وترك بمدينة حمص من يحفظها ويمنع من بالقلعة من التصرف وأن تصعد إليهم مسيرة .

وسار إلى مدينة حماة وهو في جميع أحواله لايظهر إلا طاعة الملك الصالح بن نور الدين وأنه إنما خرج لحفظ بلاده عليه من الفرنج واستعادة ما أخذ سيف الدين غازي صاحب الموصل من البلاد الجزرية ، فلما وصل إلى حماة ملك المدينة مستهل جمادى الآخرة وكان بقلعتها الأمير عز الدين جورديك ، وهو من المماليك النورية ، فامتنع من التسليم إلى صلاح الدين ، فأرسل إليه صلاح الدين يعرفه ما هو عليه من طاعة الملك الصالح وإنما يريد حفظ بلاده عليه فاستحلفه جورديك على ذلك وسيّره إلى حلب في اجتماع الكلمة على طاعة الملك الصالح وفي إطلاق شمس الدين علي وحسن وعثمان أولاد الداية من السجن ، فسار جورديك إلى حلب واستخلف بقلعة حماة أخاه ليحفظها فلما وصل جورديك إلى حلب

www.alkottob.com

قبض عليه كمشتكين وسجنه ، فلما علم أخوه بذلك سلم القلعة إلى صلاح الدين فملكها .

ذكر حصر صلاح الدين حلب وعوده عنها وملك قلعة حمص وبعلبك

لما ملك صلاح الدين حماة سار إلى حلب فحصرها ثالث جمادى الآخرة فقاتله أهلها ، وركب الملك الصالح وهو صبي وعمره اثنتا عشرة سنة وجمع أهل حلب وقال لهم : قد عرفتم إحسانَ أبي إليكم ومحبتَهُ لكم وسيرتَهُ فيكم وأنا يتيمكُمْ . وقد جاء هذا الظالم الجاحد إحسان والذي إليه يأخذ بلدي ولايراقب الله تعالى ولا الخلق . وقال مِنْ هذا كثيرًا وبكى فأبكى الناس فبذلوا له الأموال والأنفس واتفقوا على القتال دونه والمنع عن بلده وجدوا في القتال وفيهم شجاعة قد ألفوا الحرب واعتادوها ، حيث كان الفرنج بالقرب منهم ، فكانوا يخرجون ويقاتلون صلاح الدين عند جبل حوشن فلا يقدر على القرب من البلد ، وأرسل سعد الدين إلى سِنان مقدم الإسماعيلية وبذل له أموالاً كثيرة ليقتلوا صلاح الدين فأرسلوا جماعة منهم إلى عسكره فلما وصلوا رآهم أمير اسمه خمارتكين صاحب قلعة بوقَيس فعرفهم لأنه جارهم في البلاد كثير الاجتماع بهم والقتال لهم ، فلما رآهم قال لهم : ما الذي أقدمكم وفي أي شيء جئتم فجرحوه جراحات مثخنة وحمل أحدهم على صلاح الدين ليقتله فقتل دونه وقاتل الباقون من الإسماعيلية فقتلوا جماعة ثم قُتِلوا .

وبقي صلاح الدين محاصرًا لحلب إلى سلخ جمادى الآخرة ورحل عنها مستهل رجب .

وسبب رحيله أن القومص الصنجيلي صاحب طرابلس كان قد أسره نور الدين علي حارم سنة تسع وخمسين وخمسمائة ، وبقي في الحبس إلى هذه السنة فأطلقه سعد الدين بمائة ألف وخمسين ألف دينار صورية وألف أسير ، فلما وصل إلى بلده اجتمع الفرنج عليه يهنئونه بالسلامة ، وكان عظيمًا فيهم من أعيان شياطينهم ، فاتفق أن مَرِي ملك الفرنج لعنه الله مات أول هذه السنة وكان أعظم ملوكهم شجاعة وأجودهم رأيًا ومكرًا ومكيدة فلما توفي خلف ابنا مجذومًا عاجزًا عن تدبير الملك فملكه الفرنج صورة لا معنى تحتها وتولى القُمص ريمُند تدبير الملك الحل والعقد عن أمره يصدرون ، فأرسل إليه من حلب يطلبون منه أن يقصد بعض البلاد التي بيد صلاح الدين ليرحل عنهم ، فسار إلى حمص ونازلها سابع رجب فلما تجهز لقصدها سمع صلاح الدين الخبر فرحل عن حلب فوصل إلى حماة ثامن رجب بعد نزول الفرنج على حمص بيوم ، ثم رحل إلى الرَّستن فلما سمع الفرنج بقربه رحلوا عن حمص ووصل صلاح الدين إليها فحصر القلعة إلى أن ملكها في الحادي والعشرين من شعبان من السنة فصار أكثر الشام بيده ولما ملك حمص سار منها إلى بعلبك وبها خادم اسمه يُمن وهو والٍ عليها من أيام نور الدين فحصها صلاحُ الدين فأرسل بمن يطلب الأمان له ولمن عنده ، فأمنهم صلاح الدين وتسلم القلعة رابع عشر رمضان من السنة المذكورة .

www.alkottob.com

ذكر حصر سيف الدين أخاه عماد الدين بسنجار

لما ملك صلاح الدين دمشق وحمص وحماة كتب الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين إلى ابن عمه سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود يستنجده على صلاح الدين ، ويطلب أن يعبر إليه ليقصدا صلاح الدين ويأخذا البلاد منه فجمع سيف الدين عساكره وكاتب أخاه عماد الدين زنكي صاحب سنجار يأمره أن ينزل إليه بعساكره ليجتمعوا على المسير إلى الشام فامتنع من ذلك ، وكان صلاح الدين قد كاتب عماد الدين وأطمعه في الملك لأنه هو الكبير فحمله الطمع على الامتناع على أخيه ، فلما رأى سيف الدين امتناعه جهز أخاه عز الدين مسعودًا في عسكر كثير هو معظم عسكره وسيّره إلى الشام وجعل المقدم على العسكر أكبرَ أميرٍ معه يقال له عز الدين محمود ويلقب أيضًا زلفندار وجعله المدبر للأمر . وسار سيف الدين إلى سنجار فحصرها في شهر رمضان وقاتلها وجد في القتال وامتنع عماد الدين بها وجد في حفظها والذب عنها فدام الحصار عليها ، فبينما هو يحاصرها أتاه الخبر بانهزام عسكره الذي مع أخيه عز الدين مسعود من صلاح الدين فراسل حينئذ أخاه عماد الدين وصالحه على ما بيده ورحل إلى الموصل وثبت قدم صلاح الدين بعد هذه الهزيمة وخافه الناس وترددت الرسل بينه وبين سيف الدين غازي في الصلح فلم يستقر حال .

ذكر انهزام سيف الدين من صلاح الدين وحصره مدينة حلب

في هذه السنة سار عسكر سيف الدين مع أخيه عز الدين زلفندار إلى حلب واجتمع معهما عساكر حلب وساروا كلهم إلى صلاح الدين ليحاربوه . فأرسل صلاح الدين إلى سيف الدين يبذل تسليم حمص وحماة وأن يقر بيده مدينة دمشق وهو فيها نائب الملك الصالح فلم يجب إلى ذلك وقال : لابد من تسليم جميع ما أخذ من بلاد الشام والعود إلى مصر . وكان صلاح الدين يجمع عساكره ويتجهز للحرب ، فلما امتنع سيف الدين من إجابته إلى ما بذل ، سار في عساكره إلى عز الدين مسعود وزلفندار فالتقوا تاسع عشر رمضان بالقرب من مدينة حماة بموضع يقال له قرون حماة ، وكان زلفندار جاهلاً بالحروب والقتال غيرَ عالمٍ بتدبيرها مع جبنٍ فيه إلا أنه قد رزق سعادة وقبولاً من سيف الدين ، فلما التقى الجمعان لم يثبت العسكر السيفي وانهزموا لايلوي أخ على أخيه وثبت عز الدين أخو سيف الدين بعد انهزام أصحابه فلما رأى صلاح الدين ثباته قال : إما أن هذا أشجع الناس أو أنه لايعرف الحرب وأمر أصحابه بالحملة عليه فحملو فأزالوه عن موقفه وتمت الهزيمة وتبعهم صلاح الدين وعسكره حتى جازوا معسكرهم وغنموا منهم غنائم كثيرة وآلة وسلاحًا عظيمًا ودواب فارهة وعادوا بعد طول البكار مستريحين وعاد المنهزمون إلى حلب وتبعهم صلاح الدين فنازلهم بها محاصرًا لها ومقاتلاً وقطع حينئذ خطبة الملك الصالح بن نور الدين وأزال اسمه عن السكة في بلاده ودام محاصرًا لهم فلما طال الأمر عليهم راسلوه في الصلح على أن

www.alkottob.com

يكون له ما بيده من بلاد الشام ولهم ما بأيديهم منها فأجابهم إلى ذلك وانتظم الصلح ورحل عن حلب في العشر الأول من شوال ووصل إلى حماة ووصلت إليه بها خلع الخليفة مع رسوله .

ذكر ملك صلاح الدين قلعة بعرين

في هذه السنة في العشر الآخر من شوال ملك صلاح الدين قلعة بعرين من الشام ، وكان صاحبها فخر الدين مسعود بن الزعفراني وهو من أكابر الأمراء النورية ، فلما رأى قوة صلاح الدين نزل منها واتصل بصلاح الدين وظن أن صلاح الدين يكرمه ويشاركه في ملكه ولاينفرد عنه بأمر مثل ما كان مع نور الدين فلم يَرَ من ذلك شيئًا ففارقه ولم يكن بقي له من أقطاعه التي كانت له في الأيام النورية غير بَعرين ونائبه بها ، فلما صالح صلاح الدين الملك الصالح بحلب عاد إلى حماة وسار منها إلى بعرين وهي قريبة منها فحصرها ، ونصب عليها المنجنيقات ، وأدام قتالها فسلمها ، وإليها بالأمان ، فلما ملكها عاد إلى حماة ، فأقطعها خاله شهاب الدين محمود بن تكش الحارمي ، وأقطع حمص ، ناصر الدين ابن عمه شيركوه ، وسار منها إلى دمشق ، فدخلها أواخر شوال من السنة.

ذكر ملك البهلوان مدينة تبريز

في هذه السنة ، ملك البهلوان بن أيلدكز مدينة تبريز ، وهي من جملة بلاد آقسنقر الأحمديلي .

وسببُ ذلك أنّ البهلوان سار إلى مراغة ، وحصرها وكان ابن آقسنقر الأحمديلي قد مات ، ووصى بالملك لابنه فلك الدين ، فقصده البهلوان ، ونزل على قلعة رويندز وحصرها ، فامتنعت عليه ، فتركها ، وحصر مراغة ، وسير أخاه قزل أرسلان في جيش إلى مدينة تبريز فحصرها أيضًا ، وكان البهلوانُ يقاتلُ أهل مراغة ، فظفروا بطائفة من عسكره ، فخلع عليهم صدر الدين قاضي مراغة وأطلقهم ، فحسن ذلك عند البهلوان، وشرع القاضي في الصلح على أن يسلموا تبريزَ إلى البهلوان ، فأجيب إلى ذلك واستقرت القاعدة عليه ، وحلف كلٌ واحدٍ منهما لصاحبه ، وتسلم البهلوان تبريز ، وأعطاها أخاهُ قزل أرسلان ، ورحل عن مراغة بعسكره .

ذكر وفاة شملة

في هذه السنة . مات شملة التركماني ، صاحب خوزستان ، وكان قد كثرت ولايته ، وعظم شأنه وبنى عدة حصون ، وبقي كذلك زيادة على عشرين سنة ، وكان سببُ موته أنَّه قصد بعض التركمان ، فعلموا بذلك ، فاستعانوا بشمس الدين البهلوان بن أيلدكز ، صاحب عراق

www.alkottob.com

العجم ، فسيَّر إليهم جيشًا فاقتتلوا ، فأصابَ شملةَ سهمٌ ، ثمَّ أخذ أسيرًا ، وولده ، وابن أخيه ، وتوفي بعد يومين ، وهو من التركمان الأقشرية . ولما مات ملك ابنه بعده .

ذكرُ هربِ قطب الدين قايماز من بغداد

في هذه السنة ، في شوال ، سير علاء الدين تنامش ، وهو من أكابر الأمراء ببغداد ، وكان قطب الدين قايماز ، زوج أخته عسكرًا إلى العراق ، فنهبوا أهله ، وبالغوا في أذاهم ، فجاء منهم جماعة إلى بغداد واستغاثوا ، فلم يغاثوا لضعف الخليفة مع قايماز ، وتنامش ، وتحكمها عليه ، فقصدوا جامع القصر ، واستغاثوا فيه ، ومنعوا الخطيب ، وفاتت الصلاة أكثر الناس ، فأنكر الخليفة ما جرى ، فلم يلتفت قطب الدين وتنامش إلى ما فعل ، واحتقروه ، فلا جرم لم يمهلهم الله تعالى لاحتقارهم الدعاء ، وازدرائهم أهله ، فما كان خامس ذي القعدة ، قصد قطب الدين قايماز أذى ظهير الدين بن العطار ، وكان صاحب المخزن ، وهو خاص الخليفة ، وله به عناية تامة ، فلم يُراعِ الخليفة في صاحبه ، فأرسل إليه يستدعيه ليحضر عنده ، فهرب فأحرق قطب الدين داره ، وحالف الأمراء على المساعدة ، والمظاهرة له ، وجمعهم ، وقصد دار الخليفة لعلمه أن ابن العطّار فيها . فلما علم الخليفة ذلك ، ورأى الغلبة ، صعد إلى سطح داره ، وظهر للعامة ، وأمر خادمًا فصاح ، واستغاث ، وقال للعامة : مالُ قطب الدين لكم ، ودمه لي ، فقصد الخلق كلهم دار

قطب الدين للنهب ، فلم يمكنه المقام لضيق الشوارع ، وغلبة العامة ، فهرب من داره ، من باب فتحه في ظهرها لكثرة الخلق على بابها ، وخرج من بغداد ، ونهبت داره ، وأخذ منها من الأموال ما لايعدُّ ولايحصى ، فَرُئي فيها من التنعُّم ما ليس لأحد مثله ، فمن جملة ذلك ، أن بيت الطهارة الذي كان له ، فيه سلسلة ذهب من السقف إلى محاذى وجه القاعدة على الخلا ، وفي أسفلها كرة كبيرةٌ ، ذهب مخرّمة ، محشوة بالمسك والعنبر ، ليشمَّها إذا قعد فتشبث إنسان وقطعها ، ودخل بعض الصعاليك ، فأخذ عدة أكياس ، مملوءة دنانير ، وكان الأقوياء قد وقفوا على الباب يأخذون ما يخرج به الناس ، فلما أخذ ذلك الصعلوك الأكياس، قصد المطبخ ، فأخذ منه قدرًا مملوءة طبيخًا ، وألقى الأكياس ، فيها ، وحملها على رأسه ، والناس يضحكون منه ، فيقول أنا أريد شيئًا أطعمه عيالي اليوم ، فنجا بما معه ، فاستغنى بعد ذلك ، فظهر المال ، ولم يبق من نعمة قطب الدين في ساعة واحدة قليل ، ولا كثير ، ولمَّا خرج من البلد تبعه تنامش وجماعة من الأمراء ، فنهبت دورهم أيضًا ، وأخذت أموالهم ، وأحرق أكثرها ، وسار قطب الدين إلى الحلة ، ومعه الأمراء فسيّر الخليفة إليه صدر الدين عبد الرحيم شيخ الشيوخ ، فلم يزل به يخدعه ، حتى سار عن الحلّة إلى الموصل على البر ، فلحقه ومن معه عطش عظيم ، فهلك أكثرهم من شدة الحر والعطش ، ومات قطب الدين قبل وصوله إلى الموصل ، فحمل ودفن بظاهر باب العمادي ، وقبره مشهور هناك .

www.alkottob.com

وهذا عاقبة عصيان الخليفة وكفران الإحسان ، والظلم ، وسوء التدبير، فإنه ظلم أهل العراق ، وكفر إحسان الخليفة ، الذي كان قد غمره ، ولو أقام بالحلة وجمع العساكر وعاود بغداد لاستولى على الأمور كلها كما كان ، فإن عامة بغداد كانوا يريدونه ، وكان قويًا بالإحسان على البلاد ، فأطاعوه ، ولما مات في ذي الحجة ، وصل علاء الدين تنامش إلى الموصل ، فأقام مديدة ، ثم أمره الخليفة بالقدوم إلى بغداد ، فعاد إليها ، وبقي بها إلى أن مات بغير إقطاع ، وكان هذا آخر أمرهم ، ولما أقام قطب الدين بالحلة امتنع الحاجُّ من السفر ، فتأخروا إلى أن رحل عنها، فدخلوا من الكوفة في ثمانية عشر يومًا ، وهذا ما لم يسمع بمثله ، وفات كثيرًا منهم الحج ، ولما هرب قطب الدين خلع الخليفة على عضد الدين الوزير ، وأعيد إلى الوزارة . قال بعض الشعراء في قطب الدين وتنامش هذه الأبيات :

إنْ كنتَ مُعتبرًا بملكٍ زائلٍ ... وحوادثَ عنقيةِ الإدلاجِ

فدعْ العجائبَ والتواريخَ الأولى ... وانظر إلى قيماز وابن قمَّاجِ

عطفَ الزمانُ عليهما فسقاهُما ... من كأسه صرفًا بغير مزاجِ

فتبدَّلوا بعد القصورِ وظلِّها ... ونعيمها بهامةٍ وفجاجِ

فليحذر الباقون من أمثالها ... نكباتِ دهرٍ خائنٍ مِزعاجِ

وكان قطب الدين كريمًا ، طلق الوجه محبًا للعدل ، والإحسان ، **كثير** البذل للمال ، والذين جرى منه ، وإنما كان يحمله عليه تنامش ، **ولم يكن** بإرادته .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة مات زعيم الدين صاحب المخزن ، واسمه يحيى بن **عبدالله** بن محمد بن المعمر بن جعفر ، أبو الفضل ، وحجَّ بالناس عدَّة **سنين** ، وإليه الحكم في الطريق ، وناب عن الوزارة ، وتنقَّل في هذه **الأعمال** أكثر من عشرين سنة ، وكان يحفظ القرآن .

www.alkottob.com

ثم دخلت سنة إحدى وسبعين وخمسمائة

ذكر انهزام سيف الدين من صلاح الدين

فى هذه السنة عاشر شوّال ، كان المصاف بين سيف الدين ، غازي بن مودود ، وبين صلاح الدين ، يوسف بن أيوب ، بتلّ السلطان على مرحلة من حلب ، على طريق حماه ، وانهزم سيف الدين ، وسبب ذلك، أنه لما انهزم أخوه عز الدين مسعود ، من صلاح الدين في العام الماضي ، وصالح سيفُ الدين أخاه عماد الدين ، صاحب سنجار ، عاد إلى الموصل ، وجمع عساكره ، وفرق فيهم الأموال ، واستنجد صاحب حصنِ كيفا ، وصاحب ماردين ، وغيرهما ، فاجتمعت معه عساكر كثيرة بلغت عدّتهم ستة آلاف فارس ، فسار إلى نصيبين في ربيع الأول من هذه السنة ، وأقام بها فأطال المقام ، حتى انقضى الشتاء ، وهو مقيم ، فضجر العسكرُ ونفدت نفقاتهم ، وصار العود إلى بيوتهم مع الهزيمة أحب إليهم من الظفر لما يتوقعونه إن ظفروا من طول المقام بالشام بعد هذه المدة ، ثم سار إلى حلب ، فنزل إليه سعدُ الدين كمشتكين الخادم ، مدبر دولة الملك الصالح ، ومعه عساكر حلب ، وكان صلاح الدين في قلة من العساكر لأنَّه كان صالح الفرنج في المحرم من هذه السنة ، على ما نذكره إن شاء الله .

وقد سيَّر عساكره إلى مصر ، فأرسل يستدعيها ، فلو عالجوه لبلغوا غرضهم منه ، لكنهم تريثوا ، وتأخَّروا عنه ، فجاءته عساكره ، فسار من

[فوصل] إلى ناحية حلب ليلقى سيف الدين ، فالتقى العسكران بتل السلطان، وكان سيف الدين قد سبقه ، فلما وصل صلاح الدين كان وصوله العصر ، وقد تعب هو وأصحابه ، وعطشوا فألقوا نفوسهم إلى الأرض ليس فيهم حركة ، فأشار على سيف الدين جماعة بقتالهم ، وهم على هذا الحال ، فقال زلفندار : ما بنا هذه الحاجة إلى قتال هذا الخارجي في هذه الساعة ، غدا بكرة نأخذهم كلهم ، فترك القتال إلى الغد ، فلما أصبحوا اصطفوا للقتال ، فجعل زلفندار ، وهو المدبر للعسكر السيفي ، أعلامهم في وهْدة من الأرض ، لايراها إلا من هو بالقرب منها ، فلمّا لم يَرَها الناس ظنوا أن السلطان قد انهزم ، فلم يثبوا ، وانهزم ، ولم يلو أخٌ على أخيه ، ولم يقتل بين الفريقين مع كثرتهم غير رجل واحد ، ووصل سيف الدين إلى حلب وترك بها أخاه عز الدين مسعودًا في جمع من العسكر ، ولم يقم هو ، وعبر الفرات ، وسار إلى الموصل ، وهو لايصدق أنه ينجو ، وظن أن صلاح الدين يعبر الفرات ، ويقصده بالموصل ، فاستشار وزيره جلال الدين ، ومجاهد الدين قايماز ، في مفارقة الموصل ، والاعتصام بقلعة عقرا الحميدية ، فقال له مجاهد الدين : أرايت إن مُلِكت الموصل عليك ، أتقدر أن تمتنع ببعض أبراج الفصيل .؟ فقال : لا ، فقال : برج في الفصيل خيرٌ من العقر ، وما زال الملوك ينهزمون ، ويعاودون الحرب ، واتفق هو ، والوزير على شد أزره ، وتقوية قلبه ، فثبت ، ثمَّ أعرض عن زلفندار وعزله واستعمل مكانه على إمارة الجيوش مجاهد الدين قايماز ، على ما نذكره إن شاء الله .

www.alkottob.com

وقد ذكر العماد الكاتب في كتاب البرق الشاميّ في تاريخ الدولة الصلاحية ، أنّ سيف الدين كان عسكره في هذه الوقعة عشرين ألف فارس ، ولم يكن كذلك ، وإنما كان على التحقيق يزيدون على ستة آلاف فارس ، أقل من خمسمائة ، فإنّني وقفت على جريدة العرض ، وترتيب العسكر المصاف ، ميمنة ، وميسرة وقلبًا ، وجاليشية ، وغير ذلك ، وكان المتولى لذلك ، والكاتب له ، أخي مجد الدين ، أبا السعادات ، المبارك بن محمد بن عبد الكريم رحمه الله : إنما قصد العماد أن يعظم أمر صاحبه ، بأنه هزم بستة آلاف ، عشرين ألفًا والحق أحقٌّ أن يتبع ، ثمَّ ياليت شعري كم هي الموصل ، وأعمالها إلى الفرات حتى يكون لها ، وفيها عشرون ألف فارس .

ذكر ما ملكه صلاح الدين بعد الكسرة من بلاد الصالح بن نور الدين

لما انهزم سيف الدين ، وعسكره ووصلوا إلى حلب ، عاد سيف الدين إلى الموصل ، كما ذكرناه . وترك بحلب أخاه عز الدين مسعودًا في طائفة من العسكر ، نجدة للملك الصالح ، وأما صلاح الدين ، فإنه لما استولى على أثقال العسكر الموصلي ، هو ، وعسكره ، وغنموها ، واتّسعوا بها ، وفروا سار إلى بزاعة فحصرها ، وقاتله من بالقلعة ، ثم تسلمها ، وجعل فيها من يحفظها ، وسار إلى مدينة منبج فحصرها ، آخر شوال ، وبها صاحب قطب الدين ، ينال بن حسان المنبجي ، وكان شديد العداوة لصلاح الدين ، والتحريض عليه والاطماع فيه ، والطعن

فيه ، فصلاح الدين حنق عليه متهدد له فأمّا المدينة فملكها ، ولم تمتنع عليه وبقي القلعة ، وبها صاحبها قد جمع إليها الرجال ، والسلاح ، والذخائر ، فحصره صلاح الدين . وضيق عليه وزحف إلى القلعة فوصل النقّابون إلى السور فنقبوها ، وملكوها عنوة ، وغنم العسكر الصلاحي كل ما فيها ، وأخذ صاحبها أسيرًا ، فأخذ صلاح الدين كل ماله ، وأصبح فقيرًا لايملك نقيرًا ، ثم أطلقه صلاح الدين فسار إلى الموصل ، فأقطعه سيف الدين غازي مدينة الرقة ، ولما فرغ صلاح الدين من منبج سار إلى قلعة إعزاز ، فنازلها ثالث ذي القعدة من السنة ، وهي من أحصن القلاع وأمنعها ، فنازلها ، وحصرها وأحاط بها ، وضيّق على من فيها ، ونصب عليها المنجنيقات، وقُتل عليها كثير من العسكر .

فبينما صلاح الدين يومًا في خيمة لبعض أمرائه ، يقال له جاولي ، وهو مقدم الطائفة الأسدية ، إذ وثبت عليه باطني فضربه بسكين في رأسه، فجرحه فلولا أن المغفر الزرد تحت القلنسوة لقتله ، فأمسك صلاح الدين يد الباطني بيده ، إلا أنه لايقدر على منعه من الضرب بالكلية إنما يضرب ضربًا ضعيفًا ، فبقي الباطني يضربه في رقبته بالسكين ، وكان عليه كزاغند ، فكانت الضربات تقع في زيق الكزاغند ، فتقطعه ، والزردية تمنعها من الوصول إلى رقبته ، لبعد أجله ، فجاء أمير من أمرائه، اسمه بازكش ، فأمسك السكين بكفه ، فجرحه الباطني ، ولم يطلقها من يده إلى أن قتل الباطني ، وجاء آخر من الإسماعيلية فقتل أيضًا ، وثالث فقتل وركب صلاحُ الدين إلى خيمته كالمذعور ، لا يصدق

www.alkottob.com

بنجاته ، ثم اعتبر جنده ، فمن أنكره ، أبعده ، ومن عرفه ، أقره على خدمته ، ولازم حصار إعزاز ثمانية وثلاثين يومًا ، كلُّ يوم أشد قتالاً مما قبله ، وكثرت النقوب فيها ، فأذعن من بها ، وسلموا القلعة إليه فتسلمها حادي عشر ذي الحجة .

ذكر حصر صلاح الدين مدينة حلب والصلح عليها

لما ملك صلاح الدين قلعة إعزاز ، رحل إلى حلب ، فنازلها منتصف ذي الحجة ، وحصرها ، وبها الملك الصالح ، ومن معه من العساكر ، وقد قام العامة في حفظ البلد القيام المرضي ، بحيث إنَّهم منعوا صلاح الدين من القرب من البلد ، لأنه كان إذا تقدم للقتال خسر هو ، وأصحابه ، وكثر الجراحُ فيهم ، والقتل ، وكانوا يخرجون ، ويقاتلونه ظاهر البلد ، فترك القتال ، وأخلد للمطاولة ، وانقضت سنة إحدى وسبعين ، ودخلت سنة اثنتين وسبعين ، وهو محاصر لها ، ثم ترددت الرسل بينهم في الصلح في العشرين من المحرم ، فوقعت الإجابة إليه من الجانبين لأن أهل حلب خافوا من طول الحصار ، فإنَّهم ربما ضجروا ، وضعفوا ، وصلاح الدين ، رأى أنه لايقدر على الدنو من البلد، ولا على قتال من به ، فأجاب أيضًا ، وتقررت القاعدة في الصلح للجميع للملك الصالح ، ولسيف الدين صاحب الموصل ، ولصاحب الحصن ، ولصاحب ماردين ، وتحالفوا ، واستقرت القاعدة أن يكونوا كلهم عونًا على الناكث الغادر ، فلما انفصل الأمر ، رحل عن حلب بعد

إن أعاد قلعة إعزاز إلى الملك الصالح فإنه أخرج صلاح الدين أختًا له ، **صغيرة طفلة** ، فأكرمها صلاحُ الدين وحمل لها شيئًا كثيرًا وقال لها : ما **تريدين قالت** : أريد قلعة إعزاز ، وكانوا قد علموها ذلك . فسلمها إليهم **ورحل** إلى بلد الإسماعيلية .

ذكر الفتنة بمكة وعزل أميرها وإقامة غيره

في هذه السنة في ذي الحجة ، كان بمكة حرب شديدةٌ بين أمير الحاج **طاشتكين** ، وبين الأمير مكثر بن عيسى ، أمير مكة ، وكان الخليفة قد **أمر أمير** الحاج بعزل مكثر وإقامة أخيه داود مقامه ، وسبب ذلك أنه كان **قد بنى قلعة** على جبل أبي قبيس فلما سار الحاج عن عرفات ، لم يبيتوا **بالمزدلفة** ، وإنما اجتازوا بها ، فلم يرموا الجمار ، إنما بعضهم رمى **بعضها**، وهو سائر ، ونزلوا الأبطح فخرج إليهم ناس من أهل مكة **فحاربوهم** وقتل من الفريقين جماعة ، وصاح الناس الغزاة إلى مكة **فهجموا** عليها . فهرب أمير مكة مكثر ، فصعد إلى القلعة التي بناها على **جبل أبي قبيس** ، فحصروه بها ، ففارقها . وسار عن مكة وولّي أخوه **داود الإمارة** ونهب كثيرًا من الحاج وأخذوا من أموال التجارة المقيمين بها **شيئًا كثيرًا** ، وأحرقوا دورًا كثيرة ، ومن أعجب ما جرى فيها أن إنسانًا **زرافا** ضرب دارًا ، بقارورة نفط ، فأحرقها ، وكانت لأيتام فأحرقت ما **فيها** . ثم أخذ قارورة أخرى ليضرب بها مكانًا آخر ، فأتاه حجر ، **فأصاب** القارورة فكسرها . فاحترق هو بها ، فبقي ثلاثة أيام يعذب بالحريق ، ثم مات

www.alkottob.com

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة في شهر رمضان ، انكسفت الشمس جميعها ، وأظلمت الأرض حتى بقي الوقت كأنه ليلٌ مظلم ، وظهرت الكواكب ، وكان ذلك ضحوة النهار ، يوم الجمعة ، التاسع والعشرين منه ، وكنتُ حينئذ صبيًا بظاهر جزيرة ابن عمر ، مع شيخ لنا من العلماء أقرأ عليه الحساب ، فلما رأيت ذلك خفت خوفًا شديدًا وتمسكت به فقوَّى قلبي ، وكان عالمًا بالنجوم أيضًا ، وقال لي : الآن ترى هذا جميعه انصرف ، فانصرفت سريعًا .

وفيها ولّى الخليفة المستضيء بأمر الله حجبة الباب ، أبا طالب نصر بن علي الناقد ، وكان يلقب في صغره قنبرًا ، فصاروا يصيحون به ذلك إذا ركب فأمر الخليفة أن يركب معه جماعة من الأتراك ، ويمنعون الناس من ذلك ، فامتنعوا ، فلما كان قبل العيد خلع عليه ليركب في الموكب ، فاشترى جماعة من أهل بغداد من القنابر شيئًا كثيرًا ، وعزموا على إرسالها في الموكب ، إذا رأوا ابن الناقد ، فأنهي ذلك إلى الخليفة ، وقيل له يصير الموكب ضحكة فعزله وولى ابن المعوج .

وفيها في ذي الحجة ، يوم العيد ، وقعت فتنة ببغداد بين العامة ، وبين الأتراك ، بسبب أخذ جمال النحر فقتل بينهم جماعة ، ونهب شيء كثير من الأموال ، ففرق الخليفة أموالاً جليلةً فيمن نهب ماله .

وفيها زلزلت بلاد العجم من جهة العراق إلى ما وراء الري ، وهلك فيها خلق كثير وتهدمت دور كثيرة ، وأكثر ذلك كان بالري وقزوين .

وفيها في ربيع الآخر ، استوزر سيف الدين غازي صاحب الموصل ، جلال الدين ، أبا الحسن بن جمال الدين محمد بن علي ، وكان جمال الدين وزير البيت الأتابكي ، وقد تقدمت أخباره ، وهو المشهور بالجود والإفضال ، ولما ولى جلال الدين الوزارة ظهرت منه كفاية عظيمة ومعرفة تامة بقوانين الوزارة ، وله مكاتبات ، وعهود حسنة مدونة مشهورة ، وكان جوادًا فاضلاً خيِّرًا وكان عمره لما ولى الوزارة خمسًا وعشرين سنة .

وفيها في ذي الحجة استناب سيف الدين أيضًا عنه بقلعة الموصل مجاهد الدين قايماز وفوض إليه الأمور وكان قبل ذلك إليه الأمر بمدينة إربل، وأعمالها ، وكان - رحمه الله - من صالحي الأمراء وأرباب المعروف ، بنى كثيرًا من الجوامع ، والخانات في الطرق ، والقناطر على الأنهار ، والربط ، وغير ذلك من أبواب البرِّ ، وكان دائم الصدقة ، كثير الإحسان عادل السيرة - رحمه الله .

وفيها قَبَضَ الخليفةُ على سنجر المقتفوي ، أستاذ الدار ، ورتب مكانه أبا الفضل ، هبة الله على بن هبة الله بن الصامت .

وفيها في رمضان ، قدم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب الذي ملك اليمن إلى دمشق ولما سمع أن أخاه صلاح الدين ملكها حنَّ إلى الوطن ، والأتراب ، ففارق اليمن ، وسار إلى الشام ، وأرسل من الطريق إلى أخيه صلاح الدين يعلمه بوصوله ، وكتب في الكتاب شعرًا من قول ابن المنجم المصري :

www.alkottob.com

وإلى صلاح الدين أشكو أنَّني ... من بعده مُضني الجَوانِحِ مُولعُ
جزعًا لبُعد الدَّار منه ولم أكن ... لولا هواه لبُعد دار أجزعُ
فلأركبنَّ إليه متنَ عزائمي ... ويخبُّ بي ركبُ الغرام ويُوضعُ

ولأقطعنَّ منَ النَّهارِ هواجرًا ... قلب النهار بحرها يتقطَّعُ
ولأسْرينَّ اللَّيلَ لا يسري به ... طيفُ الخيالِ ولا البروقُ اللمَّعُ
وأُقدمَنَّ إليه قلبي مخبرًا ... أني بجسمي من قريب أتبعُ
حتى أُشاهدَ منه أسعدَ طلعةٍ ... من أُفقها صبحُ السَّعادةِ يطلعُ

وفي هذه السنة في المحرم برز صلاحُ الدين من دمشق ، وقد عظم شأنُه ، بما ملكُه من بلاد الشام ، وبكسره عسكر الموصل فخافه الفرنج ، وغيرهم ، وعزم على دخول بلدهم ونهبه ، والإغارة عليه ، فأرسلوا إليه يطلبون الهدنة معه ، فأجابهم إليها ، وصالحهم ، فأمرَ العساكر المصريَّة بالعودة إلى مصر والاستراحة إلى أن يُعاود طلبهم ، وشرط عليهم ، أنه متى أرسل يستدعيهم لايتأخرون فساروا إليها ، وأقاموا بها، إلى أن استدعاهم للحرب مع سيف الدين على ما ذكرناه .

وفيها مات أبو الحسن علي بن عساكر البطائحي المقري ، وكان قد سمع الحديث الكثير ، ورواه ، وكان نحويًا جيّدًا .

وفي ذي الحجة منها توفي أبو سعد ، محمد بن سعيد بن محمد بن الرزّاز سمع الحديث ورواه ، وله شعر جيد ، فمن ذلك ، أنه كتب إليه بعض أصدقائه مكاتبةٌ وضمنها شعرًا فأجابه :

يا من أياديهِ تُغني من يُعدِّدها ... وليس يُحصِي مَداهَا مَن لها يَصِفُ
عَجزتُ عن شكْرِ ما أوليتَ من كرم ... وصِرتُ عبدًا ولي في ذلك الشَّرفُ
أهديت مَنظومَ شِعرٍ كلُّه دُررٌ ... فكلُّ ناظمِ عقدٍ عندَه يقفُ
إذا أتيت ببيتٍ منه كان لنا ... قصرًا ودرُّ المعاني فوقَه شرفُ
وإذا أتيتُ أنا بيتًا يُناقضُه ... أتيتُ لكن ببيتٍ سقفُهُ يكف
ما كنتُ منه ولا مِنْ أهلِهِ أبدًا ... وإنَّما حينَ أدنو منه أقتطِفُ

www.alkottob.com

ثم دخلت سنة اثنين وسبعين وخمسمائة

ذكر نهب صلاح الدين بلد الإسماعيلية

لَمّا رحل صلاح الدين حلب ، على ما ذكرناه ، قبل قصد بلا الإسماعيلية في المحرم ، ليقاتلهم بما فعلوه من الوثوب عليه ، وإرادة قتله ، فنهب بلدهم ، وخربه وأحرقه ، وحصر قلعة مصيات ، وهي أعظمُ حصونهم ، وأحصن قلاعهم ، فنصب عليها المنجنيقات ، وضيّق على من بها ، ولم يزل كذلك ، فأرسل سنان ، مقدم الإسماعيلية إلى شهاب الدين الحارمي ، صاحب حماة ، وهو خال صلاح الدين ، يسأله أن يدخل بينهم ، ويصلح الحال ، ويشفع فيهم ، ويقول له : إنْ لم تفعل قتلناك ، وجميعَ أهل صلاح الدين ، فشفع فيهم ، وسأل الصفح عنهم ، فأجابه إلى ذلك ، وصالحهم ، ورحل عنهم ، وكان عسكرُه قد ملّوا من طول البيكار وقد امتلأت أيديهم من غنائم عسكر الموصل ، ونهب بلد الإسماعيليّة ، فطلبوا العود إلى بلادهم للاستراحة ، فأذن لهم ، وسار هو إلى مصرَ مع عسكرها ، لأنه كان قد طال عهده عنها ، ولم يمكنه المضي إليها ، فيما تقدّم خوفًا على بلاد الشام ، فلما انهزم سيف الدين ، وحصر هو حلب وملك بلادها ، واصطلحوا ، أمن على البلاد ، فسار إلى مصر أمر ببناء سور على مصر ، والقاهرة ، التي على جبل المقطم دوره تسعة وعشرين ألف ذراع وثلثمائة ذراع بالذراع الهاشمي ، ولم يزل العمل فيه إلى أن مات صلاح الدين .

ذكر ظفر للمسلمين بالفرنج وللفرنج بالمسلمين

كان شمس الدين ، محمد بن عبد الملك بن المقدّم صاحب بعلبكَّ فأتاه خبر أنَّ جمعًا من الفرنج قد قصدوا البقاع ، من أعمال بعلبكَّ ، وأغاروا عليها ، فسار إليهم وكمن لهم في الشعراء ، والغياض ، وأوقع بهم ، وقتل فيهم ، وأكثر ، وأسر نحو مائتي رجل منهم وسيَّرهم إلى صلاح الدين وكان شمس الدولة تورانشاه ، أخو صلاح الدين وهو الذي ملك اليمن ، وقد وصل إلى دمشق ، كما ذكرناه ، وهو فيها فسمع أن طائفة من الفرنج قد خرجوا من بلادهم إلى أعمال دمشق ، فسار إليهم ولقيهم عند عين الجر في تلك المروج ، فلم يثبت لهم ، وانهزم عنهم ، فظفروا بجمع من أصحابه فأسروهم ، منهم سيف الدين وأبو بكر بن السلار ، وهو من أعيان الجند الدمشقيين ، واجترأ الفرنج بعدها ، وانبسطوا في تلك الولاية ، وجبروا الكسر الذي ناله منهم ابن المقدّم .

ذكر عصيان صاحب شهرزور على سيف الدين وعوده إلى طاعته

في هذه السنة عصي شهاب الدين محمد بن يزان ، صاحب شهرزور ، على سيف الدين غازي ، وكان في طاعته ، وتحت حكمه ، وكان سببُ ذلك ، أنَّ مجاهد الدين قايماز ، كان متوليًا مدينة إربل ، وكان بينه وبين ابن يزّان عداوة ، محكمة ، فلمّا استتاب سيف الدين مجاهد الدين بالموصل ، خاف ابن يزّان أن يناله منه أذى ، فأظهر الامتناع من النزول إلى الخدمة ، فأرسل إليه جلال الدين وزير سيف

www.alkottob.com

الدين كتابًا يأمره بمعاودة الطاعة ، ويحذِّره عاقبة المخالفة وهو من أحسنِ الكتب ، وأبلغها في هذا المعنى ، ولولا خوف التطويل لذكرته ، فيطلب من مكاتباته ، فلما وصل إليه الكتاب ، والرسول بادر إلى حضور الخدمة بالموصل ، وزال الخُلف .

ذكر فرج بعد شدة يتعلق بالتاريخ

بالقرب من جزيرة ابن عمر ، حصنٌ منيعٌ من أمنع المعاقل ، اسمه فنك ، وهو على رأس جبل عال ، وهو للأكراد البشنوية ، له بأيديهم نحو ثلثمائة سنة ، وكان صاحبه هذه السنة أميرًا منهم ، اسمه إبراهيم وله أخ اسمه عيسى قد أُخرج منه ، وهو لايزال يسعى في أخذه من أخيه إبراهيم ، فأطاعه بعض بطانة إبراهيم ، وفتح باب السر ليلاً ، وأصعدَ منه إلى رأس القلعة نيفًا وعشرين رجلا ، فقبضوا على إبراهيم ، ومن عنده ، ولم يكن عنده إلا نفر من خواصه ، وهذه قلّةٌ على صخرة كبيرة مرتفعة عن سائر القلعة ، ارتفاعًا كثيرًا ، وبها يسكن الأمير ، وأهله ، وخواصه ، وباقي الجند في القلعة ، تحت القلة ، فلما قبضوا على إبراهيم جعلوه في خزانة ، وضربه بعضهم بسيف في يده على عاتقه ، فلم يصنع شيئًا ، فلمَّا جعل في الخزانة وكِّل به رجلين ، وصعد الباقون إلى سطح القلعة ، ولا يشكّون أنّ القلعة لهم ، لا مانع عنها ، ووصل من الغد بكرة الأميرُ عيسى ليتسلم القلعة ، وبينهما دجلة ، وكانت امرأة الأمير إبراهيم في خزانة أخرى ، وفيها شبَّاك حديد ثقيل يشرف إلى القلعة ،

فجذبته بيدها ، فانقلع ، وجند زوجها في القلعة لايقدرون على شيء ، فلما قلعت الشباك ، أرادت أن تدلي حبلاً ترفع به الرجال إليها ، فلم يكن عندها غير ثياب خام ، فوصلت بعضها ببعض ، ودلَّتها إلى القلعة ، وشدّت طرفيها عندها في عود فأصعدت إليها عشرة رجال ، ولم يكن براهم الذين على السطح ، ورأى الأمير عيسى ، وهو على جانب دجلة الرجال يصعدون ، فصاح هو ، ومن معه إلى أولئك الذين على السطح ليحذروا ، وكان كلّما صاحوا صاح أهلُ القلعة لتختلف الأصوات ، فلا يفهم الذين على السطح فينزلون ، ويُمنعون من ذلك ، فلمّا اجتمع عندها عشرة رجال ، أرسلت مع خادم عندها إلى زوجها قدح شراب ، وأمرته أن يقرب منه كأنّه يسقيه الشراب ، ويعرفه الحال ، ففعل ذلك ، وجلس بين يديه ليسقيه ، وعرّفه الحال ، فقال : ازدادوا من الرجال فأصعدت عشرين رجلاً وخرجوا من عندها فمدَّ إبراهيم يده إلى الرجلين الموكلين به ، فأخذ شعورهما ، وأمر الخادم بقتلهما ، وكان عنده فقتلهما بسلاحهما ، فخرج ، واجتمع بأصحابه ، وأرادوا فتح القلعة ، ليصعد إليه أصحابه من القلّة ، فلم يجد المفاتيح ، وكانت مع أولئك الرجال الذين على السطح فاضطّروا إلى الصعود إلى سطح القلعة ليأخذوا أصحاب عيسى ، فعملوا الحال فجاءوا ووقفوا على رأس الممر ، فلم يقدر أحد يفعل ، فأخذ بعض أصحاب إبراهيم ترسًا ، وجعله على رأسه ، وحصل في الدرجة ، وصعد وقاتل القوم على رأس الممرق ، حتى صعد أصحابه ،

www.alkottob.com

فقتلوا الجماعة ، وبقي منهم رجل ألقى نفسه من السطح ، فنزل إلى أسفل الجبل فتقطع .

فلما رأى عيسى ما حلّ بأصحابه عاد خائبًا مما أمله ، واستقر الأمير إبراهيم في قلعته على حاله .

ذكر نهب البندنيجين

في هذه السنة ، وصل الملك الذي بخوزستان عند شملة ، وهو ابن ملكشاه ، بن محمود الى البندنيجين ، فخرّبها ونهبها ، وفتك في الناس، وسبى حريمهم ، وفعل كل قبيح ، ووصل الخبر إلى بغداد فخرج الوزير، عضد الدين ، وعرض العسكر ، ووصل العسكر الحلّة ، وواسط ، مع طاشتكين ، أمير الحاجّ وغرغلي ، وساروا نحو العدو ، فلما سمع بوصولهم ، فارق مكانه ، وعاد ، وكان معه من التركمان جمع كثير ، فنهبهم عسكر بغداد ، ورجعوا من غير أمر بالعود ، فأنكر عليهم ذلك ، وأمروا بالعود إلى مواقفهم ، فعادوا لأوائل شهر رمضان ، وقد رجع الملك ، فنهب من البندنيجين ما كان سلم في الأول ، ووقعت بينهم وبين الملك وقعة ثمّ افترقوا فمضى الملك ، وفارق ولاية العراق .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة ، في جمادى الأولى ، أقيمت الصلاة في الجامع الذي

فخر الدولة ، ابن المطلب ، بقصر المأمون ، غربي بغداد ، وفيها أمر ضياء الدين بناء المدرسة التي على قبر الشافعي - # - بمصر ، وعمّل بالقاهرة بيمارستان ، ووقف عليهما الوقوف العظيمة الكبيرة .

وفيها رأيتُ بالموصل خروفين ببطن واحد ، ورأسين ، وركبتين ، ويدين ، وثماني قوائم ، كأنهما خروفان ببطن واحد ، وجه أحدهما إلى وجه الآخر ، وهذا من العجائب .

وفيها انفضّ كوكبٌ أضاءت له الأرض إضاءة كثيرة ، وسُمع له صوت عظيم ، وبقي أثره في السماء مقدار ساعة وذهب .

وفيها تُوفّي تاج الدين ، أبو علي ، الحسن بن عبدالله ، المظفر بن رئيس الرؤساء ، أخو الوزير عضد الدين وزير الخليفة .

وفيها في المحرّم توفّي القاضي كمال الدين ، أبو الفضل ، محمد بن عبدالله بن القاسم الشهرزوري ، قاضي دمشق ، وجميع الشام ، وإليه الوقوف بها ، والديوان وكان جوادًا فاضلاً ، رئيسًا ذا عقل ، ومعرفة ، في تدبير الدول - رحمه الله ورضي عنه - .

www.alkottob.com

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة
ذكرُ انهزام صلاح الدين بالرملة

في هذه السنة في جمادى الأولى ، سار صلاح الدين ، يوسف بن أيّوب من مصر ، إلى ساحل الشام لقصد غزاة بلاد الفرنج ، وجمع معه عساكره ، وجنوده فلم يزالوا يجدون السير حتى وصلوا إلى عسقلان في الرابع والعشرين منه ، فنهبوا ، وأسروا ، وقتلوا ، وأحرقوا ، وتفرّقوا، في تلك الأعمال مغيرين ، فلمّا رأوا أنّ الفرنج لم يظهر لهم عسكر ، ولا اجتمع لهم من يحمي البلاد من المسلمين ، طمعوا وانبسطوا ، وساحوا في الأرض آمنين .

وصل صلاح الدين إلى الرملة ، عازمًا على أن يقصد بعض حصونهم ليحصره فوصل إلى نهر ، فازدحم الناس للعبور ، فلم يرعهم إلا والفرنج قد أشرفت عليهم ، بأطلابها ، وأبطالها وكان مع صلاح الدين بعض العسكر ، لأنّ أكثرهم تفرّقوا في طلب الغنيمة ، فلمّا رآهم ، وقف لهم فيمن معه ، وتقدّم بين يديه محمد ابن أخي صلاح الدين ، فباشر القتال بنفسه بين يدي عمه ، فقُتل من أصحابه جماعة ، وكذلك من الفرنج ، وكان لتقي الدين ، ولد اسمه أحمد ، وهو من أحسن الشباب ، أوّل ما تكاملت لحيته ، فأمره أبوه بالحملة عليهم ، فحمل عليهم ، وقاتلهم ، وعاد سالمًا قد أثّر فيهم أثرًا كثيرًا ، فأمره بالعودة إليهم ثانية ، فحمل عليهم ، فقتل شهيدًا ، ومضى حميدًا ، - رحمه الله

ورضي عنه - وكان أشدَّ الناس قتالاً في ذلك اليوم ، الفقيه عيسى - رحمه الله - وتمّت الهزيمة على المسلمين ، وحمل بعض الفرنج على صلاح الدين ، فقاربه حتى كاد يصل إليه ، فقتل الفرنجي بين يديه ، وتكاثر الفرنج عليه ، فمضى منهزمًا ، يسير قليلاً ، ويقف ليلحقه العسكر إلى أن دخل الليل ، فسلك البريّة إلى أن مضى في نفر يسير إلى مصر ، ولقوا في طريقهم مشقّة شديدة ، وقلّ عليهم الموت والماء ، وهلك كثير من دواب العسكر جوعًا ، وعطشًا ، وسرعة سير .

وأما العسكر الذي كانوا دخلوا بلاد الفرنج في الغارة ، فإن أكثرهم ذهب ما بين قتيل وأسير ، وكان من جملة من أسر ، الفقيه عيسى الهكاري ، وهو من أعيان الأسدية ، وكان جمع العلم ، والدين ، والشجاعة ، وأسر أيضًا أخوه الظهير ، وكانا قد سارا منهزمين ، فضلا الطريق فأخذا ، ومعهما جماعة من أصحابهما ، وبقوا سنين في الأسر ، فافتدى صلاح الدين الفقيه عيسى - بستين ألف دينار - وجماعة كثيرة من الأسرى ، ووصل صلاح الدين إلى القاهرة نصف جمادى الآخرة ، ورأيت كتابًا كتبه صلاح الدين بخط يده إلى أخيه شمس الدولة ، تورانشاه ، وهو بدمشق يذكر الوقعة وفي أوله

ذكرتُك والخطيّ يخطرُ بيننا وقد نَهِلتْ منا المثقفة السمر

ويقول فيه : لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة ، وما أنجانا الله سبحانه منه إلا لأمر يريد ، سبحانه :

وما ثَبتتْ إلا وفي نفسِها أَمْرُ

www.alkottob.com

ذكر حصر الفرنج مدينة حماة

في هذه السنة في جمادى الأولى حصر الفرنج أيضًا مدينة حماة ، وسبب ذلك ، أنّه وصل من البحر إلى الساحل الشاميّ ، كندٌ كبير من الفرنج ، من أكبر طواغيتهم ، فرأى صلاح الدين بمصر ، وقد عاد منهزمًا ، فاغتنم خلوَّ البلاد ، لأنّ شمس الدولة بن أيّوب كان بدمشق ينوب عن صلاح الدين ، وليس عنده كثير من العسكر ، وكان أيضًا كثير الانهماك في اللذات ، مائلا إلى الراحات ، فجمع ذلك الكند الفرنجي من بالشام من الفرنج ، وفرق فيهم الأموال ، وسار إلى مدينة حماة ، فحصرها ، وبها صاحبها شهاب الدين محمود الحارمي ، خال صلاح الدين ، وهو مريض ، شديد المرض ، وكان طائفة من العسكر الصلاحي بالقرب منها فدخلوا إليها وأغاثوا من بها ، وقاتل الفرنج على البلد قتالاً شديدًا ، وهجموا بعض الأيام على طرف منه ، وكادوا يملكون البلد قهرًا وقسرًا ؛ فاجتمع أهل البلد مع العسكر إلى تلك الناحية واشتدَّ القتال ، وعظم الخطبَ ، على الفريقين ، واستقتل المسلمون ، وحاموا على الأنفس، والأهل والمال ، فأخرجوا الفرنج من البلد إلى ظاهرة ، ودام القتال ظاهر البلد ليلاً ، ونهارًا ، وقويت نفوس المسلمين حين أخرجوهم من البلد ، وطمعوا فيهم ، وأكثروا فيهم القتل ، فرحل الفرنج حينئذ خائبين ، وكفى الله المسلمين شرَّهمْ فساروا إلى حارم فحصروها وكان مقامهم على حماة أربعة أيّام ولمّا رحل الفرنج عن حماة مات صاحبها شهاب الدين الحارمي ، وكان له ابن من أحسن النّاس شبابًا مات قبله بثلاثة أيام .

ذكر قتل كمشتكين وحصر الفرنج حارم

في هذه السنة قبض الملك الصّالح بن نور الدين ، على سعد الدين كمشتكين وكان المتولّي لأمر دولته ، والحاكم فيها ، وسبب قبضه أنه كان بحلب إنسانٌ من أعيان أهلها ، يقال له أبو صالح بن العجمي ، وكان مقدَّمًا عند نور الدين محمود ، فلمّا مات نور الدين ، تقدّم أيضًا في دولة ولده الملك الصالح ، وصار بمنزلة الوزير الكبير المتمكّن ، لكثرة أتباعه بحلب ، وصار كل من كان يحسد كمشتكين انضمّ إلى صالح ، وقووا جنانه ، وكثروا سواده ، وكان عنده إقدام وجراءة ، فصار واحد الدولة بحلب ، ومن يصدر الجماعة عن رأيه ، وأمره ، فبينما هو في بعض الأيام في الجامع وثب به الباطنيّة فقتلوه ، ومضى شهيدًا ، وتمكن بعده سعد الدين ، وقوى حاله فلما قتل أحال الجماعة قتله على سعد الدين وقالوا هو وضع الباطنية عليه حتى قتلوه وذكروا ذلك للملك الصالح ، ونسبوه إلى العجز ، وأنه ليس له حكم ، وأن سعد الدين قد تحكّم عليه، واحتقره ، واستصغره ، وقتل وزيره ، ولم يزالوا به حتى قبض عليه ، وكانت قلعة حارم لسعد الدين قد أقطعه إياها الملك الصالح ، فامتنع من بها بعد قبضه وتحصنوا فيها ، فسير سعد الدين إليها تحت الاستظهار ليأمر أصحابه بتسليمها إلى الملك الصالح فأمر بذلك فامتنعوا فعذب كمشتكين وأصحابه يرونه ، ولايرحمونه ، فمات في العذاب ، وأصرَّ أصحابه على الامتناع ، والعصيان . فلمَّا رأى الفرنج ذلك ساروا إلى حارم من حماة في جمادى الأولى - على ما نذكره - ظنًا منهم أنّهم لا ناصر لهم، وإن

www.alkottob.com

الملك الصالح صبيّ ، قليل العسكر ، وصلاح الدين بمصرَ ، فاغتنموا هذه الفرصة ، ونازلوها ، وأطالوا المقام عليها مدّة أربعة أشهر ، ونصبوا عليها المنجنيقات ، والسلالم ، فلم يزالوا كذلك إلى أن بذل لهم الملك الصالح مالاً ، وقال لهم إنّ صلاح الدين واصل إلى الشام وربما يسلم القلعة من بها إليه ، فأجابوه حينئذ إلى الرحيل عنها ، فلما رحلوا عنها سيّر إليها الملك الصالح جيشًا ، فحصروها وقد بلغ الجهد منهم بحصار الفرنج ، وصاروا كأنّهم طلائع ، وكان قد قتل من أهلها وجرح كثير ، فسلموا القلعة إلى الملك الصالح ، فاستناب بها مملوكًا كان أبيه اسمه سرخك .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة في المحرَّم ، خطب للسلطان طغرل بن أرسلان بن طغرل بن محمد ابن ملكشاه ، المقيم عند أيلدكز ، بهمذان ، وكان أبوه أرسلان قد توفي .

وفيها سابع شوال ، هبَّت ببغداد ريح عظيمة ، فزُلزلت الأرض ، واشتدّ الأمر على الناس ، حتى ظنوا أنَّ القيامة قد قامت ، فبقي ذلك ساعة ثمَّ انجلت وقد وقع كثير من الدور ومات فيها جماعة كثيرة .

وفيها رابع ذي القعدة ، قتل عضد الدين ، أبو الفرج ، محمَّد بن عبدالله بن هبة الله ابن المظفر ابن رئيس الرؤساء ، أبي القاسم بن المسلمة، وزير الخليفة ، وكان قد عزم على الحج فَعَبَرَ دجلة ليسير ، وعبر

معه أرباب المناصب ، وهو في موكب عظيم ، وتقدّم إلى أصحابه أن لا يمنعوا عنه أحدًا ، فلمّا وصل إلى باب قطيبا لقيه كهل فقال : أنا مظلوم وتقدّم ليسمع الوزير كلامه ، فضربه بسكين في خاصرته ، فصاح الوزير قتلني ، ووقع من الدابة ، وسقطت عمامته ، فغطّى رأسه بكمّه ، وضرب الباطنيّ بسيف ، وعاد إلى الوزير فضربه ، وأقبل حاجب الباب، ابن المعوج ليُنصر الوزير ، فضربه الباطني بسكين ، وقيل بل ضربه رفيق كان للباطني ، ثم قتل الباطني ورفيقه ، وكان لهما رفيق ثالث ، فصاح وبيده سكّين فقتل ، ولم يعمل شيئًا ، وأحرقوا ثلاثتهم وحمل الوزير إلى دار له هناك ، وحمل حاجب الباب مجروحا إلى بيته ، فمات هو والوزير ، وحمل الوزير ، فدفن عند أبيه بمقبرة الرباط عند جامع المنصور ، وكان الوزير قد رأى في المنام ، أنه معانق عثمان بن عفان وحكى عنه والده أنه اغتسل قبل خروجه ، وقال : هذا غسل الإسلام وأنا مقتول بلا شك ، وكان مولده في جمادى الأولى ، سنة أربع عشرة وخمسمائة ، وكان أبوه أستاذ دار المقتفي لأمر الله فلما ماتَ ، ولّى هو مكانه كذلك إلى أن مات المقتفى ، فأقره المستنجد على ذلك ، ورفع قدره، فلمّا ولّى المستضيء استوزره ، وكان حافظًا للقرآن سمع الحديث ، وله معروف كثير ، وكانت داره مجمعًا للعلماء ، وختمت أعماله بالشهادة، وهو على قصد الحج .

وفيها كانت فتنة ببغداد ، وسببها أنه حضر قوم من مسلمي المدائن إلى بغداد ، فشكوا من يهودها ، وقالوا لنا : مسجد نؤذن فيه ونصلّي

www.alkottob.com

وهو مجاور الكنيسة ، فقال لنا اليهود : قد آذيتمونا بكثرة الأذان ، فقال المؤذّن ما نبالي بذلك ، فاختصموا ، وكانت فتنة استظهر فيها اليهود ، فجاء المسلمون يشكون منهم ، فأمر ابن العطّار ، وهو صاحب المخزن ، بحبسهم ، ثمّ أخرجوا فقصدوا جامع القصر ، واستغاثوا قبل صلاة الجمعة ، فخفّف الخطيب الخطبة ، والصلاة ، فعادوا يستغيثون فأتاهم جماعة من الجند، ومنعوهم ، فلما رأى العامّة ما فعل بهم غضبوا نصرة للإسلام ، فاستغاثوا ، وقالوا أشياء قبيحة ، وقلعوا طوابيق الجامع ورجموا الجندَ فهربوا ثمّ قصد العامّة دكاكين المخلطين لأن أكثرهم يهود ، فنهبوها وأراد حاجب الباب منعهم ، فرجموه فهرب منهم ، وانقلب البلد، وخربوا الكنيسة التي عند دار البساسيري ، وأحرقوا التوراة ، وأمر الخليفة أن تنقض الكنيسة التي بالمدائن وتجعل مسجدًا ، وتصب بالرحبة أخشاب ليصلب عليها قوم من المفسدين ، فظنها العامّة نصبت تخويفًا لهم، لأجل ما فعلوه ، فعلقوا عليها في الليل جرذانًا ميتة ، وأخرج جماعة من الحبس لصوص فصلبوا عليها .

وفيها في شعبان ، قبض سيف الدين ، غازي ، صاحب الموصل ، على وزيره ، جلال الدين ، علي بن جمال الدين ، لغير جرم ، ولا عجز ، ولا لتقصير ، بل لعجز سيف الدين ، فإنّ جلال الدين كان بينه وبين مجاهد الدين قايماز مشاحنة ، فقال مجاهد الدين لسيف الدين : لابد من قبض الوزير ، فقبض عليه كارهًا لذلك ، ثم شفع فيه ابن رئيس آمد لصهورة بينهما ، فأخرج وسار إلى آمد فمرض بها ، وعاد إلى دنيسر ،

ت سنة خمس وسبعين ، وعمره سبع وعشرين سنة ، وحمل إلى مدينة النبيّ ﷺ ، فدفن عند والده في الرباط الذي بناه بها ، وكان رحمه الله ، من محاسن الدنيا جمع كرمًا ، وعلمًا ، ودينًا ، وعفةً ، وحسنَ سيرة ، واستحلفه سيف الدين ، أنه لايمضي إلى صلاح الدين ، لأن ف أن يمضي إليه للمودة التي كانت بين جمال الدين ، وبين نجم الدين ب ، وأسد الدين شيركوه ، فبلغني أنّ صلاح الدين طلبه فلم يقصده لليمين .

وفيها اجتمع الفرنج ، طائفة منهم ، وقصدوا أعمال حمص ، فنهبوها ، وغنموا وأسروا وسبوا ، فسار ناصر الدين ، محمد بن شيركوه ، صاحب حمص ، وسبقهم ، ووقف على طريقهم ، وكمن لهم ، فلمّا وصلوا إليه ، خرج إليه هو والكمين ، ووضعوا السيف فيهم فقتل أكثرهم ، وأسر جماعة من مقدميهم ، ومن سلم منهم ، لم يفلت إلا وهو مثخن بالجراح ، واستردّ منهم جميع ما غنموا ؛ فرده على أصحابه .

وفيها في ربيع الآخر ، توفي صدقة بن الحسين الحداد الذي ذيل تاريخ الزغواني ببغداد .

وفيها في جمادى الأولى ، توفّي محمد بن أحمد بن عبد الجبار ، الفقيه ، الحنفي ، المعروف بالمشطب ببغداد .

www.alkottob.com

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وخمسمائة
ذكر قصد الفرنج مدينة حماة أيضا

في هذه السنة في ربيع الأول سار ، جمع كثير من الفرنج بالشام إلى مدينة حماة ، وكثر جمعهم من الفرسان ، والرجالة طمعًا في النهب والغارة ، فشنّوا الغارة ، ونهبوا ، وخربوا القرى ، وأحرقوا ، وأسروا وقتلوا ، فلما سمع العسكر المقيم بحماة ، ساروا إليهم ، وهم قليل ، متوكلين على الله تعالى ، فالتقوا ، واقتتلوا ، وصدق المسلمون القتال ، فنصرهم الله تعالى ، وانهزم الفرنج ، وكثر القتل ، والأسر فيهم ، واستردّوا ما غنموه من السواد ، وكان صلاح الدين قد عاد من مصر إلى الشام ، في شوال من السنة المتقدّمة ، وهو نازل بظاهر حمص ، فحملت الرؤوس والأسرى والأسلاب إليه ، فأمر بقتل الأسرى ، فقتلوا .

ذكر عصيان ابن المقدم على صلاح الدين وحصر بعلبك وأخذ البلد منه

في هذه السنة عصى شمس الدين ، محمد بن عبد الملك المقدم على صلاح الدين ببعلبكّ ، وكانت له قد سلمها إليه صلاح الدين لما فتحها جزا له ، حيث سلم إليه ابن المقدم دمشق ، - على ما سبق ذكره - فلم تزل بيده إلى الآن ، فطلب شمس الدولة ، محمد بن أيوب ، أخو صلاح الدين منه بعلبك وألح عليه في طلبها لأنّ تربيته ومنشأة كان بها ، وكان يحبها ويختارها على غيرها من البلاد ، وكان الأكبر فلم يمكن صلاح الدين مخالفته ، فأمر شمس الدين بتسليمها إلى أخيه ليعوضه

عنها ، فلم يجب إلى ذلك وذكّره العهود التي له وما اعتمده معه من تسليم البلاد إليه ، فلم يصغ إليه وألحّ في أخذها ، وسار ابن المقدّم إليها واعتصم بها ، فوجّه إليه صلاح الدين عسكرًا وحصره بها مدّة ثم رحل عنها من غير أن يأخذها ، وترك عليه عسكرًا يحصره ، فلما طال عليه الحصار أرسل إلى صلاح الدين يطلبُ العوض عنها ليسلّمها إليه ، فعوّضه عنها وسلّمها فأقطعها صلاحُ الدين أخاه شمسَ الدولة .

ذكر الغلاء والوباء العام

في هذه السنة انقطعت الأمطار بالكليّة في سائر البلاد الشامية ، والجزيرة ، والعراقية والديار البكرية والموصل ، وبلاد الجبل ، وخلاط ، وغير ذلك ، واشتد الغلاء ، وكان عامًا في سائر البلاد ، فبيعت الغرارة الحنطة بدمشق ، وهي أربعة عشر مكوكا بالموصلي بعشرين دينارًا صوريّة عتق ، وكان الشعير بالموصل كل ثلاثة مكاكي بدينار أميري ، وفي سائر البلاد ما يناسب ذلك ، واستسقى الناس في إقطار الأرض فلم يسقوا ، وتعذّرت الأقوات ، وأكلت الناس الميتة ، وما ناسبها ، ودام كذلك إلى آخر سنة خمس وسبعين ، ثمّ تبعه بعد ذلك وباءٌ ، شديد عامٌّ أيضًا كثر فيه الموت ، وكان مرض النّاس شيئًا واحدًا وهو السرسام ، وكان الناس لايلحقون يدفنون الموتى . إلا أنّ بعض البلاد كان أشدّ من البعض ، ثمّ إن الله تعالى رحم العباد والبلاد والدواب ، وأرسل الأمطار ، وأرخص الأسعار .

www.alkottob.com

ومن عجيب ما رأيت أنّني قصدت رجلاً - من العلماء الصالحين - الجزيرة لأسمع عليه شيئًا من حديث النبي ﷺ في شهر رمضان ، سنة خمس وسبعين ، والناس في أشدّ ما كانوا غلاء وقنوطًا من الأمطار ، وقد توسَّط الربيع ولم تجيءْ قطرةٌ واحدةٌ من المطر ، فبينما أنا جالس ومعي جماعة تنتظر الشيخ ، وإذ قد أقبل إنسان تركماني قد أثر عليه الجوع ، وكأنّه قد أخرج من قبر ، فبكى وشكى الجوع ، فأرسلت من يشتري له خبزًا ، فتغيَّمت السماءُ وجاءت نقط من المطر متفرِّقة ، فضجَّ الناس واستغاثوا ثم جاء الخبز ، فأكل التركماني بعضه ، وأخذ الباقي ، ومشى، واشتد المطر ، ودام المطر من تلك الليل .

ذكر غارات الفرنج على بلاد المسلمين

في هذه السنة في ذي القعدة اجتمع الفرنج ، وساروا إلى بلد دمشق مع ملكهم ، فأغاروا على أعمالها ، فنهبوها ، وأسروا ، وقتلوا ، وسبوا، فأرسل صلاح الدين فرخشاه - ولد أخيه - في جمع من العسكر إليهم، وأمر أنّه إذا قاربهم يرسل إليه يخبره على جناح طائر ليسير إليه ، وتقدَّم إليه أن يأمر أهل البلاد بالانتزاح من بين يدي الفرنج ، فسار فرخشاه في عسكره يطلبهم ، فلم يشعر إلا والفرنج قد خالطوه ، فاضطر إلى القتال ، فاقتتلوا أشد قتال رآه الناس وألقى فرخشاه نفسه عليهم وغشى الحرب ولم يكلها إلى سواه . فانهزم الفرنج ، ونُصر المسلمون عليهم ، وقتل من مقدَّميهم جماعة ، ومنهم هنفري ، وما أدراك ما

هنفري ، كان يُضرب به المثل في الشجاعة والرأي في الحرب ، وكان بلاء صبه الله على المسلمين ، فأراح الله من شره ، وقتل غيره من أضرابه، ولم يبلغ عسكر فرخشاه ألف فارس .

وفيها أيضًا أغار البرنس صاحب انطاكية واللاذقية على حشير المسلمين بشيزر وأخذه ، وأغار صاحب طرابلس على جمع كثير من التركمان ، فأجحف بأموالهم ، وكان صلاحُ الدين على بانياس - على ما نذكره - إن شاء الله فسيّر ولد أخيه تقيَّ الدين عمر إلى حماة ، وابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه إلى حمص وأمرهما بحفظ البلاد وحياطة أطرافها من العدو ، دمرهم الله تعالى .

ذكر عدة حوادث

ليلة النصف من ربيع الآخر انكسف القمر ، نحو ثلث الليل الأخير، وغاب منكسفًا .

وفيها أيضًا في التاسع والعشرين انكسفت الشمس وقت العصر فغربت منكسبة .

وفي هذه السنة في شعبان توفي الحيص بيص الشاعر ، واسمه سعد بن محمد بن سعد أبو الفوارس ، وكان قد سمع الحديث ومدح الخلفاء ، والسلاطين ، والأكابر ، وشعره مشهور فمنه قوله :

www.alkottob.com

كلما أوسعتُ حلمي جاهلاً ... أوسعَ الفحشَ له فحشُ المقالِ

وإذا شاردةٌ فُهتُ بها ... سَبَقتْ مرَّ النَّعامى والشمالِ

لا تلمْني في شَقَائي بالعُلا ... رَغَدُ العيشِ لربَّاتِ الحجالِ

سيفُ عزٍّ زَانَهُ رونَقُهُ ... فهو بالطَّبْعِ غَنيٌّ عن صقالِ

وفي المحرم ماتت شهدة بنت أحمد بن عمر بن الإبري ، وسمعت الحديث من السرّاج وطرّاد ، وغيرهما وعمّرت هي قاربت مائة سنة ، وسمع عليها خلق كثير الحديث لعلّو إسنادها .

ثم دخلت سنة خمس وسبعين وخمسمائة

ذكر تخريب الحصن الذي بناه الفرنج عند مخاضة الأحزان

كان الفرنج قد بنوا حصنًا منيعًا يقارب بانياس عند بيت يعقوب - عليه السلام - بمكان يعرف بمخاضة الأحزان ، فلمّا سمع صلاح الدين بذلك سار من دمشق إلى بانياس ، وأقام بها ، وبث الغارات على بلاد الفرنج ، ثم سار إلى الحصن ، وحصره ، ليخبره ثم يعود إليه عند اجتماع العساكر ، فلمّا نازلَ الحصن قاتل من به من الفرنج ، ثم عاد عنه، فلما دخلت سنة خمس وسبعين لم يفارق بانياس ، بل أقام بها وخيلُه تُغيرُ على بلاد العدو ، وأرسل جماعة من عسكره ، مع جالي الميرة ، فلم تشعر إلاّ والفرنج مع ملكهم قد خرجوا عليهم ، فأرسلوا إلى صلاح الدين يعرِّفونه الخبر ، فسار في العساكر مجدًا حتى وافاهم وهم في القتال، فقاتل الفرنج قتالاً شديدًا ، وحملوا على المسلمين عدة حملات كادوا يزيلونهم عن مواقفهم ، ثمَّ أنزل الله نصره على المسلمين ، وهزم المشركين ، وقتلت منهم مقتلة كثيرة ، ونجا ملكهم فريدًا ، وأسر منهم كثير ، منهم ابن بيرزان صاحب الرملة ، ونابلس ، وهو أعظم الفرنج محلاً بعد الملك ، وأسروا أيضًا أخاه صاحب جبيل ، وصاحب طبرية ، ومقدم الداوية ، ومقدم الاسبتارية ، وصاحب جينين وغيرهم من مشاهير فرسانهم ، وطواغيتهم .

فأما ابن بيرزان فإنَّه فدى نفسه بمائة ألف وخمسين ألف دينار

www.alkottob.com

صورية ، وإطلاق ألف أسير من المسلمين ، وكان أكثر العمل في هذا اليوم لعز الدين فرخشاه ابن أخي صلاح الدين ، وحكى عنه ، قال : ذكرت في تلك الحال بيتي المتنبي وهما :

فإن تكنِ الدولاتُ قسمًا فإنها ... لمن يَرِدُ الموتَ الزؤامَ تؤولُ

ومن هوَّن الدنيا على النفسِ ساعةً ... وللبيض في هامِ الكماةِ صليل

فهان الموت في عيني فألقيت نفسي إليه ، وكان ذلك سبب الظفر ، ثمَّ عاد صلاح الدين إلى بانياس من موضع المعركة ، وتجهَّز للدخول إلى ذلك الحصن ، ومحاصرته ، فسار إليه في ربيع الأول وأحاط به ، وقوى طمعه بالهزيمة المذكورة في فتحه ، وبثَّ العساكر في بلد الفرنج للإغارة ، ففعلوا ذلك ، وجمعوا من الأخشاب والزرحون شيئًا كثيرًا ليجعله متاريس للمنجنيقات ، فقال له جاولي الأسدي - وهو مقدم الأسدية ومن أكابر الأمر - الرأي أننا نجرّبهم بالزحف أوَّل مرَّة ، ونذوق قتال من به ، وننظر الحال معهم ، فإن استضعفناهم وإلا فنصب المنجنيقات ما يفوت ، فقبل رأيه ، وأمر فنودي بالزحف إليه والجدّ في قتاله ، فزحفوا واشتدّ القتال ، وعظم الأمر ، فصعد إنسان من العامة بقميص خلق في باشورة الحصن وقاتل على السور لما علاه ، وتبعه غيره من أضرابه ، ولحق بهم الجند فملكوا الباشورة فصعد الفرنج حينئذ منها إلى أسوار الحصن ليحموا نفوسهم ، وحصنهم إلى أن يأتيهم المدد ، وكان الفرنج قد جمعوا

بطبريّة ، فالح المسلمون في قتال الحصن خوفًا من وصول الفرنج إليهم ، وإزاحتهم عنه وأدركهم الليل ، فأمر صلاح الدين بالمبيت بالباشورة إلى الغد ففعلوا ، فلما كان الغدّ أصبحوا نقبوا الحصن وعمَّقوا النقب ، وأشعلوا النيران فيه ، وانتظروا سقوط السور فلم يسقط لعرضه ، فإنه كان تسعة أذرع بالنجاري يكون الذراع ذراعا ونصفًا ، فانتظروه يومين فلم يسقط فأمر صلاح الدين بإطفاء النار التي في النقب ، فحمل الماء وألقى عليها فطفئت ، وعاد النقابون فنقبوا ، وخرقوا السور ، وألقوا فيه النار ، فسقط يوم الخميس لست بقين من ربيع الأول ، ودخل المسلمون الحصن عنوة ، وأسروا كل من فيه ، وأطلقوا من كان به من أسارى المسلمين ، وقتل صلاح الدين كثيرًا من أسرى الفرنج ، وأدخل الباقين إلى دمشق فسجنوا ، وأقام صلاح الدين بمكانه حتى هدم الحصن وعفَّى أثره ، وألحقه بالأرض ، وكان قد بذل للفرنج ستين ألف دينار مصرية ليهدموه بغير قتل فلم يفعلوا ، ظنًّا منهم أنه إذا بقي بناؤه تمكنوا به من كثير من بلاد الإسلام ، وأما الفرنج فاجتمعوا بطبرية ليحموا الحصن ، فلمّا أتاهم الخبر بأخذه فت في أعضادهم ، فتفرقوا إلى بلادهم ، وأكثر الشعراء فيه ، فمن ذلك قول صديقنا النشو بن نفاذة رحمه الله :

هلاكُ الفرنج أتى عاجلاً ... وقد آن تكسيرُ صُلبانِها

ولَوْ لَمْ يكنْ قدْ دنا حتفُهَا ... لما عمرت بيتَ أحزانِها

وقول علي بن محمد الساعاتي الدمشقي :

www.alkottob.com

أتسكن أوطانَ النَّبيينَ عصبةٌ تمينُ لدى أيمانِها وهي تحلفُ
نصحتكم والنصح للدين واجب ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف

ذكر الحرب بين عسكر صلاح الدين وعسكر قلج ارسلان

في هذه السنة كان الحرب بين عسكر صلاح الدين يوسف بن أيوب، ومقدمهم ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، وبين عسكر الملك قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان ، صاحب بلاد قونية ، واقصروا ، وسببها أنَّ نورَ الدين محمود بن زنكي بن آقنسقر رحمه الله كان قد أخذ قديمًا من قلج ارسلان حصن رعبان ، وكان بيد شمس الدين بن المقدم إلى الآن ، فطمع فيه قلج أرسلان بسبب أنّ الملك الصالح بحلب بينه وبين صلاح الدين ، فأرسل إليه من يحضره ، فاجتمع عليه جمع كثير يقال كانوا عشرين ألف ، فأرسل إليهم صلاح الدين تقي الدين في ألف فارس ، فواقعهم ، وقاتلهم ، وهزمهم ، وأصلح حال تلك الولاية وعاد إلى صلاح الدين ولم يحضر معه تخريب حصن الأحزان ، فكان يفتخر ويقول : هزمت بألف مقاتل عشرين ألفا .

ذكر وفاة المستضيء بأمر الله وخلافة الناصر لدين الله

في هذه السنة في ثاني ذي القعدة توفي الإمام المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين أبو محمد الحسن بن يوسف المستنجد - # ، وأمه أم ولد أرمنية تدعى غضة وكانت خلافته نحو تسع سنين وسبعة أشهر ، وكان مولده

ستة وثلاثين وخمسمائة ، وكان عادلاً حسن السيرة في الرعية كثير البذل للأموال ، غير مبالغ في أخذ ما جرت العادة بأخذه ، وكان النّاس معه في أمنٍ عامٍ ، وإحسان شامل ، وطمأنينة وسكون ، لم يروا مثله ، وكان حليمًا قليل المعاقبة على الذنوب ، محبًا للعفو والصفح عن المذنبين فعاش حميدًا ومات سعيدًا # فلقد كانت أيامه كما قيل :

كأنَّ أيامَهُ من حُسْنِ سيرتِه مواسمُ الحجِّ والأعيادِ والجَمعِ

ووزراؤه عضد الدين ، أبو الفرج بن رئيس الرؤساء إلى أن قتل في ذي القعدة سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة . ولما قتل حكم في الدولة ظهير الدين ، أبو بكر منصور ابن نصر المعروف ، بابن العطّار ، وكان خبيرًا حسن السيرة كثير العطاء ، وتمكن تمكنا كثيرًا ، فلما مات المستضيء قام ظهير الدين بن العطّار في أخذ البيعة لولده الناصر لدين الله أمير المؤمنين فلمَّا تمَّت البيعة صار الحاكم في الدولة ، أستاذ دار مجد الدين ، أبا الفضل بن الصاحب .

وفي سابع ذي القعدة قبض على ابن العطار ظهير الدين ، ووكّل عليه في داره ثمَّ نقل إلى التاج وقيد ، ووكّل به ، وطلب ودائعه وأمواله، وفي ليلة الأربعاء ثامن عشر ذي القعدة أخرج ميتًا على رأس حمَّال سرًا ، فغمز به بعض الناس ، فصار به العامَّة ، فألقوه عن رأس الحمَّال ، وكشفوا سوأته ، وشدّوا في ذكره حبلاً وسحبوه في البلد ، وكانوا وضعوا بيده مغرفة يعني أنّها قلم ، وقد غمسوها في العذرة ، ويقولون وقّع لنا يا

www.alkottob.com

مولانا إلى غير هذا من الأفعال الشنيعة ، ثم خلص من أيديهم ودفن هذا فعلهم به مع حسن سيرته فيهم ، وكفه عن أموالهم وأعراضهم ، وسيرت الرسل إلى الآفاق لأخذ البيعة فسيّر صدر الدين شيخ الشيوخ إلى البهلوان، صاحب همذان ، وأصفهان ، والري ، وغيرها فامتنع من البيع فراجعه صدر الدين ، وأغلظ له في القول حتى إنّه قال لعسكره في حضرته ، ما لهذا عليكم طاعة ما لم يبايع أمير المؤمنين بل يجب عليكم أن تخلعوه من الإمارة ، وتقاتلوه ، فاضطر إلى البيعة والخطبة وأرسل رضي الدين القزويني مدرس النظامية إلى الموصل لأخذ البيعة ، فبايع صاحبها وخطب للخليفة الناصر لدين الله .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة هبت ريح سوداء مظلمة بالديار الجزرية والعراق وغيرها، وعمّت أكثر البلاد من الظهر إلى أن مضى من الليل ربعه ، وبقيت الدنيا مظلمة لايكاد الإنسان يبصر صاحبه ، وكنت حينئذ بالموصل، فصلينا العصر ، والمغرب ، والعشاء الآخرة على الظنّ والتخمين ، وأقبل الناس على التضرّع ، والتوبة والاستغفار ، وظنّوا أن القيامة قد قامت ، فلمّا مضى مقدار ثلث الليل زال ذلك الظلام ، والعتمة التي غطت السماء ، فنظرنا فرأينا النجوم ، فعلمنا مقدار ما مضى من

الليل لأن الظلام لم يزد بدخول الليل ، وكان كل من يصل من جهة من الجهات يخبر بمثل ذلك .

وفيها في ذي القعدة ، نزل شمس الدين أخو صلاح الدين عن بعلبكّ ، وطلب عوضا عنها الإسكندرية ، فأجابه صلاح الدين إلى ذلك، وأقطع بعلبكّ لعز الدين فرخشاه ابن أخيه ، فسار إليها وجمع أصحابه وأغار على بلاد الفرنج حتى وصل إلى قلعة صفد وهي مطلة على طبرية فسبى وأسر وغنم ، وخرج وفعل في الفرنج أفاعيل عظيمة ، وأما شمس الدولة فإنه سار إلى مصر وأقام بالاسكندرية وإذا أراد الله أن يقبض رجلا بأرض جعل له إليها حاجة ، فإنه أقام بها إلى أن مات بها .

قارب الجامع الذي بناه مجاهد الدين قايماز بظاهر الموصل من جهة باب الجسر الفراغ ، وأقيمت فيه الصلوات الخمس والجمعة وهو من أحسن الجوامع .

وفيها توفّي أحمد بن عبدُ الرحمن الصوفي ، شيخ رباط الزوزني ، وسمع الحديث ، وكان يصوم الدهر . وعبدُ الحق بن عبد الخالق بن يوسف سمع الحديث ورواه ، وهو من بيت الحديث ، والقاضي عمر بن علي بن الخضر أبو الحسن الدمشقي سمع الحديث ورواه ، وولّى قضاء الحريم ، وعلي بن أحمد اليزيدي سمع الحديث الكثير ، وله وقف كتب

www.alkottob.com

كثيرة ببغداد ، وكان زاهداً خيّراً صالحًا ، ومحمدُ بن علي بن حمزة بن الأساسي نقيب العلويين بالكوفة وكان ينشد كثيراً .

ربّ قوم في خلائقهم غرر قد صيروا غررا
ستر المال القبيح لهم ستري إن زال ما سترا

ومحمد بن محمد بن عبد الكريم ، المعروف بابن سديد الدولة الأنباري ، كاتب الإنشاء بعد أبيه ، وأبو الفتوح نصر بن عبد الرحمن الدامغاني الفقيه ، كان مناظراً حسن المناظرة كثير العبادة ودفن عند قبر أبي حنيفة .

ثم دخلت سنة ست وسبعين وخمسمائة
ذكر وفاة سيف الدين صاحب الموصل
وولاية اخيه عز الدين بعده

في هذه السنة ثالث صفر توفي سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي ، صاحب الموصل ، وديار الجزيرة ، وكان مرضه السل ، وطال به ثمّ أدركه في آخره برسام ومات .

ومن عجيب ما يحكى أن الناس خرجوا سنة خمس وسبعين يستسقون لانقطاع الغيث ، وشدة الغلاء ، وخرج سيف الدين في موكبه، فثار به الناس ، وقصدوه بالاستغاثة ، وطلبوا منه أن يأمر بالمنع من بيع الخمر ، فأجابهم إلى ذلك ، فدخلوا البلد ، وقصدوا مساكن الخمارين ، وخرّبوا أبوابها ، ودخلوها ونهبوها ، وأراقوا ما بها من خمور ، وكسروا الظروف ، وعملوا ما لايحل ، فاستغاث أصحاب الدور إلى نواب السلطان ، وخصوا بالشكوى رجلاً من الصالحين يقال له : أبو الفرج الدقّاق ، ولم يكن في الذي فعله العامّة من النهب وما لايجوز فعله ، إنما هو أراق الخمور ونهى العامة عن الذي يفعلونه ، فلم يسمعوا منه ، فلما شكى الخمارون منه أحضر بالقلعة ، وضرب على رأسه ، فسقطت عمامته، فلما أطلق لينزل من القلعة نزل مكشوف الرأس فأرادوا تغطيته بعمامته ، فلم يفعل ، وقال : والله لا غطّيت رأسي حتى ينتقم الله لي ممّن ظلمني ، فلم يمضِ غير أيّام حتى توفي الزردار الذي تولى أذاه ، ثمّ

www.alkottob.com

بعقبه مرض سيف الدين ، واستمرَّ إلى أن مات ، وعمره حينئذ نحو ثلاثين سنة ، وكانت ولايته عشر سنين وثلاث أشهر ، وكان حسنَ الصورة، مليح الشباب ، تام القامة ، أبيض اللون ، وكان عاقلاً وقورًا قليل الالتفات إذا ركب وإذا جلس ، عفيفًا لم يذكر عنه ما ينافي العفة ، وكان غيورًا شديد الغيرة لايدخل دوره غير الخدم الصغار ، فإذا كبر أحدهم منعه ، وكان لايحب سفك الدماء ، ولا أخذ الأموات على شحّ فيه وجبن، ولما اشتد مرضه أراد أن يعهد بالملك لابنه معزِّ الدين سنجرشاه، وكان عمره حينئذ اثنتي عشر سنة فخاف على الدولة من ذلك لأن صلاح الدين يوسف بن أيوب كان قد تمكن بالشام وقوى أمرُه وامتنع أخوه عز الدين مسعود بن مودود من الإذعان لذلك ، والإجابة إليه ، فأشار الأمراء الأكابر ، ومجاهد الدين قايماز بأن يجعل الملك بعده في عزِّ الدين أخيه لما هو عليه من كبر السن ، والشجاعة والعقل وقوة النفس ، وأن يعطي ابنيه بعض البلاد ، ويكون مرجعهما إلى عزِّ الدين عمّهما والمتولِّي لأمرهما مجاهد الدين قايماز ، ففعل ذلك ، وجعل الملك في أخيه وأعطى جزيرة ابن عمر وقلاعها لولده سنجر شاه ، وقلعة عقر الحميدية لولده الصغير ناصر كسك ، فلما توفى سيف الدين ملك بعده الموصلَ والبلادَ أخوه عز الدين ، وكان المدبر للدولة مجاهد الدين ، وهو الحاكم في الجميع واستقرت الأمور ، ولم يختلف اثنان .

ذكر مسير صلاح الدين لحرب قلج أرسلان

في هذه السنة سار صلاح الدين يوسف بن أيوب من الشام إلى بلاد قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان وهي ملطية وسنواس وما بينهما وقونية ليحاربه ، وسبب ذلك أن نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود صاحب حصن كيفا وغيره من ديار بكر ، كان قد تزوّج ابنة قلج أرسلان المذكور ، وبقيت عنده مدة ، ثم إنه أحب مغنية فتزوجها ، ومال إليها ، وحكمت في بلاده وخزائنه ، وأعرض عن ابنة قلج أرسلان ، وتركها نسيًا منسيًا ، فبلغ أباها الخبر ، فعزم على نور الدين ، وأخذ بلاده ، فأرسل نور الدين إلى صلاح الدين يستجير به ويسأله كفَّ يد قلج أرسلان عنه ، فأرسل صلاح الدين إلى قلج أرسلان في المعني ، فأعاد الجواب ، إنني كنت قد سلمت إلى نور الدين عدَّة حصون تجاور بلاده لما تزوّج ابنتي ، فحيث آل الأمر معه إلى ما يعلمه ، فأنا أريد أن يعيدَ إليَّ ما أخذه مني ، وتردّدت الرسل بينهما ، فلم يستقر حال فيهما ، فهادن صلاح الدين الفرنج ، وسار في عساكره ، وكان الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود بها ، فتركها ذات اليسار وسار على تلّ بَاشِر[1] إلى رَعبَان[2] فأتاه بها نور الدين محمّد ، وأقام عنده .

---

(١) تلّ باشر : قلعة حصينة وكورة واسعة في شمالي حلب ، بينها وبين حلب يومان .

(٢) رعبان : بفتح أوله وسكون ثانيه وباء موحدة وآخره نون : مدينة بالثغور بين حلب وسميساط قرب الفرات معدودة في العواصم .

www.alkottob.com

فلما سمع قلج أرسلان بقربه منه أرسل إليه أكبر أمير عنده ويقول له: إنَّ هذا الرجل فعل مع ابنتي كذا ، ولابدَّ من قصد بلاده وتعريفه محل نفسه ، فلمّا وصل الرسول واجتمع بصلاح الدين وأدَّى الرسالة امتعض صلاح الدين لذلك واغتاظ ، وقال للرسول : قل لصاحبك ، والله الذي لا إله إلا هو لئن لم يرجع لأسيرن إلى ملطية ، وبيني وبينها يومان - ولا أنزل عن فرسي إلا في البلد ، ثم أقصد جميع بلاده وآخذها منه ، فرأى الرسول أمرًا شديدًا ، فقام من عنده ، وكان قد رأى العسكر - وما هو عليه من القوة والتجمل وكثرة السلاح والدواب . وغير ذلك ليس عنده ما يقاربه - فعلم أنّه إن قصدهم أخذ بلادهم ، فأرسل إليه من الغد يطلب أن يجتمع به ، فأحضره ، فقال له : أريد أن أوقلَ شيئًا من عندي ليس رسالةً عن صاحبي ، وأحب أن تنصفني فقال له : قل . قال: يا مولانا ما هو قبيح بمثلك وأنت أعظم السلاطين ، وأكبرهم شأنًا أن تسمع الناس عنك إنك صالحت الفرنج ، وتركت الغزو ومصالح المملكة ، وأعرضت عن كل ما فيه صلاح لك ولرعيتك وللمسلمين عامة، وجمعت العساكر من أطراف البلاد البعيدة والقريبة ، وسرت وخسرت أنت وعساكرك الأموال العظيمة لأجل قحبة مغنية ما يكون عذرك عند الله تعالى ، ثمَّ عند الخليفة ، وملوك الإسلام ، وكافة العالم ، وأحسب أن أحدًا ما يواجهك بهذا ، أمّا يعلمون أنّ الأمر هكذا ، ثمَّ أحسب أنَّ قلج أرسلان مات ، وهذه ابنته قد أرسلتني إليك تستجيرك وتسألك أن تنصفها من زوجها ، فإن فعلت ، فهو الظن بك أن لاتردها ، فقال : والله الحق

بيدك وإن الأمر لكما تقول ، ولكن هذا الرجل دخل عليَّ واستجار بي . ويقبح بي تركه لكنك أنت اجتمع به ، وأصلح الحال بينكم على ما تحبون وأنا أعينكم عليه وأقبّح فعله ؛ ووعد من نفسه بكل جميل ، فاجتمع الرسول بصاحب الحصن وتردّد القول بينهم ، فاستقرَّ أنَّ صاحب الحصن يخرج المغنية عنه بعد سنة ، وإن كان لايفعل ينزل صلاح الدين عن نصرته ، ويكون هو وقلج أرسلان عليّه ، واصطلحوا على ذلك ، وعاد صلاح الدين عنه إلى الشام ، وعاد نور الدين إلى بلاده ، فلمّا انقضت المدة أخرج نور الدين المغنية ، عنه ، فتوجهت إلى بغداد ، وأقامت بها إلى أن ماتت .

ذكر قصد صلاح الدين بلد ابن ليون الارمني

وفيها قصد صلاح الدين بلد ابن ليون الأرمني بعد فراغه من أمر قلج أرسلان ، وسبب ذلك أن ابن ليون الأرمني كان قد استمال قومًا من التركمان ، وبذل لهم الأموال ، فأمرهم أن يرعوا مواشيهم في بلاده ، وهي بلاد حصينة كلُّها حصون منيعة ، والدخول إليها صعب لأنها مضايق وجبال وعرة ، ثم غدر بهم ، وسبى حريمهم ، وأخذ أموالهم ، وأسر رجالهم . بعد أن قتل منهم من حان أجله ، ونزل صلاح الدين على النهر الأسود ، وبث الغارات على بلاده ، فخاف ابن ليون على حصن به على رأس جبل أن يؤخذ فخرَّبه وأحرقه ، فسمع صلاح الدين بذلك ، فأسرع السير إليه فأدركه قبل أن ينقل ما فيه من ذخائر وأقوات ،

www.alkottob.com

فغنمها وانتفع المسلمون بما غنموه ، فأرسل ابن ليون يبذل إطلاق ما عنده من الأسرى والسبى ، وإعادة أموالهم ، على أن يعودوا عن بلاده ، فأجابه صلاح الدين إلى ذلك ، واستقر الحال ، وأطلق الأسرى ، وأعيدت أموالهم ، وعاد صلاح الدين عنه في جمادى الآخرة .

ذكر ملك يوسف بن عبد المؤمن مدينة قفصة بعد خلاف صاحبها عليه

في هذه السنة سار أبو يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن إلى أفريقية، وملك قفصة ، وكان سببُ ذلك أنّ صاحبها علي بن المعزّ بن المعتز لمّا رأى دخول الترك إلى أفريقية ، واستيلاءهم على بعضها ، وانقياد العرب إليهم طمع أيضًا في الاستبداد والانفراد عن يوسف وكان في طاعته ، فأظهر ما في نفسه وخالفه ، وأظهر العصيان ، ووافقه أهل قفصة ، فقتلوا كلّ من كان عندهم من الموحّدين - أصحاب أبي يعقوب - ، وكان ذلك في شوال سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة ، فأرسل والي بجاية إلى يوسف بن عبد المؤمن يخبره باضطراب أمور البلاد واجتماع كثير من العرب إلى قراقوش التركي الذي دخل إلى افريقية - ، وقد تقدَّم ذكر ذلك وما جرى في قفصة من قتل الموحدين ومساعدة أهل قفصة صاحبهم على ذلك - فشرع في سدّ الثغور التي يخافها بعد مسيرة ، فلمّا فرغ من جميع ذلك تجهَّز العسكر ، وسار إلى أفريقية سنة خمس وسبعين ، ونزل على مدينة قفَصة وحصرها ثلاثة أشهر ، وهي بلدة حصينة ، وأهلها أنجاد ، وقطع شجرها فلمَّا اشتدَّ الأمر على صاحبها وأهلها ، خرج منها مستخفيًا لم

يشعر به أحد من أهل قفَصة ، ولا من عسكره ، وسار إلى خيمة يوسف وعرف حاجبه ، أنّه قد حضر إلى أمير المؤمنين يوسف ، فدخل الحاجب، وأعلم يوسف بوصول صاحب قفصة إلى باب خيمته ، فعجب منه كيف أقدم على الحضور عنده بغير عهد ، وأمر بإدخاله عليه ، فدخل وقبَّل يده، وقال : قد حضرت أطلب عفو أمير المؤمنين عني ، وعن أهل بلدي، وأن يفعل ما هو أهله ، واعتذر فرقَّ له يوسف فعفا عنه وعن أهل البلد ، وتسلَّم المدينة أوّل سنة ست وسبعين ، وسيّر علي بن المعزّ صاحبها إلى بلاد المغرب ، فكان فيها مكرمًا عزيزًا ، وأقطعه ولاية كبيرة ، ورتّب يوسف لقفصة طائفة من أصحابه الموحدين ، وحضر مسعود بن زمام أمير العرب عند يوسف أيضًا ، فعفا عنه وسيّره إلى مراكش ، وسار يوسف إلى المهدية ، فأتاه بها رسول ملك الفرنج صاحب صقلية يلتمس منه الصلح ، فهادنه عشر سنين ، وكانت بلاد أفريقية مجدبة ، فتعذَّر على العسكر القوت وعلف الدواب ، فسار إلى المغرب مسرعًا والله أعلم .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة توفّي شمس الدولة تورانشاه بن أيوب أخو صلاح الدين الأكبر بالاسكندرية ، وكان قد أخذها من أخيه إقطاعًا فأقام بها ، فتوفي ، وكان له أكثر بلاد اليمن ، ونوابه هناك يحملون إليه الأموال من زبيد ، وعدن ، وما بينهما من البلاد ، والمعاقل ، وكان أجود النَّاس ، واسخاهم كفًّا يخرج كل ما يحمل إليه من أموال اليمن ودخل

www.alkottob.com

الإسكندريّة، وحكمه في بلاد أخيه صلاح الدين وأمواله نافذ ومع هذا فلمّا مات كان عليه نحو مائتي ألف دينار مصريَّة دين فوفّاها أخوه صلاح الدين عنه لمّا دخل إلى مصر ، فإنه لما بلغه خبر وفاته سار إلى مصر في شعبان من السنة ، واستخلف بالشام عزّ الدين فرخشاه ابن أخيه شاهنشاه، وكان عاقلاً حازمًا شجاعًا .

وفيها توفي أبو طاهر أحمد بن محمد بن سلفة الأصفهاني بالاسكندرية ، وكان حافظ الحديث وعالماً به سافر في طلب الكثير ، وتوفى أيضًا في المحرّم علي بن عبد الرحيم المعروف بابن العصّار اللغوي ببغداد ، وسمع الحديث وكان من أصحاب ابن الجواليقي .

ثم دخلت سنة سبع وسبعين وخمسمائة
ذكر غزاة إلى بلاد الكرك من الشام

في هذه السنة سار فرخشاه نائب صلاح الدين بدمشق إلى أعمال كرك ونهبها ، وسببُ ذلك أنّ البرنس أرناط صاحب الكرك كان من شياطين الفرنج ، ومردتهم ، وأشدّهم عداوة للمسلمين ، فتجهّز ، وجمع عسكره ، ومن أمكنه الجمع ، وعزم على المسير في البر إلى تيماء ، ومنها إلى مدينة النبيّ ﷺ للاستيلاء على تلك النواحي الشريفة ، فسمع عزّ الدين فرخشاه ذلك ، فجمع العساكر الدمشقية ، وسار إلى بلده ونهبه وخرّبه ، وعاد إلى طرف بلادهم ، وأقام بها لمنع البرنس من المسلمين ، فامتنع من مقصده ، فلمّا طال مقام كل واحد منهما في مقابلة الآخر علم البرنس أنّ المسلمين لا يعودون حتى تفرّق جمعه وانقطع طمعُه من الحركة، فعاد فرخشاه إلى دمشق ، وكفى الله المؤمنين من الكفار .

ذكر تلبيس ينبغي أن يحتاط من مثله

كان سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ الكناني ، ينوب عن شمس الدولة أخي صلاح الدين باليمن ، وتحكّم في الأموال والبلاد بعد أن فارقها شمسُ الدولة - كما ذكرنا - وكان هواه بالشام لأنّه وطنه ، فأرسل إلى شمس الدولة يطلب الإذن في المجيء إليه ، فأذن له في المجيء، فاستناب بزبيد أخاه حطان بن كامل بن منقذ الكناني ، وعاد إلى

www.alkottob.com

شمس الدولة وكان معه بمصر ، فمات شمس الدولة ، وبقي مع صلاح الدين ، فقيل عنه إنّه أخذ أموال اليمن وادخرها ، وسعى به أعداؤه ، فلم يعارضه صلاح الدين ، فلمّا كان هذه السنة وصلاح الدين بمصر اصطنع سيف الدولة طعامًا ، وعمل دعوة كبيرة ، ودعا إليها أعيان الدولة الصلاحية بقرية تسمّى العدويّة ، وأرسل أصحابه يتجهزون من البلد ، ويشترون ما يحتاجون إليه من الأطعمة وغيرها ، فقيل لصلاح الدين إن ابن منقذ يريد الهرب ، وأصحابه يتزودون له ، ومتى دخل اليمن أخرجَه عن طاعتك ، فأرسل صلاح الدين فأخذه والناس عنده وحبسه ، فلمّا سمع صلاح الدين جلية الحال علم أنّ الحيلة تمّت لأعدائه في قبضه ، فخفّف ما كان عنده وسهّل أمره ، وصانعه على ثمانين ألف دينار مصرية سوّى ما لحقها من الحمل لإخوة صلاح الدين وأصحابه ، وأطلقه ، وأعاده إلى منزله وكان أديبًا شاعرًا .

ذكر إرسال صلاح الدين العساكر آلى اليمن

في هذه السنة سيّر صلاح الدين جماعةً من أمرائه - منهم صارم الدين قتلغ أبه والي مصر - إلى اليمن للاختلاف الواقع بها بين نوّاب أخيه شمس الدولة - وهم عز الدين عثمان بن الزنجبيلي والي عدن ، وحطّان بن منقذ والي زبيد ، وغيرهما ، فإنه لما بلغهم وفاة صاحبهم اختلفوا ، وجرت بين عزّ الدين عثمان ، وبين حطّان حرب ، وكل واحد منهما يروم أن يغلب الآخر على ما بيده ، واشتدّ الأمر ، فخاف صلاح

الدين أن يطمع أهل البلاد ، فأرسل هؤلاء الأمراء إليها ، واستولى قتلغ أبه على زبيد ، وأزال حطان عنها ، ثم مات قتلغ أبه ، فعاد حطّان إلى إمارة زبيد ، وأطاعه الناس لجوده وشجاعته .

ذكر وفاة الملك الصالح وملك ابن عمه عز الدين مسعود مدينة حلب

في هذه السنة في رجب توفّي الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود صاحب حلب بها ، وعمره نحو تسع عشرة سنة ، ولمّا اشتدّ مرضه وصف له الأطباء شربَ الخمر للتداوي ، فقال : لا أفعل حتى استفتي الفقهاء ، فاستفتى ، فأفتاه فقيه من مدرسي الحنفية بجواز ذلك ، فقال له : أرأيت إن قدّر الله تعالى بقرب الأجل أيؤخره شرب الخمر ، فقال له الفقيه : لا . فقال : والله لا لقيت الله سبحانه ، وقد استعملت ما حرّمه عليَّ ، ولم يشربه ، فلما أيس من نفسه أحضر الأمراء وسائر الأجناد ، ووصّاهم بتسليم البلد إلى ابن عمه عزّ الدين مسعود بن مودود بن زنكي ، واستحلفهم على ذلك فقال له بعضهم : إن عماد الدين بن عمك أيضًا ، وهو زوج اختك ، وكان والدك يحبّه ويؤثره ، وهو تولّى تربيته ، وليس له غير سنجار ، فلو اعطيته البلد لكان أصلح وعز الدين له من البلاد من الفرات إلى همذان ولا حاجة به إلى بلدك ، فقال له : إن هذا لم يغب عنّي ولكن قد علمتم أنّ صلاح الدين قد تغلب على عامة بلاد الشام سوى ما بيدي ، ومتى سلمت حلب إلى عماد الدين يعجز عن حفظها ، وإن ملكها صلاح الدين لم يبق لأهلنا معه مقام ، وإن سلمتها

www.alkottob.com

إلى عز الدين أمكنه حفظها بكثرة عساكره ، وبلاده ، فاستحسنوا قوله ، وعجبوا من جودة فطنته مع شدّة مرضه ، وصغر سنّه ، ثم مات وكان حليمًا ، كريمًا ، عفيف اليد والفرج واللّسان ، ملازمًا للدين لايعرف له شيء مما يتعاطاه الملوك والشباب من شرب خمر ، أو غيره ، حسن السيرة في رعيته ، عادلاً فيهم ولما قضى نحبه أرسل الأمراء إلى أتابك عز الدين يستدعونه إلى حلب ، فسار هو ومجاهد الدين قايماز إلى الفرات ، وأرسل احضر الأمراء عنده من حلب ، فحضروا ، وساروا جميعا إلى حلب ، ودخلها في العشرين من شعبان ، وكان صلاح الدين حينئذ بمصر ولولا ذلك لزاحمهم عليها ، وقاتلهم ، فمّا اجتاز في طريقه إليها من الفرات كان تقي الدين عمر ابن اخي صلاح الدين بمدينة منبج ، فسار عنها هاربًا إلى حماة وثار أهل حماة ، ونادوا بشعار عز الدين ، فأشار عسكر حلب على عز الدين بقصد دمشق ، وأطمعوه فيها وفي غيرها من بلاد الشام ، وأعلموه محبّة أهلها له ولأهل بيته ، فلم يفعل ، وقال : بيننا يمين فلا نغدر به ، وأقام بحلب عدة شهور ثم سار عنها إلى الرقة .

ذكر تسليم حلب إلى عماد الدين واخذ سنجار عوضًا عنها

لما دخل عز الدين إلى الرقّة ، جاءته رسل اخيه عماد الدين صاحب سنجار يطلب أن يسلم إليه حلب ، ويأخذ عوضًا عنها مدينة سنجار ، فلم يجبه إلى ذلك ولجّ عماد الدين في ذلك ، وقال : إن سلمتم إليّ حلب ، وإلا سلمت أنا سنجار إلى صلاح الدين ، فأشار حينئذ جماعة

من الأمراء بتسليمها إليه ، وكان أشدّهم في ذلك مجاهد الدين قايماز ، فلم يمكن عز الدين مخالفته لتمكنه من الدولة وكثرة عساكره وبلاده وإنما حمل مجاهد الدين على ذلك خوفه من عز الدين لأنه عظم في نفسه ، وكثر معه العسكر ، وكان الأمراء الحلبيون لايلتفتون إلى مجاهد الدين ، ويسلكون معه من الأدب ما يفعله عسكر الموصل ، فاستقرّ الأمر على تسليم حلب إلى عماد الدين ، وأخذ سنجار عوضًا عنها ، فسار عماد الدين فتسلمها وسلم سنجار إلى أخيه ، وعاد إلى الموصل وكان صلاح الدين بمصر قد بلغه خبر ملك عز الدين حلب فعظم الأمر عليه وخاف أن يسير منها إلى دمشق ، وغيرها ويملك الجميع وأيس من حلب ، فلمّا بلغه ملك عماد الدين لها برز من مصر من يومه ، وسار إلى الشام ، وكان من الوهن على دولة عز الدين ما نذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر حصر صاحب ماردين قلعة البيرة ومسير صاحبها مع صلاح الدين

كانت قلعة البيرة - وهي مطلة على الفرات من أرض الجزيرة لشهاب الدين الأرتقي ، وهو ابن عمّ قطب الدين ايلغازي بن ألبي بن تمرتاش بن ايلغازي بن أرتق صاحب ماردين ، وكان في طاعة نور الدين محمود بن زنكي ، صاحب الشام ، فمات شهاب الدين وملك القلعة بعده ولده ، وصار في طاعة عز الدين مسعود ، صاحب الموصل ، فمّا كان هذه السنة أرسل صاحب ماردين إلى عزّ الدين يطلب منه أن يأذن له في حصر البيرة وأخذها ، فأذن له في ذلك ، فسار في عسكره إلى قلعة سميساط - وهي

www.alkottob.com

له ، ونزل بها ، وسيّر العسكر إلى البيرة فحصرها ، فلم يظفر منها بطائل إلا أنَّهم لازموا الحصار ، فأرسل صاحبها إلى صلاح الدين وقد خرج من ديار مصر على ماتذكره يطلب منه أن ينجده ، ويرحل العسكر المارداني عنه ، ويكون هو في خدمته كما كان أبوه في خدمة نور الدين ، فأجابه إلى ذلك ، وأرسل رسولا إلى صاحب ماردين يشفع فيه ، ويطلب أن يرحل عسكره عنه ، فلم يقبل شفاعته ، واشتغل صلاح الدين بما نذكره من الفرنج ، فلما رأى صاحب ماردين طول مقام عسكره على البيرة ، ولم يبلغوا منها غرضًا أمرهم بالرحيل عنها ، وعاد إلى ماردين، فسار صاحبها إلى صلاح الدين ، وكان معه حتى عبر معه الفرات على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة كثرت المنكرات ببغداد ، فأقام حاجب الباب جماء لإراقة الخمور ، وأخذ المفسدات ، فبينما امرأة منهن في موضع علمت بمجيء أصحاب حاجب الباب ، فاضطجعت ، وأظهرت أنّها مريضة ، وارتفع أنينها فرأوها على تلك الحال ، فتركوها ، وانصرفوا ، فاجتهدت بعدهم أن تقوم ، فلم تقدر ، وحملت تصيح الكربَ الكربَ إلى أن ماتت وهذا من أعجب ما يحكى .

وفيها في عاشر ذي الحجة توفّي الأمير همام الدين تتر صاحب قلعة

تكريت بالمزدلفة ، كان قد استخلف الأمير عيسى بن أخي مودود وحجّ، **فتوفّي** ودفن بالمعلى مقبرة مكة .

وفيها في شعبان توفّي عبد الرحمن بن محمّد بن أبي سعيد أبو **البركات** النَحوِيُّ المعروف بابن الأنباري ببغداد ، وله تصانيف حسنة في **النحو** ، وكان فقيها صالحا .

وفيها توفّي إبراهيم بن محمد بن مهران الفقيه الشافعي بجزيرة ابن **عمر** ، وكان فاضلاً كثير الورع .

www.alkottob.com

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين وخمسمائة

ذكر مسير صلاح الدين إلى الشام وإغارته على الفرنج

في هذه السنة خامس المحرَّم سار صلاح الدين عن مصر إلى الشام ، ومن عجيب ما يحكى من التطيّر أنّه لمّا برز من القاهرة أقام بخيمته حتى تجتمع العساكر ، والنّاس عنده ، وأعيان دولته ، والعلماء ، وأرباب الآداب ، فمن بين مودّع له ، وسائر معه ، وكلّ منهم يقول شيئًا في الوداع ، والفراق ، وما هم بصدده من السفر ، وفي الحاضرين معلّم لبعض أولاده ، فأخرج رأسه من بين الحاضرين وأنشد :

تمتَّع من شميم عرار نجد فما بعد العشيّة من عرار

فانقبض صلاح الدين بعد انبساطه ، وتطيّر وتنكد المجلس على الحاضرين ، فلم يعد إليها إلى أن مات مع طول المدة ، ثم سار عن مصر، وتبعه من التجار ، وأهل البلاد ، ومن كان قصد مصر من الشام بسبب الغلاء بالشام وغيره ، عالم كثير ، فلمّا سار جعل طريقه على أيلة، فسمع أنّ الفرنج قد جمعوا له ليحاربوه ويصدوه عن المسير ، فلما قارب بلادهم سيّر الضعفاء والأثقال مع أخيه تاج الملوك بوري إلى دمشق، وبقي هو في العساكر المقاتلة لا غير فشنّ الغارات بأطراف بلادهم، وأكثر ذلك ببلد الكرك والشوبك ، فلم يخرج إليه منهم أحد ، ولا أقدم على الدنوّ منه ، ثم سار فأتى دمشق فوصلها حادي عشر صفر من السنة.

ذكر ملك المسلمين شقيفا من الفرنج

في هذه السنة أيضًا في صفر فتح المسلمون بالشام شقيفًا من الفرنج يعرف بحبس جلدك ، وهو من أعمال طبريّة مطل على السواد ، وسببُ فتحه أنَّ الفرنج لما بلغهم مسير صلاح الدين من مصر إلى الشام ، جمعوا له ، وحشدوا الفارس والراجل ، واجتمعوا بالكرك بالقرب من الطريق لعلهم ينتهزون فرصة ، أو يظفرون بنصرة ، وربما عاقوا المسلمين عن المسير بأن يقفوا على بعض المضايق ، فلما فعلوا ذلك خلت بلادهم من ناحية الشام ، فسمع فرخشاه الخبر ، فجمع من عنده من عساكر الشام ، ثمّ قصد بلاد الفرنج ، وأغار عليها ، ونهب دبورية وما يجاورها من القرى ، وأسر الرجال وقتل وأكثر ، وسبى النساء ، وغنم الأموال ، وفتح منهم الشقيف ، وكان على المسلمين منه أذى شديد ، ففرح المسلمون بفتحه فرحًا عظيمًا وأرسل إلى صلاح الدين بالبشارة ، فلقيه في الطريق فلمّا ذلك في عضد الفرنج وانكسرت شوكتهم .

ذكر إرسال سيف الإسلام إلى اليمن وتغلبه عليه

في هذه السنة سيّر صلاح الدين أخاه سيف الإسلام طغدكين إلى بلاد اليمن وأمره بتملكها ، وقطع الفتن بها ، وفوّض إليه أمرها ، وكان بها حطان بن منقذ ، كما ذكرناه قبل ، وكتب عز الدين عثمان الزنجبيلي متولي عدن إلى صلاح الدين يعرفه باختلال البلاد ويشير بإرسال بعض أهله إليها ، لأن حطان كان قوي عليه ، فخافه عثمان ، فجهّز صلاحُ

www.alkottob.com

الدين أخاه سيف الإسلام ، وسيّره إلى بلاد اليمن ، فوصل إلى زبيد فخافه حطّان بن منقذ ، واستشعر منه ، وتحصّن في بعض القلاع ، فلم يزل به سيف الإسلام يؤمنه ، ويهدي إليه ، ويتلطفه حتى نزل إليه ، فأحسن صحبته ، وعمل معه مالم يكن يتوقعه من الإحسان ، فلم يثق حطان به وطلب منه دستوراً ليقصد الشام ، فامتنع من إجابته إظهاراً للرغبة في كونه عنده ، فلم يزل حطان يراجعه حتى أذن له فأخرج أثقاله، وأمواله ، ودوابه ، وأهله ، وأصحابه ، وكل ما لَهُ وسيّر الجميعَ بين يديه ، فلما كان الغد دخل إلى سيف الإسلام ليودّعه ، فقبض عليه ، واسترجع جميع ماله ، فأخذه عن آخره لم يسلم منه قليل ، ولا كثير ، ثم سجنه في بعض القلاع ، وكان آخر العهد به فقيل إنه قتله ، وكان في جملة ما أخذ منه من الأموال الذهب العين في سبعين غلافًا زردية مملوءة ذهبًا عينًا ، وأمّا عزُّ الدين عثمان الزنجبيلي ، فإنه لمّا سمع ما جرى على حطان خاف ، فسار نحو الشام خائفًا يترقب وسيّر معظم أمواله في البحر، فصادفهم مراكب فيها أصحاب سيف الإسلام فأخذوا كل ما لعزّ الدين ، ولم يبق له إلا ما صحبه في الطريق ، وصفت زبيد وعدن ، وما معهما من البلاد لسيف الإسلام .

ذكر إغارة صلاح الدين على الغور وغيره من بلاد الفرنج واعمالها

لمّا وصل صلاح الدين إلى دمشق - كما ذكرناه - أقام أيامًا يريح ويستريح هو وجنده، ثمّ سار إلى بلاد الفرنج في ربيع الأول ، فقصد

طبريّة ، فنزل بالقرب منها ، وخيّم في الأقحوانة من الأردن ، وجاءت الفرنج بجموعها ، فنزلت بطبريّة فسيّر صلاح الدين فرخشاه ابن أخيه إلى بيسان ، فدخلها قهرًا ، وغنم ما فيها ، وقتل وسبى ، وجحف الغور غارة شعواء ، فعم أهله قتله ، وأسرا ، وجاءت العرب فأغارت على جينين ، واللجون ، وتلك الولاية حتى قاربوا مرج عكّا ، وسار الفرنج من طبريّة، فنزلوا تحت جبل كوكب فتقدّم صلاح الدين إليهم ، وأرسل العساكر عليهم يرمونهم بالنشاب ، فلم يبرحوا ، ولم يتحركوا لقتال فأمر ابني أخيه تقي الدين عمر وعز الدين فرخشاه فحملا على الفرنج فيمن معهما فقاتلوا قتالاً شديدًا ، ثم إنّ الفرنج انحازوا على حاميتهم ، فنزلوا غفر بلا، فلمّا رأى صلاح الدين ما قد أثخن فيهم وفي بلادهم عاد عنهم إلى دمشق .

ذكر حصر بيروت

ثمّ إنّه سار عن دمشق إلى بيروت ، فنهب بلدها ، وكان قد أمر الأسطول المصري بالمجيء في البحر إليها ، فساروا ، ونازلوها ، وأغاروا عليها ، وعلى بلدها ، وسار صلاح الدين فوافاهم ، ونهب ما لم يصل الأسطول إليه ، وحصرها عدة أيام ، وكان عازمًا على ملازمتها إلى أن يفتحها ، فأتاه الخبر ، وهو عليها أنّ البحر قد ألقى بسطة للفرنج فيها جمع عظيم منهم إلى دمياط كانوا قد خرجوا لزيارة البيت المقدس ، فأسروا من بها بعد أن غرق منهم كثير ، فكان عدّة الأسرى ألفًا وستمائة وستة وسبعين فضربت بذلك البشائر .

www.alkottob.com

ذكر عبور صلاح الدين الفرات وملكه ديار الجزيرة

في هذه السنة عبر صلاح الدين الفرات إلى الديار الجزرية ، وملكها، وسبب ذلك أنّ مظفر الدين كوكبري بن زين الدين علي بن بكتكين ، وهو مقطع حران كان قد أقطعه إياها عز الدين أتابك المدينة ، والقلعة تقوية ، واعتمادا أرسل إلى صلاح الدين وهو يحاصر بيروت يعلمه أنه معه محبّ لدولته ، ووعده النصرة له إذا عبر الفرات ، ويطمعه في البلاد، ويحثّه على الوصول ، فسار صلاح الدين عن بيروت وأرسل مظفّر الدين تترى إليه يحثّه على المجيء ، فجدّ صلاح الدين في السير مظهرًا أنّه يريد حصر حلب تسترًا للحال ، فلما قارب الفرات سار إليه مظفر الدين ، فعبر الفرات ، واجتمع به فقصد البيرة ، وهي قلعة منيعة على الفرات من الجانب الجزري ، وكان صاحبها قد سار مع صلاح الدين وفي طاعته وقد ذكرنا سببَ ذلك قبل ، فعبر هو وعسكره الفرات على الجسر الذي عند البيرة ، وكان عز الدين صاحب الموصل ، ومجاهد الدين لما بلغهما وصول صلاح الدين إلى الشام قد جمعا العسكر ، وسارا إلى نصيبين ليكونا على أهبة ، واجتماع لئلا يتعرض صلاح الدين إلى حلب، ثم تقدما إلى دار ، فنزلا عندها ، فجاءهما أمر لم يكن في الحساب ، فلما بلغهما عبور صلاح الدين الفرات عادا إلى الموصل ، وأرسلا إلى الرها عسكرًا يحميها ، ويمنعها ، فلما سمع صلاح الدين ذلك قوي طمعه في البلاد ، ولمّا عبر صلاح الدين الفرات كاتب الملوك أصحاب الأطراف، ووعدهم ، وبذل لهم البذول على نصرته ، فأجابه نور الدين محمد بن

قرا أرسلان صاحب المحِثْن إلى ما طلب منه لقاعدة استقرّت بينهما لما كان نور الدين عنده بالشام ، فإنه استقرّ الحال أنّ صلاح الدين يحصر آمد ويملكها ، ويسلمها إليه . وسار صلاح الدين إلى مدينة الرها ، فحصرها في جمادى الأولى ، وقاتلها أشدّ قتال ، فحدثني بعض من كان بها من الجند أنّه عدّ في غلاف رمح أربعة عشر خرقًا ، وقد خرقته السهام ، ووالى الزحف عليها ، وكان بها حينئذ مقطعها وهو الأمير فخر الدين مسعود الزعفراني ، فحيث رأى شدّة القتال أذعن إلى التسليم ، وطلب الأمان ، وسلّم البلد ، وصار في خدمة صلاح الدين ، فلما ملك المدينة زحف إلى القلعة ، فسلمها إليه الدزدار الذي بها على مال أخذه ، فلما ملكها سلمها إلى مظفر الدين مع حرّان ، ثمّ سار عنها على حرّان إلى الرقة ، فلما وصل إليها كان بها مقطعها قطب الدين ينال بن حسان المنبجي ، فسار عنها إلى عزّ الدين أتابك ، وملكها صلاح الدين ، وسار إلى الخابور قرقيسيا وماكسين وعرابان ، فملك جميع ذلك ، فلما استولى على الخابور جميعه سار إلى نصيبين ، فملك المدينة لوقتها ، وبقيت القلعة ، فحصرها عدّة أيام ، فملكها أيضًا ، وأقام بها ليصلح شأنها ثمَّ أقطعها أميرًا كان معه يقال له : أبو الهيجاء السمين ، وسار عنها ومعه نور الدين صاحب الحصن ، وأتاه الخبر أن الفرنج قصدوا دمشق ، ونهبوا القرى ، ووصلوا إلى داريا[1] وأرادوا تخريب جامعها ، فأرسل النائب بدمشق إليهم جماعة من النصارى يقول لهم : إن خربتم الجامع جددنا عمارته ، وأخربنا كل بيعة لكم في بلادنا ، ولا نُمكّن أحدًا من

www.alkottob.com

عمارتها ، فتركوه ، ولما وصل الخبر إلى صلاح الدين بذلك أشار عليه من يتعصب لعز الدين بالعود ! فقال يخربون قرى ونملك عوضها بلادًا ، ونعود ونعمرها ، ونقوى على قصد بلادهم ولم يرجع فكان كما قال .

ذكر حصر صلاح الدين الموصل

لما ملك صلاح الدين نصيبين جمع أمراءه وأرباب المشورة عند واستشارهم بأيّ البلاد يبدأ ، وأيّها يقصد بالموصل أم بسنجار أم بجزير ابن عمر ، فاختلفت آراؤهم فقال له مظفر الدين كوكبري بن زين الدين : لاينبغي أن يبدأ بغير الموصل ، فإنها في أيدينا لامانع لها ، فإن عزّ الدين، ومجاهد الدين متى سمعا بمسيرنا إليها تركاها وسارا عنها إلى بعض القلاع الجبلية ، ووافقه ناصر الدين محمد ابن عمه شيركوه ، وكان قد بذل لصلاح الدين مالاً كثيرًا ليقطعه الموصل إذا ملكها ، وقد أجابه صلاح الدين إلى ذلك ، فأشار بهذا الرأي لهواه ، فسار صلاح إلى الموصل ، وكان عز الدين صاحبها ومجاهد الدين نائبه قد جمعا بالموصل العساكر الكثيرة ما بين فارس وراجل ، وأظهرا من السلاح ، وآلات الحصار ما حارت له الأبصار ، وبذلا الأموال الكثيرة ، وأخرج مجاهد الدين من ماله كثيرًا ، واصطلى الأمور بنفسه ، فأحسن تدبيرها ، وشحنوا ما بقي بأيديهم من البلاد كالجزيرة ، وسنجار ، والموصل ، وإربل ، وغيرها من البلاد بالرجال والسلاح والأموال ، وسار صلاح الدين حتى قارب الموصل ، وترك عسكره ، وانفرد هو ومظفر الدين ، ابن عمه ناصر

الدين بن شيركوه ، ومعهم نفر من أعيان دولته ، وقربوا من البلد ، فلما قربوا ورآه وحققه رأى ما هاله ، وملأ صدره وصدور أصحابه ، فإنه رأى بلدًا عظيمًا كبيرًا ورأى السور ، والفصيل قد ملئا من الرجال ، وليس فيها شرافة إلا وعليها رجل يقاتل سوى من عليه من عامة البلد المتفرجين فلما رأى ذلك علم أنّه لايقدر على أخذه ، وأنه يعود خائبًا ، فقال لناصر الدين ابن عمه : إذا رجعنا إلى المعسكر ، فاحمل ما بذلت من المال ، فنحن معك على القول . فقال : قد رجعتُ عما بذلت من المال ، فإن هذا البلد لايرام ، فقال له ولمظفر الدين ، غررتماني وأطمعتماني في غير مطمع ! ولو قصدت غيره قبله لكان أسهل أخذًا بالاسم والهيبة التي حصلت لنا ، ومتى نازلناه وعدنا منه ينكسر ناموسنا ، ويفل حدنا وشوكتنا ، ثم رجع إلى معسكره ، وصبح البلد ، وكان نزول عليه في رجب ، فنازله وضايقه ، ونزل محاذي باب كندة ، وأنزل صاحب الحصن بباب الجسر ، وأنزل أخاه تاج الملوك عند الباب العمادي وأنشب القتال ، فلم يظفر وخرج إليه يوما بعض العامة فنالوا منه ، ولم يمكّن عزّ الدين ومجاهد الدين أحدًا من العسكر ، بل ألزموا الأسوار ، ثم إنّ تقيّ الدين أشار على عمه صلاح الدين بنصب منجنيق ، فقال : مثل هذا البلد لاينصب عليه منجنيق ومتى نصبناه أخذوه : ولو خربنا برجا وبدنه ، من يقدر على الدخول للبلد وفيه هذا الخلق الكثير ، فألح تقي الدين ، وقال: نجربهم به ، فنصب منجنيقا فنصب عليه من البلد تسعة منجنيقات ، وخرج جماعة من العامة فأخذوه ، وجرى عنده قتال كثير ، فأخذ

www.alkottob.com

بعض العامة لالكة من رجليه فيها المسامير الكثيرة ورمى بها أميرًا يقال له جاولي الأسدي مقدم الأسدية وكبيرهم ، فأصاب صدره ، فوجد لذلك ألمًا شديدًا وأخذ اللالكة ، وعاد عن القتال إلى صلاح الدين ، وقال : قد قاتلنا أهل الموصل بحماقات ما رأينا بعد مثلها ، وألقى اللالكة ، وحلف أنه لايعود يقاتل عليها أنفة حيث ضرب بهذه .

ثم إن صلاح الدين رحل من قرب البلد ، ونزل متأخرًا خوفًا من البيات ، فإنه لقربه كان لايأمن ذلك ، وكان سببه أيضًا أنَّ مجاهد الدين أخرج في بعض الليالي جماعة من باب السر الذي للقلعة ومعهم المشاعل، فكان أحدهم يخرج من الباب وينزل إلى دجلة مما يلي عين الكبريت ، ويطفىء المشعل ، فرأى العسكر الناس يخرجون ، فلم يشكوا في الكبسة ، فحملهم ذلك على الرحيل والتأخر ليتعذر البيات على أهل الموصل ، وكان صدر الدين شيخ الشيوخ رحمه الله قد وصل إليه قبل نزوله على الموصل ، ومعه بشير الخادم وهو من خواص الخليفة الناصر لدين الله في الصلح ، فأقاما معه على الموصل ، وترددت الرسل إلى عز الدين ومجاهد الدين في الصلح ، فطلب عز الدين إعادة البلاد التي أخذت منهم ، فأجاب صلاح الدين إلى ذلك بشرط أن تسلم إليه حلب، فامتنع عز الدين ومجاهد الدين ، ثم نزل عن ذلك وأجاب إلى تسليم البلاد بشرط أن يتركوا أنجاد صاحب حلب عليه ، فلم يجيبوا إلى ذلك أيضًا ، وقال عز الدين هو أخي وله العهود والمواثيق ، ولايسعني أن أنكثها ، ووصلت أيضًا رسل قزل أرسلان صاحب أذربيجان ، ورسل

شاه أرمن صاحب خلاط في المعنى ، فلم ينتظم أمر ولا تم صلح ، فلما رأى صلاح الدين أنه لاينال من الموصل غرضا ، ولايحصل على غير العناء والتعب ، وأن من بسنجار من العساكر الموصلية يقطعون طريق من يقصدونه من عساكره وأصحابه سار من الموصل إليها .

ذكر ملكه مدينة سنجار

لما سار صلاح الدين عن الموصل إلى سنجار سيّر مجاهد الدين إليها عسكرا قوة لها ، ونجدة ، فسمع بهم صلاح الدين ، فمنعهم من الوصول إليها ، وأوقع بهم ، وأخذ سلاحهم ودوابهم ، وسار إليها ، ونازلها وكان بها شرف الدين أمير أميران هندوا أخو عزّ الدين صاحب الموصل في عسكره معه ، فحصر البلد وضايقه وألحّ في قتاله ، فكاتبه بعض أمراء الأكراد الذين به من الزرزارية ، وخامر معه ، وأشار بقصده من الناحية التي هو بها ليسلم إليه البلد ، فطرقه صلاح الدين ليلا ، فسلم إيه ناحيته فملك الباشورة لا غير ، فلما سمع شرف الدين الخبر استكان، وخضع وطلب الأمان ، فأمن ولو قاتل على تلك الناحية أخرج العسكر الصلاحي عنها ، ولو امتنع بالقلعة لحفظها ، ومنعها ، ولكنه عجز فلما طلب الأمان أجابه صلاح الدين إليه ، فأمنه وملك البلد ، وسار شرف الدين ومن معه إلى الموصل واستقر جميع ما ملكه صلاح الدين بملك سنجار ، فإنه كان قصد أن يسترده المواصلة إذا فارقه لأنه لم يكن فيه حصن غير الرها لا غير ، فلما ملك سنجار صارت على الجميع كالسور ، واستناب

www.alkottob.com

بها سعد الدين بن معين الدين أنز وكان من أكابر الأمراء وأحسنهم صورة ومعنى .

ذكر عود صلاح الدين إلى حران

لما ملك صلاح الدين سنجار ، وقرر قواعدها سار إلى نصيبين ، فلقيه أهلها شاكين من أبي الهيجاء السمين ، باكين من ظلمه متأسفين على دولة عز الدين وعدله فيهم ، فلما سمع ذلك انكر على أبي الهيجاء ظلمه، وعزله عنهم ، وأخذه معه ، وسار إلى حرّان وفرّق عساكره ليستريحوا وبقي جريدة في خواصه ، وثقات أصحابه ، وكان وصوله إليها أوائل ذي القعدة من السنة .

ذكر اجتماع عز الدين وشاه أرمن

في هذه السنة في ذى الحجة اجتمع أتابك عز الدين صاحب الموصل وشاه أرمن صاحب خلاط على قتال صلاح الدين ، وسببُ ذلك أنَّ رسل عز الدين تردّدت إلى شاه أرمن يستنجده ويستنصره على صلاح الدين ، فأرسل شاه أرمن إلى صلاح الدين عدة رسل في الشفاعة إليه بالكفّ عن الموصل ، وما يتعلق بعز الدين ، فلم يجبه إلى ذلك ، وغالطه ، فأرسل إليه أخيرًا مملوكه سيف الدين بكتمر الذي ملك خلاط بعد شاه أرمن ، فأتاه وهو يحاصر سنجار يطلب إليه أن يتركها ويرحل عنها ، وقال له إن رحل عنها وإلا فتهدده بقصده ومحاربته ، فأبلغه بكتمر الشفاعة ، فسوفه

في الجواب رجاء أن يفتحها ، فلما رأى بكتمر ذلك أبلغه الرسالة بالتهديد، وفارقه غضبان ، ولم يقبل منه خلعة ولا صلة ، وأخبر صاحبه الخبر ، وخوّفه عاقبة الإهمال والتواني عن صلاح الدين ، فسار شاه أرمن من خلاط ، وكان مخيمًا بظهرها ؛ وسار إلى ماردين ، وصاحبها حينئذ قطب الدين ابن نجم الدين ألبي وهو ابن اخت شاه أرمن ، وابن خال عز الدين ، وحموه لأن عز الدين قد زوّج ابنة طب الدين ، وحضر مع شاه أرمن دولة شاه صاحب بدليس ، وأرزن ، وسار أتابك عز الدين من الموصل في عسكره جريدة من الأثقال ، وكان صلاح الدين قد ملك سنجار ، وسار عنها إلى حرّان ، وفرق عساكره ، فلما سمع باجتماعهم، سيّر إلى تقي الدين ابن أخيه وهو بحماة يستدعيه ، فوصل إليه مسرعا ، وأشار عليه بالرحيل ، وحذره منه آخرون ، وكان هوى صلاح الدين في الرحيل ، فرحل إلى رأس عين، فلمّا سمعوا برحيله تفرقوا ، فعاد شاه أرمن إلى خلاط ، واعتذر بأنني أجمع العساكر وأعود ، ورجع عز الدين إلى الموصل ، وأقام قطب الدين بماردين وسار سلاح الدين ، فنزل بجوزم تحت ماردين عدة أيام .

ذكر الظفر بالفرنج في بحر عيذاب

في هذه السنة عمل البرنس صاحب الكرك أسطولا ، وفرغ منه بالكرك ، ولم يبق إلا جمعُ قطعه بعضها إلى بعض وحملها إلى بحر أيلة ، وجمعها في أسرع وقت ، وفرغ منها وشحنها بالمقاتلة وسيّرها

www.alkottob.com

فساروا في البحر وافترقوا فرقتين فرقة قامت على حصن أيلة يحصرونه ، ويمنعون أهله من ورود الماء ! فنال أهله شدة ، وضيق عليهم ، وأمّا الفرقة الثانية ، فإنهم ساروا نحو عيذاب وأفسدوا في السواحل ، ونهبوا ، وأخذوا ما وجدوا من المراكب الإسلامية ومن فيها من التجار ، وبغتوا الناس في بلادهم على حين غفلة منهم ، فإنّهم لم يعهدوا بهذا البحر فرنجيًا لا تاجرًا ، ولا محاربًا ، وكان بمصر الملك العادل أبو بكر بن أيوب ينوب عن أخيه صلاح الدين ، فعمَّر أسطولاً وسيره ، وفيه جمع كثير من المسلمين ، ومقدمهم حسام الدين لؤلؤ الحاجب ، وهو متولي الأسطول بديار مصر ، وكان مظفّرًا فيه شجاعًا كريمًا ، فسار لؤلؤ مجدًا في طلبهم ، فابتدأ بالذين على أيلة فانقضَّ عليهم أيلة فانقضَّ عليهم انقضاض العقاد على صيده ، فقتل بعضهم ، وأسر الباقي ، وسار من وقته بعد الظهر بقص أثر الذين قصدوا عيذاب ، لم يَرَهم ، وكانوا أغاروا على ما وجدوه بها ، وقتلوا من لقوه عندها ، وساروا إلى غير ذلك المرسى ليفعلوا كما فعلوا فيه ، وكانوا عازمين على الدخول إلى الحجاز مكة والمدينة - حرسهما الله تعالى - وأخذ الحاج ، ومنعهم عن البيت الحرام ، والدخول بعد ذلك إلى اليمن ، فلما وصل لؤلؤ إلى عيذاب ولم يرهم سار يقفو أثرهم ، فبلغ رابغ ، وساحل الجوزاء ، وغيرهما فأدركهم بساحل الجوزاء ، فأوقع بهم هناك ، فلما رأوا العطب ، وشاهدوا الهلاك خرجوا إلى البر ، واعتصموا ببعض تلك الشعاب ، فنزل لؤلؤ من مراكبه إليهم وقاتلهم أشدَّ قتال وأخذ خيلاً من الأعراب الذين هناك ، فركبها وقاتلهم فرسانه ورجاله ، فظفر بهم ، وقتل أكثرهم ، وأخذ الباقين

أسرى ، وأرسل بعضهم إلى منى لينحروا بها عقوبة لمن رام إخافة حرم الله تعالى وحرم رسول ﷺ، وعاد بالباقين إلى مصر، فقتلوا جميعهم.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة في جمادي الأولى توفّي عز الدين فرخشاه ابن أخي صلاح الدين ، وكان ينوب عنه بدمشق ، وهو ثقته من أهله ، وكان اعتماده عليه أكثر من جميع أهله وأمرائه ، وكان شجاعا كريما فاضلا عالما بالأدب ، وغيره ، وله شعر جيد من بين أشعار الملوك ، وكان ابتداء مرضه أنه خرج من دمشق إلى غزو الفرنج ، فمرض وعاد مريضا ، فمات، ووصل خبر موته إلى صلاح الدين وقد عبر الفرات إلى الديار الجزرية ، فأعاد شمس الدين محمد بن المقدم إلى دمشق ليكون مقدَّمًا على عسكرها .

وفيها مات فخر الدولة أبو المظفر بن الحسن بن هبة الله بن المطلب كان أبوه وزير الخليفة، وأخوه أستاذ الدار، فتصوّف هو من زمن الصبا، وبنى مدرسة ورباطا ببغداد عند عقد المصطنع وبنى جامعا بالجانب الغربي منها .

وفيها توفي الأمير أبو منصور هاشم ولد المستضيء بأمر الله ودفن عند أبيه .

وفيها توفي أبو العباس أحمد بن علي بن الرفاعي من سواد واسط ، وكان صالحًا ذا قبول عظيم عند الناس ، وله من التلاميذ ما لايحصى.

www.alkottob.com

ثم دخلت سنة تسع وسبعين وخمسمائة
ذكر ملك صلاح الدين آمد وتسليمها إلى صاحب الحصن

قد ذكرنا نزول صلاح الدين بجوزم تحت ماردين ، فلم يرَ لطمعه وجهًا ، وسار عنها إلى آمد على طريق البارعيّة ، وكان نور الدين محمد بن قرا أرسلان يطالبه في كل وقت بقصدها . وأخذها ، وتسليمها إليه ، على ما استقرَّت القاعدة بينهما ، فوصل إلى آمد سابع عشر ذي الحجة من سنة ثمان وسبعين ، ونازلها ، وأقام يحاصرها ، وكان المتولي لأمرها والحاكم فيها بهاء الدين بن نيسان ، وكان صاحبها وليس له من الأمر شيء مع ابن نيسان ، فلما نازلها صلاح الدين أساء ابن نيسان التدبير ، ولم يعط الناس من الذخائر شيئًا ، ولا فرّق فيهم دينارا واحدا ، ولاقوتا، وقال لأهل البلد : قاتلوا عن نفوسكم . فقال له بعض أصحابه: ليس العدو بكافر حتى يقاتلوا عن نفوسهم ، فلم يفعل شيئًا ؟ وقاتلهم صلاح الدين ، ونصب المنجنيقات وزحف إليها ، وهي الغاية في الحصانة والمنعة ، بها وبسورها يضرب المثل ، وابن نيسان على حاله من الشحّ بالمال وتصرفه وتصرف من ولّت سعادتُه ، وأدبرت دولته ، فلما رأى الناس ذلك منه تهاونوا بالقتال ، وجنحوا إلى السلامة ، وكانت أيام ابن نيسان قد طالت ، وثقلت على أهل البلد لسوء سيرته وصنيعه ، وتضييقه عليهم في مكاسبهم ، فالنّاس كارهون لها محبون لانقراضها ، وأمر

صلاح الدين أن يكتب على السهام إلى أهل البلد يعدهم الخير والإحسان إن أطاعوه ، ويتهدَّدهم إن قاتلوه ، فزادهم ذلك تقاعدًا ، وتخاذلا ، وأحبُّوا ملكه وتركوا القتال ، فوصل النقَّابون إلى السور فنقبوه وعلقوه ، فلما رأى الجند وأهل البلد ذلك طمعوا في ابن نيسان ، واشتطوا في المطالب ، فحين صارت الحال لذلك أخرج ابن نيسان نساءه إلى القاضي الفاضل وزير صلاح الدين ، يسأله أن يأخذ له الأمان ، ولأهله ، وماله، وأن يؤخره ثلاثة أيام حتى ينقل ما لَه بالبلاد من الأموال والذخائر ، فسعى له الفاضل في ذلك ، فأجابه صلاح الدين إليه ، فسلَّم البلد في العشر الأول من المحرَّم هذه السنة ، وأخرج خيمة إلى ظاهر البلد ، ورام نقل ماله ، فتعذر ذلك عليه لزوال حكمه عن أصحابه واطراحهم أمره ونهيه ، فأرسل إلى صلاح الدين يعرفه الحال ، ويسأله مساعدته على ذلك فأمر له بالدوابّ والرجال ، فنقل البعض ، وسرق البعض ، وانقضت الأيام الثلاث قبل الفراغ ، فمنع من الباقي ، وكانت أبراج المدينة مملوءة من أنواع الذخائر ، فتركها بحالها ؛ ولو أخرج البعض منها لحفظ البلد ، وسائر نعمه وأمواله لكن إذا أراد الله أمرًا هيّأ أسبابه ، فلمّا تسلّمها صلاح الدين سلّمها لصاحب الحصن نور الدين ، فقيل له قبل تسليمها إنّ هذه المدينة فيها من الذخائر ما يزيد على ألف ألف دينار فلو أخذت ذلك وأعطيته جندك وسلَّمت البلد إليه فارغًا لكان راضيًا فإنّه لايطمع في غيره ، فامتنع من ذلك ، وقال : ما كنت لأعطيه الأصل وأبخلُ بالفرع فلما تسلم نور الدين البلد اصطنع دعوة عظيمة ، ودعا إليها

www.alkottob.com

صلاح الدين وأمراءه ، ولم يكن دخل البلد ، وقدَّم له ولأصحابه من التحف والهدايا أشياء كثيرة .

ذكر ملك صلاح الدين تل خالد وعينتاب من أعمال الشام

لما فرغ صلاح الدين من أمر آمد سار إلى الشام ، وقصد تلَّ خالد ، وهو أعمال حلب فحصرها ، ورماها بالمنجنيق ، فنزل أهلها ، وطلبوا الأمان ، فأمَّنهم وتسلمها في المحرّم أيضًا ، ثمَّ سار منها إلى عينتاب فحصرها وبها ناصر الدين محمد ، وهو أخو الشيخ إسماعيل الذي كان خازن نور الدين محمود بن زنكي وصاحبه ، وكان قد سلمها إليه نور الدين ، فبقيت معه إلى الآن ، فلما نازله صلاح الدين أرسل إليه يطلب أن يقر الحصن ، بيده ، وينزل إلى خدمته ، ويكون تحت حكمه وطاعته، فأجابه صلاح الدين إلى ذلك ، وحلف له عليه ، فنزل إليه وصار في خدمته ، وكان أيضًا في المحرّم من هذه السنة .

ذكر وقعتين مع الفرنج في البحر والشام

في هذه السنة في العاشر من المحرَّم سار أسطول المسلمين من مصر في البحر ، فلقوا بطسة فيها نحو ثلاثمائة من الفرنج بالسلاح التام ، ومعهم الأموال والسلاح إلى فرنج الساحل ، فقاتلوهم وصبر الفريقان ، وكان الظفر للمسلمين ، وأخذوا الفرنج أسرى ، فقتلوا بعضهم ، وأبقوا بعضهم أسرى ، وغنموا ما معهم ، وعادوا إلى مصر سالمين .

وفيها أيضًا سارت عصابة كبيرة من الفرنج من نواحي الداروم إلى نواحي مصر ليغيروا وينهبوا ، فسمع بهم المسلمون فخرجوا إليهم على طريق صدر وأيلة ، فانتزح الفرنج من بين أيديهم ، فنزلوا بماء يقال له العسيلة ، وسبقوا المسلمين إليه ، فأتاهم المسلمون وهم عطاش قد أشرفوا على الهلاك ، فرأوا الفرنج قد ملكوا الماء ، فأنشأ الله سبحانه وتعالى بلطفه سحابة عظيمة ، فمطروا منها حتى رووا ، وكان الزمان قيظا ، والحر شديد في بر مهلك ، فلمَّا رأوا ذلك قويت نفوسهم ، ووثقوا بنصر الله لهم ، وقاتلوا الفرنج فنصرهم الله عليهم ، فقتلوهم ، ولم يسلم منهم إلا الشريد الفريد ، وغنم المسلمون ما معهم من سلاح ودواب، وعادوا منصورين قاهرين بفضل الله تعالى .

ذكر ملك صلاح الدين حلب

وفي هذه السنة سار صلاح الدين من عينتاب إلى حلب ، فنزل عليها في المحرّم أيضًا في الميدان الأخضر ، وأقام به عدّة أيام ثمّ انتقل إلى جبل جوشن ، فنزل بأعلاه ، وأظهر أنه يريد أن يبني مساكن له ولأصحابه وعساكره ، وأقام عليها أيّاما ، والقتال بين العسكرين كل يوم ، وكان صاحب حلب عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي ، ومعه العسكر النوري ، وهم مجدون في القتال ، فلما رأى كثرة الخرج كأنه شحَّ بالمال، فحضر يومًا عنده بعض أجناده ، وطلبوا منه شيئًا فاعتذر بقلة المال عنده ، فقال له بعضهم من يريد أن يحفظ مثل حلب يخرج الأموال ، ولو باع

www.alkottob.com

حلى نسائه ، فمال حينئذ إلى تسليم حلب ، وأخذ العوض منها وأرسل مع الأمير طمّان الياروقي وكان يميل إلى صلاح الدين أنه يسلم حلب ويأخذ عوضها سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج وجرت اليمين على ذلك ، وباعها بأوكس الأثمان أعطى حصنا مثل حلب ، وأخذ عوضها قرى ومزارع ، فنزل عنها ثامن عشر صفر ، وتسلمها صلاح الدين فعجب الناس كلهم من ذلك ، وقبحوا ما أتى حتى إن بعض عامّة حلب أحضر إجانة وماء ، وناداه أنت لا يصلح لك الملك ، وإنما يصلح لك أن تغسل الثياب ، وأسمعوه المكروه ، واستقر ملك صلاح الدين بملكها ، وكان مزلزلا فثّبت قدمه بتسليمها ، وكان على شفا جرف هار ، وإذا أراد الله أمرا فلا مردّ له ، وسار عماد الدين إلى البلاد التي اعطيها فتسلمها ، وأخذ صلاح الدين حلب واستقر الحال بينهما أن عماد الدين يحضر في خدمة صلاح الدين بنفسه وعسكره إذا استدعاه لايحتجُ بحجة ، ومن الاتفاقات العجيبة أن محيي الدين بن الزكي قاضي دمشق مدح صلاح الدين بقصيدة منها :

وفتحكُم حَلَبًا بالسيفِ في صَفَرٍ   مبشرٌ بفتوحِ القُدسِ في رَجَبِ

فوافق فتح القدس في رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة على ما نذكره إن شاء الله تعالى ومما كتبه القاضي الفاضل في المعنى عن صلاح الدين ، فأعطيناه عن حلب كذا وكذا ، وهو صرف على الحقيقة أعطيناه الدراهم ، ونزلنا عن القرى ، واحرزنا العواصم ، وكتب أيضًا أعطيناه

مالم يخرج عن اليد يعني أنه متى شاء أخذه لعدم حصانته ، وكان في جملة من قتل على حلب تاج الملوك بوري ، أخو صلاح الدين الأصغر ، وكان فارسًا شجاعًا كريمًا حليمًا جامعًا لخصال الخير ، ومحاسن الأخلاق، طعن في ركبته فانفكت ، فمات منها بعد أن استقر الصلح بين عماد الدين وصلاح الدين على تسليم حلب قبل أن يدخلها صلاح الدين ، فلمّا استقرّ منه الصلح حضر صلاح الدين عند أخيه يعوده وقال له : هذه حلب قد أخذناها وهي لك . فقال : ذلك لو كان وأنا حيّ ووالله لقد أخذتها غالية حيث تفقد مثلي ، فبكى صلاح الدين وأبكى ، ولما خرج عماد الدين إلى صلاح الدين ، وقد عمل له دعوة احتفل فيها ، فبينما هم في سرور إذ جاء إنسان فأسرَّ إلى صلاح الدين بموت أخيه ، فلم يظهر هلعًا ، ولا جزعًا ، وأمر بتجهيزه سرًا ، ولم يعلم عماد الدين ومن معه في الدعوة ، واحتمل الحزن وحده لئلا يتنكد ما هم فيه وكان هذا من الصبر الجميل .

ذكر فتح صلاح الدين حارم

لما ملك صلاح الدين حلب كان بقلعة حارم ، وهي من أعمال حلب بعض المماليك النورية ، واسمه سرخك ، وولاه عليها الملك الصالح عماد الدين ، فامتنع من تسليمها إلى صلاح الدين ، فراسله صلاح الدين في التسليم ، وقال له اطلب من الإقطاع ما أردت ، ووعده الإحسان ، فاشتط في الطلب وتردّدت الرسل بينهم ، فراسل الفرنج ليحتمي بهم ، فسمع

www.alkottob.com

من معه من الأجناد أنّه يراسل الفرنج ، فخافوا أن يسلمها إليهم ، فوثبوا عليه ، وقبضوه ، وحبسوه ، وراسلوا صلاح الدين يطلبون منه الأمان والإنعام ، فأجابهم إلى ما طلبوا وسلّموا إليه الحصن فرتّب به دزدارا بعض خواصه ، وأما باقي قلاع حلب ، فإن صلاح الدين أقرّ عينتاب بيد صاحبها - كما تقدّم - وأقطع تلّ خالد لأمير يقال له داروم الياروقي وهو صاحب تل باشر ، وأمّا قلعة إعزاز فإن عماد الدين إسماعيل كان قد خرّبها ، فأقطعها صلاح الدين لأمير يقال له سليمان بن جندر ، فعمرها، وأقام صلاح الدين بحلب إلى أن فرغ من تقرير قواعدها ، وأحوالها ، وديوانها، وأقطع أعمالها وأرسل منها ، فجمع العساكر من جميع بلاده .

ذكر القبض على مجاهد الدين وما حصل من الضرر بذلك

في هذه السنة في جمادى الأولى قبض عز الدين مسعود ، صاحب الموصل على نائبه مجاهد الدين قايماز ، وكان إليه الحكم في جميع البلاد، واتبع في ذلك هوى من أراد المصلحة لنفسه ، ولم ينظر في مضرّة صاحبه ، وكان الذي أشار بذلك عز الدين محمود زلفندار وشرف الدين أحمد بن أبي الخير الذي كان أبوه صاحب الغراف ، وهما من أكابر الأمراء ، فلمّا أراد القبض عليه لم يقدم على ذلك لقوة مجاهد الدين ، فأظهر أنّه مريض وانقطع عن الركوب عدّة أيام فدخل إليه مجاهد الدين وحده وكان خصيًّا لايمتنع من الدخول على النساء ، فلمّا دخل عليه قبض عليه وركب لوقته إلى القلعة ، فاحتوى على الأموال التي لمجاهد الدين

خزائنه ، وولى زلفندار قلعة الموصل بعد مجاهد الدين ، وجعل ابن صاحب الغراف أمير حاجب ، وحكّمهما في دولته وكان تحت حكم مجاهد الدين حينئذ إربل وأعمالها ومعه فيها زين الدين علي وهو صبيّ صغير ليس له من الحكم شيء ، والحكم والعسكر إلى مجاهد الدين ، تحت حكمه أيضًا جزيرة ابن عمر ، وهي لمعزّ الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود ، وهو أيضًا صبيٌّ والحكم والنُّواب والعسكر مجاهد الدين ، وبيده أيضًا شهرزور ، واعمالها ونوابه فيها ، ودقوقا نائبه فيها ، وقلعة عقر الحميدية ونائبه فيها ولم يبق لعزّ الدين مسعود بعد أن أخذ صلاح الدين البلاد الجزيرية سوى الموصل ، وقلعتها بيد مجاهد الدين وهو على الحقيقة الملك ، واسمه عز الدين ، فلما قبض عليه امتنع صاحب اربل من طاعة عز الدين واستبدّ وكذلك أيضًا صاحب جزيرة ابن عمر ، وأرسل الخليفة إلى دقوقا فحضرها ، وأخذها ولم يحصل لعز الدين مسعود غير شهرزور ، والعقر ، وصارت إربل والجزيرة أضر شيء على صاحب الموصل ، وأرسل صاحبها إلى صلاح الدين بالطاعة ، له ، والكون في خدمته ، وكان الخليفة الناصر لدين الله قد أرسل صدر الدين شيخ الشيوخ ، ومعه بشير الخادم الخاص إلى صلاح الدين في الصلح مع عزّ الدين صاحب الموصل ، وسيّر عز الدين معه القاضي محيي الدين أبا حامد بن الشهرزوري في المعنى ، فأجاب صلاح الدين إلى ذلك ، وقال : ليس لكم مع الجزيرة وإربل حديث ، فامتنع محيي الدين عن ذلك ، وقال : هما لنا فلم يجب صلاح الدين إلى

www.alkottob.com

الصلح إلا بأن تكون إربل والجزيرة معه ، فلم يتم أمره ، وقوي طمع صلاح الدين في الموصل بقبض مجاهد الدين ، فلمّا رأى صاحب الموصل الضرر بقبض مجاهد الدين على شرف الدين أحمد بن صاحب الغرا وزلفندار عقوبةً ، ثمَّ أخرج مجاهد الدين على ما نذكره إن شاء الله .

ذكر غزو بيسان

لما فرغ صلاح الدين من أمر حلب جعل فيها ولده الملك الظاهر غازي ، وهو صبيّ ، وجعل معه الأمير سيف الدين يازكج ، وكان أكبر الأمراء الأسدية ، وسار إلى دمشق ، وتجهَّز للغزو ومعه عساكر الشام ، والجزيرة ، وديار بكر وسار إلى بلد الفرنج ، فعبر نهر الأردن تاسع جمادى الآخرة من السنة ، فرأى أهل تلك النواحي قد فارقوها خوفًا ، فقصد بيسان ، فأحرقها وخرَّبها ، وأغار على ما هناك ، فاجتمع الفرنج ، وجاؤوا إلى قبالته ، فحين رأوا كثرة عساكره ، لم يقدموا عليه ، فأقام عليهم وقد استندوا إلى جبل هناك ، وخندقوا عليهم ، فأحاط بهم ، وعساكر الإسلام ترميهم بالسهام ، وتناوشهم القتال ، فلم يخرجوا ، وأقاموا كذلك خمسة أيام ، وعاد المسلمون عنهم سابع عشر الشهر لعل الفرنج يطمعون ويخرجون ليستدرجونهم ليبلغوا منهم غرضا ، فلما رأى الفرنج ذلك لم يطمعوا أنفسهم في غير السلام ، وأغار المسلمون على تلك الأعمال يمينًا وشمالاً ووصلوا فيها إلى مالم يكونوا يطمعون في الوصول إليه ، والإقدام عليه ، فلما كثرت الغنائم معهم رأوا العود إلى بلادهم بما غنموا مع الظفر أولى ، فعادوا إلى بلادهم على عزم الغزو .

ذكر غزو الكرك وملك العادل حلب

لما عاد صلاح الدين والمسلمون من غزوة بيسان تجهزوا لغزو الكرك ، نسار إليه في العساكر ، وكتب إلى أخيه العادل أبي بكر بن أيوب ، وهو نائبه بمصر يأمره بالخروج بجميع العساكر إلى الكرك ، وكان العادل قد أرسل إلى صلاح الدين يطلب منه مدينة حلب وقلعتها ، فأجابه إلى ذلك وأمره أن يخرج معه بأهله وماله ، فوصل صلاح الدين إلى الكرك في رجب ووفاه أخوه العادل في العسكر المصري ، وكثر جمعه ، وتمكن من حصره وصعد معه المسلمون إلى ربضه وملكه ، وحصر الحصن من الربض وتحكّم عليه في القتال ، ونصب عليه سبع منجنيقات لاتزال ترمي بالحجارة ليلاً ونهارًا ، وكان صلاح الدين يظن أن الفرنج لايمكنونه من حصر الكرك ، وأنهم يبذلون جهدهم في رده عنه فلم يستصحب معه من آلات الحصار ما يكفي لمثل ذلك الحصن العظيم والمعقل المنيع ، فرحل عنه منتصف شعبان وسيّر تقيّ الدين ابن أخيه إلى مصر نائبًا عنه ليتولى ما كان أخوه العادل يتولاه ، واستصحب أخاه العادل معه إلى دمشق ، وأعطاه مدينة حلب وقلعتها ، وأعمالها ، ومدينة منبج وما يتعلق بها وسيّره إليها في شهر رمضان من السنة وأحضر ولده الظاهر منها إلى دمشق .

www.alkottob.com

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة فُتِحَ الرباط الذى بنته أم الخليفة بالمأمونية .

وفيها في ذي الحجة توفي مكرم بن بختيال أبو الخير الزاهد ببغداد ، رويّ الحديث ، وكان كثير البكاء ، وفي جمادى الآخرة توفي محمد بن بختيار بن عبدالله أبو عبد المولد الشاعر ، ويعرف بالأبله فمن جملة شعره:

أراقَ دمعي لا بلْ أراقَ دمي ظلمًا بظلم من رِيقهُ الشَّبَمُ
ذو قامةٍ كالقضيبِ ناضرةٌ وناظر من سُقَامه سَقَمي
حصلتُ من وعدِه على أصدق الوعدِ ومن وصلِه على التهمِ

ثم دخلت سنة ثمانين وخمسمائة

ذكر إطلاق مجاهد الدين من الحبس وانهزام العجم

في هذه السنة في المحرّم أطلق أتابك عزّ الدين ، صاحب الموصل مجاهد الدين قايماز من الحبس بشفاعة شمس الدين البهلوان صاحب همذان وبلاد الجبل ، وسيّره إلى البهلوان ، وأخيه قزل يستنجدهما على صلاح الدين ، فسار إلى قزل أولا ، وهو صاحب أذربيجان ، فلم يمكنه من المضي إلى البهلوان ، وقال مهما تختاره أنا أفعله ، وجهّز معه عسكرًا كثيرًا نحو ثلاثة آلاف فارس ، وساروا نحو إربل ليحصروها ، فلمّا قاربوها أفسدوا في البلاد ، وخربوها ونهبوا ، وسبوا ، وأخذوا النساء نهرًا ، ولم يقدر مجاهد الدين على منعهم ، فسار إليهم زين الدين يوسف صاحب إربل في عسكره ، فلقيهم وهم متفرقون ، في القرى ينهبون ويحرقون ، فانتهز الفرصة فيهم بتفرقهم ، وألقى بنفسه وعسكره عن أوّل من لقيه منهم ، فهزمهم ، وتمت الهزيمة على الجميع ، وغنم الأربليون أموالهم ، ودوابهم ، وسلاحهم ، وعاد العجم إلى بلادهم ، منهزمين ، وعاد صاحب إربل إلى بلده مظفرًا غانمًا ، وعاد مجاهد الدين إلى الموصل ، فكان يحكي أنني ما زلت انتظر العقوبة من الله تعالى على سوء أفعال العجم ، فإنني رأيت منهم ما لا كنت أظنّه يفعله مسلم بمسلم، وكنت أنهاهم فلا يسمعون حتى كان من الهزيمة ما كان .

www.alkottob.com

ذكر وفاة يوسف بن عبد المؤمن وولاية ابنه يعقوب

في هذه السنة ، سار أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن إلى بلاد الأندلس ، وجاز البحر إليها في جمع عظيم من عساكر المغرب ، فإنه جمع وحشد الفارس والراجل ، فلما عبر الخليج قصد غربي البلاد ، فحصر مدينة شنترين ، وهي للفرنج شهرًا ، فأصابه بها مرض ، فمات منه في ربيع الأول ، وحمل في تابوت إلى مدينة اشبيلية ، _ 'الأندلس ، وكانت مدةً ملكه اثنتين وعشرين سنة وشهرا ، ومات عن غير وصيةً بالملك لأحد من أولاده ، فاتفق رأي قواد الموحدين ، وأولاد عبد المؤمن على تمليك ولده ، أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ، فملكوه من الوقت الذي مات فيه أبوه ، لئلا يكونوا بغير ملك يجمع كلمتهم لقربهم من العدوّ فقام في ذلك أحسن قيام ، وأقام راية الجهاد ، وأحسن السيرة في الناس ، وكان دينًا مقيمًا للحدود في الخاص والعام فاستقامت له الدولة ، وانقادت إليه بأسرها مع سعة أقطارها ورتّب ثغور الأندلس ، وشحنها بالرجال ، ورتّب المقاتلة في سائر بلادها ، وأصلح أحوالها ، وعاد إلى مراكش ، وكان أبوه يوسف حسن السيرة ، وكان طريقه ألين من طريق أبيه مع الناس يحب العلماء ، ويقربهم ، ويشاورهم ! وهم أهل خدمته ، وخاصته وأحبه الناس ، ومالوا إليه ، وأطاعه من البلاد ما امتنع على أبيه وسلك في جباية الأموال ما كان أبوه يأخذه ، ولم يتعده إلى غيره ، واستقامت له البلاد بحسن فعله مع اهلها ، ولم يزل كذلك إلى أن توفي رحمه الله تعالى .

ذكر غزو صلاح الدين الكرك

في هذه السنة في ربيع الآخر صار صلاح الدين من دمشق يريد الغزو ، وجمع عساكره ، فأتته من كل ناحية ، وممن أتاه نور الدين محمد بن قرا أرسلان ، صاحب الحصن ، وكتب إلى مصر ليحضر عسكرها عنده على الكرك ، فنازل الكرك ، وحصره ، وضيّق على من به ، وأمر بنصب المنجنيقات على ربضه ، واشتد القتال فملك المسلمون الربض ، وبقي الحصن وهو والربض على سطح جبل واحد ، إلا أن بينهما خندقًا عظيمًا عمقه نحو ستين ذراعًا ، فأمر صلاح الدين بإلقاء الأحجار والتراب فيه ليطمّه ، فلم يقدر أحد على الدنو منه لكثرة الرمي عليهم بالسهام من الجرخ ، والقوس ، والأحجار من المنجنيقات ، فأمر أن يبنى بالأخشاب واللبن ما يمكن الرجال يمشون تحت السقائف ، ويلقون في الخندق ما يطمه، ومنجنيقات المسلمين مع ذلك ترمي الحصن ليلاً ونهارًا وأرسل من فيه من الفرنج إلى ملكهم وفرسانهم يستعدونهم ، ويعرفونهم عجزهم وضعفهم عن حفظ الحصن ، فاجتمعت الفرنج عن آخرها ، وساروا إلى نجدتهم عجلين ، فلمّا بلغ الخبر بمسيرهم إلى صلاح الدين رحل عن الكرك إلى طريقهم ليلقاهم ، ويصافقهم ويعود بعد أن يهزمهم إلى الكرك ، فقرب منهم وخيم ونزل ، ولم يمكنه الدنو منهم لخشونة الأرض، وصعوبة المسلك إليهم ، وضيقه ، فأقام أيّاما ينتظر خروجهم من ذلك المكان ليتمكن منهم ، فلم يبرحوا منه خوفًا على نفوسهم ، فلما رأى ذلك رحل عنهم عدة فراسخ وجعل بإزائهم من يعلمه بمسيرهم ،

www.alkottob.com

فساروا ليلاً إلى الكرك ، فلما علم صلاح الدين ذلك علم أنه لايتمكن حينئذ ولايبلغ غرضه ، فسار إلى مدينة نابلس ، ونهب كل ما على طريقه من البلاد ، فلمّا وصل إلى نابلس أحرقها ، وخربها وقتل فيها ، وأسر وسبى ، فأكثر وسار عنها إلى سبسطية ، وبها مشهد زكريا عليه السلام ، وبها كنيسة وبها جماعة أسرى من المسلمين ، فاستنقذهم ورحل إلى جينين، فنهبها وخربها ، وعاد إلى دمشق ، ونهب ما عا طريقه ، وخربه وبث السرايا في طريقه يمينًا وشمالاً يغنمون ويخربون ووصل إلى دمشق .

ذكر ملك الملثمين بجاية وعودها إلى أولاد عبد المؤمن

في هذه السنة في شعبان خرج على بن اسحق المعروف بابن غانية ، وهو من أعيان الملثمين الذين كانوا في المغرب - وهو حينئذ صاحب جزيرة ميورقة إلى بجاية ، فملكها ، وسبب ذلك أنّه لمّا سمع بوفاة يوسف بن عبد المؤمن عمر اسطوله ، فكان عشرين قطعة وسار في جموعه، فأرسى في ساحل بجاية ، وخرجت خيله ورجاله من الشواني ، فكانوا نحو مائتي فارس من الملثمين وأربعة آلاف راجل ، فدخل مدينة بجاية بغير قتال لأنه اتفق أنّ واليها سار عنها قبل ذلك بأيام إلى مراكش ، ولم يترك فيها جيشًا ولا ممانعًا لعدم عدوٍّ يحفظها منه ، فجاء الملثم ، ولم يكن في حسابهم أنه يحدث نفسه بذلك ، فأرسى بها ووافقه جماعة من بقايا دولة بني حماد ، وصاروا معه ، فكثر جمعه بهم ،

وقويت نفسه ، فسمع خبره والي بجاية ، فعاد من طريقه ومعه من الموحدين ثلاثمائة فارس ، فجمع من العرب والقبائل الذين في تلك الجهات نحو ألف فارس ، فسمع بهم ، وبقربهم منه فخرج إليهم ، وقد صار معه قدر ألف فارس ، وتوافقوا ساعة فانضاف جميع الجموع التي كانت مع والي بجاية إلى الملثم ، فانهزم حينئذ والي بجاية ، ومن معه من الموحدين ، وساروا إلى مراكش ، وعاد الملثم ، فجمع جيشه ، وخرج إلى أعمال بجاية ، فأطاعه جميعها إلا قسطنطينية الهوى ،

ها إلى أن جاء جيش من الموحدين من مراكش - في صفر سنة إحدى وثمانين وخمسمائة - إلى بجاية من البر والبحر ، وكان بها يحيى وعبدالله أخو علي بن اسحاق الملثم ، فخرجا منها هاربين ، ولحقا بأخيهما فرحل عن القسطنطينية وسار إلى افريقية ، وكان سبب إرسال الجيش من مراكش أن والي بجاية وصل إلى يعقوب بن يوسف صاحب المغرب ، وعرّفه ما جرى ببجاية واستيلاء الملثمين عليها ، وخوفه عاقبة التواني ، فجهز العساكر في البر عشرين ألف فارس وجهز الأسطول في البحر في خلق كثير واستعادوها .

ذكر وفاة صاحب ماردين وملك ولده

في هذه السنة مات قطب الدين أيلغازي بن نجم الدين بن ألبي بن تمرتاش بن أيلغازي بن أرتق صاحب ماردين ، وملك بعده ابنه حسام الدين بولق أرسلان ، وهو طفل - وقام بتربيته ، وتدبير مملكته نظام

www.alkottob.com

الدين البقش مملوك أبيه ، وكان شاه أرمن صاحب خلاط خال قطب الدين ، فحكم في دولته ، وهو رتب البقش مع ولده ، وكان البقش دينًا خيرًا عادلاً حسن السيرة سليما ، فأحسن تربية الولد وتزوّج أمّه ، فلما كبر الولد لم يمكنه النظام من مملكته لخبط وهوج كان فيه ، وكان لنظام الدين هذا مملوك اسمه لؤلؤ قد تحكم في دولته ، وحكم فيها ، فكان يحمل النظام على ما يفعله مع الولد ، ولم يزل الأمر كذلك إلى أن مات الولد وله أخ اصغر منه لقبه طلب الدين فرتبه النظام في الملك ، وليس له منه إلا الاسم ، والحكم إلى النظام ولؤلؤ ، فبقي كذلك إلى سنة إحدى وستمائة ، فمرض النظام البقش ، فأتاه قطب الدين يعود ، فلما خرج من عنده خرج معه لؤلؤ ، وضربه قطر الدين بسكين معه فقتله ، ثم دخل إلى النظام ، وبيده السكين ، فقتله أيضًا ، وخرج وحده . ومعه غلام له وألقى الرأسين إلى الأجناد ، وكانوا كلهم قد أنشأهم النظام ولؤلؤ ، فأذعنوا له بالطاعة ، فلمّا تمكن أخرج من أراد ، وترك من أراد واستولى على قلعة ماردين وأعمالها ، وقلعة البارعيّة ، وصور وهو إلى الآن حاكم فيها ، حازم في أفعاله .

ذكر عدة حوادث

وفي هذه السنة توفي صدر الدين شيخ الشيوخ عبد الرحمن بن شيخ الشيوخ إسماعيل بن شيوخ الشيوخ أبي سعيد أحمد في شعبان ، وكان قد سار في ديوان الخلافة رسولاً إلى صلاح الدين معه شهاب الدين بشير

الخادم في معنى الصلح بينه وبين عزّ الدين صاحب الموصل ، فوصل دمشق ، وصلاح الدين يحصر الكرك ، فأقام إلى أن عادَ فلم يستقر في الصلح أمر ومرضا ، وطلبا العودة إلى العراق ، فأشار عليهما صلاح الدين بالمقام إلى أن يصطلحا ، فلم يفعلا ، وسارا في الحر ، فمات بشير بالسخنة ، ومات صدر الدين بالرحبة ، ودفن بمشهد البوق ، وكان واحد زمانه قد جمع بين رياسة الدين ، والدنيا ، وكان ملجأ لكل خائف ، صالحا ، كريما ، حليما ، وله مناقب كثيرة ، ولم يستعمل في مرضه هذا دواء توكلا على الله تعالى .

وفيها توفّي عبد اللطيف بن محمّد بن عبد اللطيف الخجندى الفقيه الشافعي رئيس اصفهان ، وكان موته بباب همذان ، وقد عاد من الحج وله شعر فمنه :

بالحمى دارٌ ساقها مدمعي	يا سقَى اللهُ الحمى من مربعِ
ليتَ شعري والأمانيُّ ضلّة	هل إلى وادي الغضى من مرجعِ
أذنتْ علوة للواشي بنا	ما على علوةٍ لو لم تسمعِ
أو تحرَّت رشدًا فيما وشى	أو عفَتْ عني فما قَلبي معي

رحمه الله ورضي عنه وأرضاه .

www.alkottob.com

ثم دخلت سنة إحدى وثمانين وخمسمائة
ذكر حصر صلاح الدين الموصل ورحيله عنها لوفاة شاه ارمن

في هذه السنة حصر صلاح الدين يوسف بن أيوب الموصل مرة ثانية، وكان مسيره من دمشق في ذي القعدة من السنة الماضية ، فوصل إلى حلب ، وأقام بها إلى أن خرجت السنة ، وسار منها ، فعبر إلى أرض الجزيرة ، فلمّا وصل حرّان قبض على مظفّر الدين كوكبري بن زين الذين كان سبب ملكه الديار الجزرية ، وسبب قبضه عليه أنّ مظفّر الدين كان يراسل صلاح الدين كل وقت ، ويشير عليه بقصد الموصل ، ويحسن له ذلك ، ويقوي طمعه حتى أنه بذل له إذا سار إليها خمسين ألف دينار ، فلما وصل صلاح الدين إلى حرّان لم يفِ له بما بذل من المال ، وأنكر ذلك ، فقبض عليه ، ووكّل به ، ثمّ أطلقه ، وأعاد إليه مدينتي حرّان والرها ، وكان قد أخذها منه ، وإنما أطلقه لأنه خاف انحراف الناس عنه بالبلاد الجزرية لأنّهم كلهّم علموا بما اعتمده مظفّر الدين معه من تمليك البلاد ، فأطلقه وسار صلاح الدين على حرّان في ربيع الأول ، فحضر عنده عساكر الحصن ، ودارا ومعزّ الدين سنجرشاه صاحب الجزيرة وهو ابن أخي عزّ الدين صاحب الموصل ، وكان قد فارق طاعة عمّه بعد قبض مجاهد الدين ، وسار مع صلاح الدين إلى الموصل ،

فلما وصلوا إلى مدينة بلد سيّر أتابك عزّ الدين والدته إلى صلاح الدين ، ومعها ابنة عمّه نور الدين محمود بن زنكي ، وغيرهما من النّساء ، وجماعة من أعيان الدولة يطلبون منه المصالحة ، ويذلوا له الموافقة والانجاد بالعساكر ليعود عنهم ، وإنما أرسلهن لأنه وكلّ من عنده ظنّوا أنّهنّ إذا طلبن منه الشام أجابهن إلى ذلك لا سيما ومعهم ابنة مخدومه ، وولي نعمته نور الدين ، فلما وصلنَ إليه أنزلهنّ وأحضر أصحابه ، واستشارهم فيما يفعله ويقوله ، فأشار أكثرهم بإجابتهنَ إلى ما طلبن منه .

وقال الفقيه عيسى وعلي بن أحمد المشطوب ؛ وهما من بلد الهكارية من أعمال الموصل ، مثل الموصل لايترك لامرأة ؛ فإنّ عز الدين ما أرسلهن إلا وقد عجز عن حفظ البلد ، ووافق ذلك هواه ، فأعادهنّ خائبات واعتذر بأعذار غير مقبولة ، ولم يكن إرسالهم عن ضعف ووهن إنما أرسلهن طلبًا لدفع الشربالتي هي أحسن ، فلمّا عدن رحل صلاح الدين إلى الموصل ، وهو كالمتيقن أنّه يملك البلد ، وكان الأمر بخلاف ذلك ، فلما قارب البلد نزل على فرسخين منه ، وامتدّ عسكره في تلك الصحراء بنواحي الحلّة المراقيّة وكان يجري بين العسكر مناوشات بظاهر الباب العمادي ، وكنت إذ ذاك بالموصل ، وبذل العامّة نفوسهم غيظًا وحنقًا لردّه النساء ، فرأى صلاح الدين ما لم يكن يحسبه ، فندم على رده النساء ندامة الكسعي حيث فاته الذكر وملك البلد ، وعاد على الذين أشاروا بردهن باللوم والتوبيخ ، وجاءته كتب القاضي الفاضل وغيره ممن ليس له هوى في الموصل يقبحون فعله ، وينكرونه ، وأتاه وهو على

www.alkottob.com

الموصل زين الدين يوسف ابن زين الدين صاحب إربل ، فأنزله ومعه أخوه مظفّر كوكبري ، وغيرهما من الأمراء بالجانب الشرقي من الموصل ، وسيّر من المنزلة علي بن أحمد المشطوب الهكّاري إلى قلعة الجزيرة من بلد الهكّاريّة ، فحصرها ، واجتمع عليه من الأكراد والهكارية كثير ، وبقي هناك إلى أن رحل صلاح الدين عن الموصل ، وكان عامّة الموصل يعبرون دجلة فيقاتلون من الجانب الشرقي من العسكر ، ويعودون ؛ ولما كان صلاح الدين يحاصر الموصل بلغ اتابك عز الدين صاحبها أن نائبه بالقلعة يكاتبه ، فمنعه من الصعود إلى القلعة ، وعاد يقتدي برأي مجاهد الدين، وكان قد أخرجه كما ذكرناه ، ويصدر عن رأيه وضبط الأمور ، وأصلح ما كان فسد من الأحوال حتى آل الأمر إلى الصلح على ما نذكره إن شاء الله . وحضر عند صلاح الدين إنسان بغدادي أقام بالموصل ثم خرج إلى صلاح الدين ، فأشار عليه بقطع دجلة عن الموصل إلى ناحية نينوى ، وقال : إن دجلة إذن نقلت عن الموصل عطش أهلُها ، فملكناها بغير قتال، فظن صلاح الدين أن قوله صدق ، فعزم على ذلك حتى علم أنه لايمكن قطعه بالكلّية ، فإنّ المدّة تطول والتعب يكثر ولا فائدة وراءه ، وقبحه عنده أصحابه فأعرض عنه ، وأقام بمكانه من أول ربيع الآخرة إلى أن قارب آخره ، ثم رحل عنها إلى ميافارقين .

وكان سبب ذلك أن شاه أرمن صاحب خلاط ، توفي بها تاسع ربيع الآخر ، فوصل الخبر بوفاته في العشرين منه ، فعزم على الرحيل إليها وتملكها حيث إنّ شاه أرمن لم يخلف ولدًا ولا أحدًا من أهل بيته يملك

بلاده بعده ، وإنما قد استولى عليها مملوك اسمه بكتمر ، ولقبه سيف الدين فاستشار صلاح الدين أمراءه ووزراءه ، فاختلفوا ، فأما من هواه بالموصل ، فيشير بالمقام وملازمة الحصار لها ، وأما من يكره أذى البيت الأتابكي ، فإنه أشار بالرحيل ، وقال : إن ولاية خلاّط أكبر ، وأعظم، وهي سائبة لا حافظ لها ، وهذه لها سلطان يحفظها ، ويذب عنها ، وإذا ملكنا تلك سهل أمر هذه وغيرها ، فتردّد في أمره ، فاتفّق أنه جاءه كتب جماعة من أعيان خلاط من أهلها ، وأمرائها يستدعونه ليسلّموا إليه البلد، فسار عن الموصل ، وكانت مكاتبة من كابه خديعة ومكرًا ، فإن شمس الدين البهلوان بن ايلدكز صاحب أذربيجان ، وهمذان ، وتلك المملكة قد قصدهم ليأخذ البلاد منهم (وكان قبل ذلك قد زوّج شاه أرمن على كبر سنّه بنتًا له ليجعل ذلك طريقًا إلى ملك خلاّط وأعمالها ، فلما بلغهم مسيره إليهم كاتبوا صلاح الدين يستدعونه ليسلموا البلد إليه ليدفعوا به البهلوان ، ويدفعوه بالبهلوان ، وتبقى البلد بأيديهم ، فسار صلاح الدين، وسيّر في مقدّمته ابن عمه ناصر الدين محمد ابن شيركوه ، ومظفّر الدين بن زين الدين وغيرهما ، فساروا إلى خلاط ، ونزلوا بطوانة بالقرب من خلاط ، وسار صلاح الدين إلى ميافارقين ، وأمّا البهلوان ، فإنه سار إلى خلاط ، ونزل قريبًا منها ، وتردّدت رسل أهل خلاط بينهم، وبينه وبين صلاح الدين ، ثم انهم اصلحوا أمرهم مع البهلوان ، وصاروا من حزبه وخطبوا له .

www.alkottob.com

ذكر وفاة نور الدين صاحب الحصن

في هذه السنة توفي نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود صاحب الحصن وآمد لما كان صلاح الدين على الموصل ، وخلّف ابنين ، فملك الأكبر منهما ، واسمه سقمان ، ولقبه قطب الدين ، وتولى تدبير الأمور وزيره القوّام بن سماقا الأسعردي ، وكان عماد الدين بن قرا أرسلان سيَّره أخوه نور الدين في عساكره ، إلى صلاح الدين ، وهو يحاصر الموصل ، وهو معه ، فلمّا بلغه خبر وفاة أخيه سار ليملك البلاد بعده لصغر أولاده فتعذَّر عليه ذلك ، فسار إلى خرت برت ، فملكها وهي بيد أولاده إلى سنة عشرين وستمائة ، ولمّا حضر صلاح الدين ميافارقين حضر عنده ولد نور الدين ، فأقره على ملك أبيه ، ومن جملته آمد ، وكانوا خافوا أن يأخذها منهم ، فلم يفعل وردهم إلى بلادهم ، وشرط عليهم أن يراجعوه فيما يفعلونه ، ويصدرون عن أمره ونهيه ، ورتّب معه أميراً لقبه صلاح الدين من أصحاب أبيه .

ذكر ملك صلاح الدين ميافارقين

لما سار صلاح الدين إلى خَلاّط جعل طريقه على ميافارقين مطمع ملكها حيث كان صاحبه قطب الدين صاحب ماردين[1] قد توفي - كما

(١) ماردين : بكسر الراء والدال ، قلعة مشهورة على قمّة جبل الجزيرة دُنَيسر ودارا ونصيبين .

ذكرنا - وملك بعده ابنه وهو طفل ، وكان حكمها إلى شاه أرمن وعسكره فيها ، فلمّا توفّي طمع في أخذها ، فلما نازلها رآها مشحونة بالرجال ، وبها زوجة قطب الدين المتوفّي ، ومعها بنات لها منه ، وهي أخت نور الدين محمد صاحب الحصن ، فأقام صلاح الدين عليها يحصرها من أول جمادى الأولى ، وكان المقدم على أجنادها أمير اسمه يرنقش ولقبه أسد الدين ، وكان شجاعًا شهمًا يحفظ البلد ، فأحسن إليه واشتد القتال عليه، ونصب المنجنيقات والعرادات ، فلم يصل صلاح الدين إلى ما يريد منها، فلمّا رأى ذلك عدل من القوّة والحرب إلى إعمال الحيلة ، فراسل امرأة قطب الدين المقيمة بالبلد يقول لها : إنّ أسد الدين يرنقش قد مال إلينا في تسليم البلد ، ونحن نرعى حقَّ أخيك نور الدين فيك بعد وفاته ، ونريد أن يكون لك في هذا الأمر نصيب ، وأنا أزوج بناتك لأولادي ، وتكون ميافارقين وغيرها لك وبحكمك ، ووضع من أرسل إلى الأسد يعرفه أنّ الخاتون قد مالت للمقاربة ، والانقياد إلى السلطان ، وأنّ من بخلاط قد كاتبوه ليسلّموا إليه ، فخذ لنفسك ، واتفق أن رسولاً وصله من خلاط يبذلون له الطاعة ، وقالوا له من الاستدعاء إليهم ما كانوا يقولونه، فأمر صلاح الدين الرسول ، فدخل إلى ميافارقين ، وقال للأسد أنت ممّن تقاتل ، وأنا قد جئت في تسليم خلاط إلى صلاح الدين ، فسقط في يده ، وضعفت قوته ، وأرسل يقترح أقطاعًا ، ومالاً ، فأجيب إلى ذلك وسلم البلد جمادى الأولى ، وعقد النكاح لبعض أولاده على بعض بنات خاتون وأقرّ بيدها قلعة هناخ لتكون فيها هي وبناتها .

www.alkottob.com

ذكر عود صلاح الدين إلى بلد الموصل والصلح بينه وبين أتابك عز الدين

لمّا فرغ صلاح الدين من أمر ميافارقين ، وأحكم قواعدها ، وقرّر اقطاعاتها وولاياتها أجمع على العود إلى الموصل ، فسار نحوها ، وجعل طريقه على نصيبين ، فوصل إلى كفر زمار ، والزّمان شتاء ، فنزلها في عساكره ، وعزم على المقام بها ، وإقطاع جميع بلاد الموصل ، وأخذ غلاتها ، ودخلها ، وإضعاف الموصل بذلك إذ علم أنه لايمكنه التغلّب عليها ، وكان نزوله في شعبان ، وأقام بها شعبان ورمضان ، وتردّدت الرسل بينه وبين عز الدين صاحب الموصل ، وصار مجاهد الدين يراسل، ويتقرب ، وكان قولُه مقبولا عند سائر الملوك لما علموا من صحته ، فبينما الرسل تتردّد في الصلح إذ مرض صلاح الدين ، وسار مع كفر زمار ، وعاد إلى حرّان ، فلحقه الرسل بالإجابة إلى ما طلب ، فتقرّر الصلح ، وحلف على ذلك ، وكانت القاعدة أن يسلّم إليه عز الدين شهرزور وأعمالها ، وولاية القرابلي ، وجميع ما وراء الزاب من أعمال ، وأن يخطب له على منابر بلاده ، ويضرب اسمه على السكة ، فلمّا حلف أرسل رسله ، فحلف عز الدين له ، وتسلّم البلاد التي استقرّت القاعدة على تسليمها ، ووصل صلاح الدين إلى حرّان ، فأقام بها مريضا وأمنت الدنيا ، وسكنت الدهماء ، وانحسمت مادة الفتن ، وكان ذلك بتوصّل مجاهد الدين قايماز رحمه الله ، وأمّا صلاح الدين ، فإنه طال مرضه بحران ، وكان عنده من أهله أخوه الملك العادل ، وله حينئذ حلب ، وولده الملك العزيز عثمان ، واشتد مرضه حتى أيسوا من عافيته ، فحلف

الناس لأولاده ، وجعل لكلٍّ منهم شيئًا من البلاد معلومًا ، وجعل أخاه العادل وصيًّا على الجميع ، ثم إنه عوفي ، وعاد إلى دمشق في المحرّم سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة ، ولمّا كان مريضًا بحران كان عنده ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه ، وله من الأقطاع حمص والرحبة ، فسار من عنده إلى حمص ، فاجتاز بحلب ، واحضر جماعة من الدمشقيين وواعدهم على تسليم البلد إليه إذا مات صلاح الدين، وأقام بحمص ينتظر موته ليسير إلى دمشق فيملكها فعوفي ، وبلغه الخبر على جهته ، فلم يمض غير قليل حتى مات ابن شيركوه ليلة عيد الأضحى ، فإنه شرب الخمر وأكثر منه ، فأصبح ميتًا ، فذكروا والعهدة عليهم أن صلاح الدين وضع إنسانًا يقال له الناصح بن العميد وهو من دمشق ، فحضر عنده ونادمه ، وسقاه سمًّا فلما اصبحوا من الغد لم يروا الناصح ، فسألوا عنه، فقيل إنه سار من ليلته إلى صلاح الدين ، فكان هذا مما قوى الظنّ ، فلما توفي أعطى أقطاعه لولده شيركوه ، وعمره اثنتا عشرة سنة ، وخلف ناصر الدين من الأموال والخيل والآلات شيئًا كثيرًا ، فحضر صلاح الدين في حمص ، واستعرض تركته وأخذ أكثرها ، ولم يترك إلا ما لاخير فيه، وبلغني أن شيركوه بن ناصر الدين حضر عند صلاح الدين بعد موت أبيه بسنة ، فقال له : إلى أين بلغت من القرآن ؟ فقال : إلى قوله تعالى : ﴿ **إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا إنما يأكلون في بطونهم نارًا وسيصلون سعيرًا** ﴾ فعجب صلاح الدين والحاضرون من ذكائه .

www.alkottob.com

ذكر الفتنة بين التركمان والأكراد بديار الجزيرة والموصل

في هذه السنة ابتدأت الفتنة بين التركمان والأكراد بديار الجزيرة والموصل ، وديار بكر وخلاّط والشام وشهرزور وأذربيجان ، وقتل فيها من الخلق ما لايحصى ، ودامت عدّة سنين وتقطّعت الطرق ونهبت الأموال ، وأريقت الدماء ، وكان سببها أنَّ امرأة من التركمان تزوّجت بإنسان تركماني ، واجتازوا في طريقهم بقلعة من الزوزان الأكراد ، فجاد أهلها ، وطلبوا من التركمان وليمة العرس ، فامتنعوا من ذلك ، وجرى بينهم كلام صاروا منه إلى القتال ، فنزل صاحب تلك القلعة ، فأخذ الزوج فقتله ، فهاجت الفتنة ، وقام التركمان على ساق ، وقتلوا جمعًا كثيرًا من الأكراد ، وثار الأكراد فقتلوا من التركمان أيضًا كذلك ، وتفاقم الشرّ ودام ، ثم إنَّ مجاهد الدين قايماز رحمه الله جمع عنده جمعًا من رؤساء الأكراد والتركمان، وأصلح بينهم ، وأعطاهم الخلع والثياب وغيرها ، وأخرج عليهم مالاً جمًّا فانقطعت الفتنة، وكفى الله شرها وعادوا إلى ما كانوا عليه من الطمأنينة والأمان .

ذكر ملك الملثمين وعرب إفريقية وعودها إلى الموحدين

قد ذكرنا سنة ثمانين ملك علي ابن اسحق الملثم بجاية ، وإرسال يعقوب بن يوسف ابن عبد المؤمن العساكر واستعادتها ، فسار إلى افريقية، فلمّا وصل إليها اجتمع سليم ورياح ومن هناك من العرب ، وانضاف إليهم الترك الذين كانوا قد دخلوا من مصر مع شرف الدين

قراقوش ، وقد تقدَّم ذكر وصوله إليها ، ودخل أيضًا من أتراك مصر مملوك لتقي الدين ابن أخي صلاح الدين اسمه بوزابه ، فكثر جمعهم ، وقويت شوكتهم ، فلما اجتمعوا بلغت عدّتهم مبلغًا كثيرًا ، وكلّهم كاره لدولة الموحدين ، واتبعوا جميعهم علي ابن أسحق الملثم لأنه من بيت المملكة والرياسة والقديمة ، وانقادوا إليه ولقبوه بأمير المسلمين ، وقصدوا بلاد إفريقية ، فملكوها جميعها شرقًا وغربًا إلا مدينتين : تونس والمهدية، فإن الموحدين أقاموا بها ، وحفظوها على خوف وضيق وشدّة ، وانضاف إلى المفسد الملثَّم كلُّ مفسد في تلك الأرض ، ومن يريد الفتنة والنهب والفساد والشر ، فخربوا البلاد والحصون والقرى ، وهتكوا الحرم، وقطعوا الأشجار ، وكان الوالي على إفريقية حينئذ عبد الواحد بن عبدالله الهنتاتي، وهو بمدينة تونس ، فأرسل إلى ملك المغرب يعقوب وهو بمراكش يعلمه الحال .

وقصد الملثم جزيرة باشرا وهي بقرب تونس تشتمل على قرى كثيرة، فنازلها وأحاط بها ، فطلب أهلها منه الأمان فأمّنهم ، فلما دخلها العسكر نهبوا جميع ما فيها من الأموال والدواب والغلات ، وسلبوا الناس حتى ثيابهم ، وامتدت الأيدي إلى النساء والصبيان ، وتركوهم هلكى ، فقصدوا مدينة تونس ، فأمّا الأقوياء ، فكانوا يخدمون ويعلمون ما يقوم بقوتهم ، وأمّا الضعفاء ، فكانوا يستعطون ويسألون الناس ، ودخل عليهم فصل الشتاء ، فأهلكهم البرد ، ووقع فيهم الوباء ، فأحصى الموتى منهم ، فكانوا اثني عشر ألفًا هذا من وضع واحد ، فما الظنُّ بالباقي ،

www.alkottob.com

ولّما استولى الملثم على إفريقية قطع خطبة أولاد عبد المؤمن ، وخطب للإمام الناصر لدين الله الخليفة العباسي ، وأرسل إليه يطلب الخلع والأعلام السود ، وقصد في سنة اثنتين وثمانين مدينة قفصة فحصرها ، فأخرج أهلها الموحدين من عساكر ولد عبد المؤمن ، وسلموها إلى الملثم ، فرتّب فيها جندا من الملثمين والأتراك ، وحصنها بالرجال مع حصانتها في البناء ، وأمّا يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن فإنّه لما وصله الخبر اختار من عساكره عشرين ألف فارس من الموحدين ، وقصد قلة العسكر لقلّة القوت في البلاد ، ولما جرى فيها التخريب والأذى ، وسار في صفر سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، فوصل إلى مدينة تونس ، وأرسل ستة آلاف فارس مع ابن أخيه ، فساروا إلى على بن اسحق الملثم ليقاتلوه ، وكان بِقَفْصَةَ[1] فوافوه ، وكان مع الموحدين جماعة من الترك ، فخامروا عليهم، فانهزم الموحدون ، وقتل جماعة من مقدميهم ، وكان ذلك في ربيع الأول سنة ثلاث وثمانين فلمّا بلغ يعقوب الخبر أقام بمدينة تونس إلى نصف رجب من السنة ، ثم خرج فيمن معه من العساكر يطلب الملثّم والأتراك ، فوصل إليهم ، فالتقوا بالقرب من مدينة قابس ، واقتتلوا ، فانهزم الملثم ومن معه ، فأكثر الموحدون القتل حتى كادوا يفنونهم ، فلم ينج منهم إلا القليل ، فقصدوا البر ، ورجع يعقوب من يومه إلى قابس ففتحها ،

(١) قفصة : بلدة صغيرة في طرف افريقية من ناحية المغرب من عمل الزاب الكبير بالجريد، بينها وبين القيروان ثلاثة أيام .

وأخذ منها أهل قراقوش وأولاده ، وحملهم إلى مراكش ، وتوجه إلى مدينة قفصة ، فحصرها ثلاثة أشهر ، وقطع أشجارها وخرب ما حولها ، فأرسل إليه الترك الذين فيها يطلبون الأمان لأنفسهم ، ولأهل البلد ، فأجابهم إلى ذلك ، وخرج الأتراك منها سالمين ، وسيّر الأتراك إلى الثغور لما رأى من شجاعتهم ونكايتهم في العدو ، وتسلم يعقوب البلد ، وقتل من فيه من الملثمين ، وهدم أسواره ، وترك المدينة مثل قرية ، وظهر ما أنذر به المهدي بن تومرت ، فإنه قال إنّها تخرب أسوارها ، وتقطع أشجارها ، وقد تقدَّم ذكر ذلك ، فلما فرغ يعقوب من أمر قفصة ، واستقامت افريقية عاد إلى مراكش ، وكان وصوله إليها سنة أربع وثمانين وخمسمائة .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة فارق الرضى أبو الخير إسماعيل القزويني الفقه الشافعي بغداد ، وكان مدرس النظامية بها وعاد إلى قزوين ، ودرَّس فيها بعده الشيخ أبو طالب المبارك صاحب ابن الخل ، وكان من العلماء الصالحين.

وفيها كان بين أهل الكرخ ببغداد ، وبين أهل باب البصرة فتنة عظيمة جرح فيها كثير منهم ، وقتل ، ثم أصلح النقيب الظاهر بينهم .

وفيها توفّي الفقيه مهذب الدين عبدالله بن أسعد الموصلي ، وكان عالما بمذهب الشافعي وله نظم ونثر أجاد فيه ، وكان من محاسن الدنيا وكانت وفاته بحمص .

www.alkottob.com

ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة
ذكر نقل العادل من حلب والملك العزيز إلى مصر
وإخراج الأفضل من مصر إلى دمشق وإقطاعه إياها

في هذه السنة أخرج صلاح الدين ولده الأفضل عليّ من مصر إلى دمشق ، وأقطعها له ، وأخذ حلب من أخيه العادل وسيّره مع ولده العزيز عثمان إلى مصر ، وجعله نائبًا عنه ، واستدعى تقيّ الدين منها ، وسببُ ذلك أنّ كان قد استناب تقيّ الدين بمصر - كما ذكرناه - وجعل معه ولده الأكبر الأفضل علي ، فأرسل تقي الدين يشكو من الأفضل ، ويذكر أنّه قد عجز عن جباية الخراج معه لأنه كان حليمًا كريمًا إذا أراد تقيّ الدين معاقبة أحد منعه ، فأحضر ولده الأفضل ، وقال لتقي الدين لاتحتج في الخراج وغره بحجة ، وتغير بذلك ، وظنّ أنّه يريد إخراج ولده الأفضل ينفرد بمصر حتي يملكها إذا مات صلاح الدين ، فلما قوي هذا الخاطر عنده أحضر أخاه العادل من حلب ، سيّره إلى مصر ومعه ولده عثمان ، واستدعى تقي الدين إلى الشام ، فامتنع من الحضور ، وجمع الأجناد والعساكر ليسير إلى المغرب إلى مملوكه قراقوش ، وكان قد استولى على جبال نفوسة ، وبرقة وغيرها ، وقد كتب إليه برغبة في تلك البلاد ، فتجهّز للسفر إليه ، واستصحب معه أنجاد العسكر ، وأكثر منهم، فلمّا سمع ذلك صلاح الدين ساءه ، وعلم أنه إن أرسل إليه يمنعه

لم يجبه ، فأرسل إليه يقول له : أريد أن تحضر عندى لأودّعك وأوصيك بما تفعله ، فلما حضر عنده منعه وزاد في أقطاعه ، فصار إقطاعه حماة ، ومنبج والمعرة وكفر طاب وميافارقين وجبل جور بجميع أعمالها ، وكان تقي الدين قد سيَّر في مقدمته مملوكه بوزابة ، فاتصل بقراقوش ، وكان منهم ما ذكرناه سنة إحدى وثمانين وخمسمائة ، وقد بلغني من خبير بأحوال صلاح الدين أنه إنما حمله على أخذ حلب من العادل ، وإعادة تقي الدين إلى الشام أن صلاح الدين لما مرض بحرّان - على ما ذكرناه - أرجف بمصر أنه قد مات ، فجرى من تقي الدين حركات من يريد أن يستبدل الملك ، فلما عوفي صلاح الدين بلغه ذلك ، فأرسل الفقيه عيسى الهكاري ، وكان كبير القدر عنده مطاعا في الجند إلى مصر ، وأمره بإخراج تقي الدين ، والمقام بمصر ، فسار مُجِدّاً فلم يشعر تقي الدين إلا وقد دخل الفقيه عيسى إلى داره بالقاهرة ، وأرسل إليه يأمره الخروج منها، فطلب أن يمهل إلى أن يتجهز، فلم يفعل ، وقال : تقيم خارج المدينة ، وتتجهز فخرج ، وأظهر أنه يريد الدخول إلى الغرب ، فقال له: اذهب حيث شئت ، فلما سمع صلاح الدين الخبر أرسل إليه يطلبه ، فسار إلى الشام ، فأحسن إليه ولم يظهر له شيئًا مما كان لأنه كان حليمًا كريمًا صبورًا رحمه الله .

وأمّا أخذ حلب من العادل ، فإن السبب فيه أنه كان من جملة جندها أمير كبير اسمه سليمان بن جندر بينه وبين صلاح الدين صحبة قديمة قبل الملك ، وكان صلاح الدين يعتمد عليه ، وكان عاقلاً ذا مكر ودهاء ،

www.alkottob.com

فاتفق أن الملك العادل لما كان بحلب لم يفعل معه ما كان يظنُّه وقدَّم غيره عليه ، فتأثر بذلك ، فلما مرض صلاح الدين وعوفي سار إلى الشام ، فسايره يومًا سليمان بن جندر ، فجرى حديث مرضه ، فقال له سليمان بأي رأي كنت تظن أنك تمضي إلى الصيد ، فلا يخالفونك بالله ما تستحي يكون الطائر أهدى منك إلى المصلحة ، قال : وكيف ذلك ؟ وهو يضحك . قال : إذا أراد الطائر أن يعمل عشًا لفراخه قصد أعالي الشجرة ليحمي فراخه ، وأنت سلَّمت الحصون إلى أهلك ، وجعلت أولادك على الأرض ، هذه حلب بيد أخيك ، وحماة بيد تقي الدين ، وحمص بيد ابن شيركوه ، وابنك العزيز مع تقي الدين بمصر يخرجه أي وقت أراد ، وهذا ابنك الآخر مع أخيك في خيمة يفعل به ما أراد ، فقال له صدقت، واكتم هذا الأمر ، ثم أخذ حلب من أخيه ، وأخرج تقي الدين من مصر، ثم أعطى أخاه العادل حرّان والرها وميافارقين ليخرجه من الشام ومصر لتبقى لأولاده ، فلم ينفعه ما فعل لما أراد الله تعالى نقل الملك عن أولاده على ما نذكره .

ذكر وفاة البهلوان وملك أخيه قزل

في هذه السنة في أولها توفّي البهلوان محمد بن ايدلكز صاحب بلد الجبل والريّ وأصفهان وأذربيجان وأرانية وغيرها من البلاد ، وكان عادلاً حسن السيرة عاقلاً حليمًا ذا سياسة حسنة للملك ، وكانت تلك البلاد في أيامه آمنة ، والرعاية مطمئنة ، فلما مات جرى بأصفهان بين الشافعيّة والحنفيّة من الحروب ، والقتل ، والإحراق ، والنهب ما يجل عن الوصف ، وكان قاضي البلد رأس الحنفية ، وابن الخجندي رأس الشافعية، وكان بمدينة الري أيضًا فتنة عظيمة بين السنية والشيعة ، وتفرق أهلها ، وقتل منهم ، وخرجت المدينة وغيرها من البلاد ! ولما مات البهلوان ملك أخوه أرسلان ، واسمه عثمان ، وكان السلطان طغرل بن أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه مع البهلوان ، والخطبة له في البلاد بالسلطنة ، وليس له من الأمر شيء ، وإنما البلاد والأمراء والأموال بحكم البهلوان ، فلما مات البهلوان خرج طغرل عن حكم قزل ، ولحق به جماعة من الأمراء والجند ، فاستولى على بعض البلاد ، وجرت بينه وبين قزل حروب نذكرها إن شاء الله تعالى .

ذكر اختلاف الفرنج بالشام وانحياز القمص صاحب طرابلس إلى صلاح الدين

كان القمّص صاحب طرابلس ، واسمه ريمند بن ريمند الصنجيلي قد تزوج بالقومصة صاحبة طبرية ، وانتقل إليها ، وأقام عندها بطبرية ، ومات ملك الفرنج بالشام ، وكان مجذومًا ، وأوصى بالملك إلى ابن اخت له ، وكان صغيرًا ، فكفله القمص ، وقام بسياسة الملك وتدبيره ، لأنه لم يكن للفرنج ذلك الوقت أكبر منه شأنًا ، ولا أشجع ، ولا أجود رأيًا منه ، فطمع في الملك بسبب هذا الصغير ، فاتفق أن الصغير توفي فانتقل الملك إلى أمه ، فبطل ما كان القمص يحدث نفسه به ، ثم إن هذه

www.alkottob.com

الملكة هويت رجلاً من الفرنج الذين قدموا الشام اسمه كي ، فتزوجته ، ونقلت الملك إليه ، وجعل التاج على رأسه ، واحضرت البطرك والقسوس والرهبان والاسبتارية والدوابة والبارونية ، واعلمتهم أنها قد ردّت الملك إليه ، وأشهدتهم عليها بذلك ، فأطاعوه ، ودانوا له فعظم ذلك على القمص ، وسقط في يديه وطولب بحساب ما جُبِيَ من الأموال مدةَ ولاية الصبي ، فادّعى أنّه أنفقه عليه ، وزاده ذلك نفوراً ، وجاهر بالمشاقة والمباينة ، وراسل صلاح الدين ، وانتمى إليه ، واعتضد به ، وطلب منه المساعدة على بلوغ غرضه من الفرنج ، ففرح صلاح الدين والمسلمون بذلك ، ووعده النصرة والسعي له في كل ما يريد ، وضمن له أنه يجعله ملكًا مستقلاً للفرنج قاطبة ، وكان عنده جماعة من فرسان القمص ، فأطلقهم ، فحلَّ ذلك عنده أعظم محل ، وأظهر طاعة صلاح الدين ، ووافقه على ما فعل جماعة من الفرنج ، فاختلفت كلمتهم ، وتفرَّق شملهم ، وكان ذلك من أعظم الأسباب الموجبة لفتح بلادهم ، واستنقاذ البيت المقدس منهم على ما نذكره إن شاء الله ، وسيَّر صلاح الدين السرايا من ناحية طبريَّة فشنت الغارات على بلاد الفرنج ، وخرجت سالمة غانمة ، فوهن الفرنج بذلك ، وضعفوا وتجرأ المسلمون عليهم ، وطمعوا فيهم .

ذكر غدر البرنس أرناط

كان البرنس أرناط صاحب الكرك من أعظم الفرنج ، وأخبثهم ، وأشدّهم عداوة للمسلمين ، وأعظمهم ضرراً عليهم ، فلما رأى صلاح

الدين ذلك منه قصده بالحصر مرّة بعد مرّة ، وبالغارة على بلاده كرّة بعد أخرى ، فذلَّ وخضع ، وطلب الصلح من صلاح الدين فأجابه إلى ذلك ، وهادنه وتحالفا ، وتردّدت القوافل من الشام إلى مصر ، ومن مصر إلى الشام ، فلمّا كان هذه السنة اجتاز به قافلة عظيمة غزيرة الأموال كثيرة الرجال ، ومعها جماعة صالحة من الجند ، فغدر اللعين بهم ، وأخذهم عن آخرهم ، وغنم أموالهم ، ودوابهم وسلاحهم وأودع السجون من أسر منهم ، فأرسل إليه صلاح الدين يلومه ، ويقبّح فعله وغدره ، ويتوعده إن لم تطلق الأسرى والأموال ، فلم يجب إلى ذلك ، وأصر على الامتناع ، فنذر صلاح الدين نذراً أن يقتله إن ظفر به ، فكان ما نذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر عدة حوادث

كان المنجمون قديمًا وحديثًا قد حكموا أن هذه السنة التاسع والعشرين من جمادى الآخرة تجتمع الكواكب الخمسة في برج الميزان ، ويحدث باقترانها رياح شديدة ، فلم يكن لذلك صحة ، ولم يهب من الرياح شيء البتة حتى إن الغلال - الحنطة والشعير - تأخر نجازها لعدم الهواء الذي يذري به الفلاحون ، فأكذب الله احدوثة المنجمين ، وأخزاهم .

وفيها توفي عبدالله بن بري بن عبد الجبار بن بري النحوي المصري، وكان إمامًا في النحو رحمه الله تعالى .

www.alkottob.com

ثم دخلت سنة ثلاثة وثمانين وخمسمائة

اتّفق أوّل هذه السنة يوم السبت ، وهو يوم النوروز السلطاني ، ورابع عشر اذار سنة ألف وأربعمائة وثمان وتسعين اسكندرية ، وكان القمر والشمس في الحمل ، واتّفق أوّل سنة العرب ، وأوّل سنة الفرس التي جددوها أخيرًا ، وأول سنة الروم والشمس والقمر في أول البروج وهذا يبعد وقوع مثله .

ذكر حصر صلاح الدين الكرك

في هذه السنة كتب صلاح الدين إلى جميع البلاد يستنفر الناس للجهاد ، وكتب إلى الموصل وديار الجزيرة وإربل وغيرها من بلاد الشرق وإلى مصر وسائر بلاد الشام ، يدعوهم إلى الجهاد ، ويحثهم عليه ، ويأمرهم بالتجهّز له بغاية الإمكان ثمَّ خرج من دمشق أواخر المحرّم في عسكرها وحلقتها الخاص ، فسار إلى رأس الماء وتلاحقت به العساكر الشامية ، فلمّا اجتمعوا جعل عليهم ولده الملك الأفضل عليّ ليجتمع إليه من يرد إليه منها ، وسار هو إلى بُصرى جريدة ، وكان سبب مسيره وقصد إليها أنه أتته الأخبار ، أنّ البرنس أرناط صاحب الكرك يريد أن يقصد الحجاج ليأخذهم من طريقهم ، وأظهر أنه إذا فرغ من أخذ الحجاج يرجع إلى طريق العسكر المصري يصدّهم عن الوصول إلى صلاح الدين ،

فسار إلى بصرى ليمنع البرنس أرناط من طلب الحجاج ، ويلزم بلده خوفًا عليه ، وكان من الحجاج جماعة من أقاربه منهم محمد بن لاجين وهو ابن أخت صلاح الدين وغيره ، فلمّا سمع أرناط بقرب صلاح الدين من بلده لم يفارقه ، وانقطع عمّا طمع فيه ، فوصل الحجاج سالمين ، فلما وصلوا وفرغ سرّه من جهتهم سار إلى الكرك وبث سراياه من هناك على ولاية الكرك والشوبك وغيرها ، فنهبوا وخربوا وأحرقوا ، والبرنس محصور لايقدر على المنع عن بلده ، وسائر الفرنج قد لزموا طرق بلادهم خوفا من العسكر الذي مع ولده الأفضل ، فتمكّن من الحصر والنهب والحريق والتخريب هذا فعل صلاح الدين .

ذكر الغارة على بلد عكا

أرسل صلاح الدين إلى ولده الأفضل يأمره أن يرسل قطعة صالحة من الجيش إلى بلد عكا ، ينهبونه ويخربونه ، فسيَّر مظفَّر الدين كوكبري بن زين الدين صاحب حرّان والرها ، وأضاف إليه قايماز النجمي ودلدرم الياقوتي ، وهما من أكابر الأمراء وغيرهما ، فساروا ليلاً ، وصبحوا صفوريّة أواخر صفر فخرج إليهم الفرنج في جمع من الداوية والاسبتارية وغيرهما ، فالتقوا هناك ، وجرت بينهم حرب تشيب لها المفارق السود ثمَّ أنزل الله تعالى نصره على المسلمين ، فانهزم الفرنج ، وقتل منهم جماعة وأسر الباقون ، وفيمن قتل مقدَّم الاسبتارية ، وكان من فرسان الفرنج المشهورين ، وله النكايات العظيمة في المسلمين ، ونهب المسلمون

www.alkottob.com

ما جاورهم من البلاد ، وغنموا وسبوا وعادوا سالمين ، وكان عودهم على طبرية وبها القمّص فلم ينكر ذلك ، فكان فتحًا كثيرًا ، فإنَّ الداوية والاسبتارية هم جمرة الفرنج ، وسيّرت البشائر إلى البلاد بذلك .

ذكر عود صلاح الدين إلى عسكره ودخوله إلى الفرنج

لما أتت صلاح الدين البشارة بهزيمة الاسبتارية والداوية ، وقتل من قتل منهم وأسر من أسر منهم ، عاد عن الكرك إلى العسكر الذي مع ولده الملك الأفضل ، وقد تلاحقت سائر الأمراء والعساكر ، واجتمع بهم، وساروا جميعا ، وعرض العسكر فبلغت عدَّتهم اثني عشر ألف فارس ممن له الأقطاع ، والجامكية سوى المتطوعة فعبّى عسكره ، قلبًا وجناحين وميمنة وميسرة وجاليشية وساقة ، وعرف كل منهم موضعه وموقفه ، وأمره بملازمته ، وسار على تعبية ، فنزل بالأقحوانة بقرب طبرية ، وكان القمّص قد انتمى إلى صلاح الدين - كما ذكرناه - وكتبه متصلة إليه بعده النصرة ويمنيه المعاضدة .

وما يعدهم الشيطان إلا غرورا

فلما رأى الفرنج العساكر الإسلامية ، وتصميم العزم على قصد بلادهم أرسلوا إلى القمّص البطرك والقسوس والرهبان وكثيرًا من الفرسان، فأنكروا عليه انتماءه إلى صلاح الدين ، وقالوا له لاشك اسلمت ، وإلا لم تصبر على فعل المسلمين أمس بالفرنج ، يقتلون الداوية والاسبتارية ، ويأسرونهم ويجتازون بهم عليك ، وأنت لاتنكر ذلك ولا تمتنع عنه ، ووافقهم على ذلك من عنده من عسكر طبرية وطرابلس ، وتهدده البطرك أنه يحرمه ، ويفسخ عليه نكاح زوجته إلى غير ذلك من التهديد ، فلما رأى القمّص شدة الأمر عليه خاف واعتذر وتنصل وتاب ، فقبلوا عذره ، وغفروا زلته ، وطلبوا منه الموافقة على المسلمين والمؤازرة على حفظ بلادهم ، فأجابهم إلى المصالحة والانضمام إليهم والاجتماع بهم وسار معهم إلى ملك الفرنج ، واجتمعت كلمتهم بعد فرقتهم ، ولم تغنِ عنهم من الله شيئًا ، وجمعوا فارسهم وراجلهم ، ثم ساروا من عكا إلى صفورية ، وهم يقدمون رجلا ويؤخرون أخرى قد ملئت قلوبهم رعبًا .

ذكر فتح صلاح الدين طبرية

لما اجتمع الفرنج ، وساروا إلى صفورية جمع صلاح الدين أمراءه واستشارهم ، فأشار أكثرهم عليه بترك اللقاء ، وأن يضعف الفرنج بشنّ الغارات ، وإخراب الولايات مرة بعد مرة ، فقال له بعض امرائه : الرأي عندى أنّنا نجوس بلادهم وننهب ونخرب ونحرق ونسبي ، فإن وقف أحد من عسكر الفرنج بين أيدينا لقيناه ، فإنَّ الناس بالمشرق يلعنوننا ، ويقولون : ترك قتال الكفار وأقبل يريد قتال المسلمين ، والرأي أن نفعل فعلا نعذر فيه ونكفّ الألسنة عنا ، فقال صلاح الدين : الرأي عندي أن نلقى بجمع المسلمين جمع الكفار ، فإن الأمور لاتجري بحكم الإنسان ولا نعلم قدر الباقي من أعمارنا ، ولا ينبغي أن نفرّق هذا الجمع إلا بعد الجدّ

www.alkottob.com

بالجهاد ، ثم رحل من الأقحوانة اليوم الخامس من نزوله وهو يوم الخميس لسبع بقين من ربيع الآخر ، فسار حتى خلف طبريّة وراء ظهره ، وصعد جبلها وتقدم حتى قارب الفرنج ، فلم ير منهم أحدًا ، ولا فارقوا خيامهم، فنزل وأمر العسكر بالنزول ، فلمّا جنه الليل جعل في مقابل الفرنج من يمنعهم من القتال ، ونزل جريدة إلى طبرية وقاتلها ونقب بعض أبراجها وأخذ المدينة عنوة في ليلة ولجأ من بها إلى القلعة التي لها فامتنعوا بها ، وفيها صاحبتها ومعها أولادها ، فنهب المدينة وأحرقها ، فلما سمع الفرنج بنزول صلاح الدين إلى طبريّة ، وملكه المدينة وأخذ ما فيها وإحراقها وإحراق ما تخلف مما لايحمل اجتمعوا للمشورة ، فأشار بعضهم بالتقدّم إلى المسلمين وقتالهم ومنعهم عن طبريّة ، فقال القمّص : إن طبريّة لي ولزوجتي ، وقد فعل صلاح الدين بالمدينة ما فعل وبقي القلعة وفيها زوجتي وقد رضيت أن يأخذ القلعة وزوجتي ومالنا بها ويعود، فوالله لقد رأيت عساكر الإسلام قديمًا وحديثًا ما رأيت مثل هذا العسكر الذي مع صلاح الدين كثرة وقوة ، وإذا أخذ طبريّة لايمكنه المقام بها ، فمتى فارقنا وعاد عنها أخذناها ، وإن أقام بها لايقدر على المقام بها إلا بجميع عساكره ، ولايقدرون على الصبر طول الزمان عن أوطانهم وأهليهم ، فيضطر إلى تركها ، ونفتك من أسر منا ، فقال له برنس أرناط صاحب الكرك : قد أطلت في التخويف من المسلمين ، ولاشك أنك تريدهم وتميل إليهم ، وإلا ما كنت تقول هذا ، وأمّا قولك إنهم كثيرون ، فإن النار لايضرّها كثرة الحطب ، فقال : أنا واحد منكم إ

تقدمتم تقدّمت ، وإن تأخّرتم تأخّرت ، وسترون ما يكون ، فقوي عزمهم على التقدّم إلى المسلمين وقتالهم ، فرحلوا من معسكرهم الذي لزموه وقربوا من عساكر الإسلام .

فلمّا سمع صلاح الدين بذلك عاد عن طبريّة إلى عسكرة ، وكان قريبًا منه ، وإنما كان قصده بمحاصرة طبريّة أن يفارق الفرنج مكانهم ليتمكن من قتالهم ، وكان المسلمون قد نزلوا على الماء ، والزّمان قيظٌ شديدُ الحرّ ، فوجد الفرنج العطش ولم يتمكنوا من الوصول إلى ذلك الماء من المسلمين وكانوا قد أفنوا ما هناك من ماء الصهاريج ، ولم يتمكنوا من الرجوع خوفًا من المسلمين ، فبقوا على حالهم إلى الغد وهو يوم السبت ، وقد أخذ العطش منهم ، وأمّا المسلمون ، فإنهم طمعوا فيهم ، وكانوا من قبل يخافونهم ، فباتوا يحرّض بعضهم بعضا ، وقد وجدوا ريح النصر والظفر ، وكلما رأوا حال الفرنج خلاف عادتهم ممّا ركبهم من الخذلان زاد طمعهم وجرأتهم ، فأكثروا التكبير والتهليل طول ليلتهم ، ورتب السلطان تلك الجاليشية ، وفرّق فيهم النشاب .

ذكر انهزام الفرنج بحطين

اصبح صلاح الدين والمسلمون يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخر، فركبوا وتقدموا ، إلى الفرنج ، فركب الفرنج ، ودنا بعضهم من بعض إلا أن الفرنج قد اشتد بهم العطش ، وانخذلوا ، فاقتتلوا واشتد القتال ، وصبر الفريقان ، ورمى جاليشية المسلمين من النشاب ما كان

www.alkottob.com

كالجراد المنتشر ، فقتلوا من خيول الفرنج كثيرًا هذا القتال بينهم ، والفرنج قد جمعوا نفوسهم براجلهم ، وهو يقاتلون سائرين نحو طبريّة لعلهم يردون الماء فلما علم صلاح الدين مقصدهم صدّهم عن مرادهم ، ووقف بالعسكر في وجوههم ، وطاف بنفسه على المسلمين يحرضهم ، ويأمرهم بما يصلحهم ، وينهاهم عما يضرهم ، والناس يأتمرون لقوله ويقفون عند نهيه ، فحمل مملوك من مماليكه الصبيان حملة منكرة على صف الفرنج فقاتل قتالا عجب منه الناس ، ثم تكاثر الفرنج عليه فقتلوه ، فحين قتل حمل المسلمون حملة منكرة ضعضعوا الكفار ، وقتلوا منهم كثيرًا ، فلما رأى القمّص شدّة الأمر علم أنهم لاطاقة لهم بالمسلمين ، فاتفق هو وجماعة وحملوا على من يليهم وكان المقدم من المسلمين في تلك الناحية تقي الدين عمر ابن اخي صلاح الدين ، فلما رأى حملة الفرنج حملة مكروب علم أنه لاسبب إلا الوقوف في وجوههم ، فأمر أصحابه أن يفتحوا لهم طريقًا يخرجون منه ، وكان بعض المتطوعة قد ألقى في تلك الأرض نارًا ، وكان الحشيش كثيرًا ، فاحترق وكانت الريح ، فحمل حرّ النار والدخان إليهم ، فاجتمع عليهم العطش وحرّ الزمان وحرّ النار والدخان وحر القتال ، فلمّا انهزم القمّص سقط في أيديهم ، وكادوا يستسلمون ثم علموا أنهم لاينجيهم من الموت إلا الإقدام عليه ، فحملوا حملات متداركة كادوا يزيلون المسلمين على كثرتهم عن مواقفهم لولا لطف الله بهم ، إلا أن الفرنج لايحملون حملة ، فيرجعون إلا وقد قتل منهم ، فوهنوا وهنًا عظيمًا ، فأحاط بهم المسلمون إحاطة الدائرة بقطرها

فارتفع من بقي من الفرنج إلى تلٍّ بناحية حطين، وأرادوا أن ينصبوا خيامهم ويحموا نفوسهم به ، فاشتد القتال عليهم من سائر الجهات ، ومنعوهم عما أرادوا ، ولم يتمكنوا من نصب خيمة غير خيمة ملكهم لا غير ، وأخذ المسلمون صليبهم الأعظم الذي يسمونه صليب الصلبوت ، ويذكرون أنَّ فيه قطعة من الخشبة التي صلب عليها المسيح عليه السلام بزعمهم ، فكان أخذه عندهم من أعظم المصائب عليهم، وأيقنوا بعده بالقتل والهلاك ، هذا والقتل والأسر يعملان في فرسانهم ورجالتهم ، فبقي الملك على التلّ في مقدار مائة وخمسين فارسًا من الفرسان المشهورين والشجعان المذكورين .

فحكي لي عن الملك الأفضل ولد صلاح الدين ، قال : كنت إلى جانب أبي في ذلك المصاف وهو أول مصاف شاهدته ، فلما صار ملك الفرنج على التلّ في تلك الجماعة حملوا حملة منكرة على من بإزائهم من المسلمين حتى الحقوهم بوالدي . قال : فنظرت إليه وقد علته كآبة واربدَّ لونه وأمسك بلحيته وتقدّم وهو يصيح : كذب الشيطان ، قال : فعاد المسلمون على الفرنج ، فرجعوا فصعدوا إلى التل ، فلما رأيت الفرنج قد عادوا والمسلمون يتبعونهم صحت من فرحي هزمناهم ، فعاد الفرنج ، فحملوا حملة ثانية مثل الأولى ألحقوا المسلمين بوالدي ، وفعل مثل ما فعل أولاً ، وعطف المسلمون عليهم فألحقوهم بالتل ، فصحت أنا أيضًا هزمناهم ، فالتفت والدي إليّ وقال : اسكت ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة ، قال : فهو يقول لي وإذا الخيمة قد سقطت فنزل السلطان وسجد شكرًا لله تعالى ، فبكى من فرحه .

www.alkottob.com

وكان سبب سقوطها أن الفرنج لما حملوا تلك الحملات ازدادوا عطشًا، وقد كانوا يرجون الخلاص في بعض تلك الحملات مما هم فيه ، فلم يجدوا إلى الخلاص طريقًا ، فنزلوا عن دوابهم وجلسوا على الأرض ، فصعد المسلمون إليهم فألقوا خيمة الملك ، وأسروهم عن بكرة أبيهم ، وفيهم الملك وأخوه والبرنس أرباط صاحب الكرك ، ولم يكن في الفرنج أشدّ منه عداوة للمسلمين ، وأسروا أيضًا صاحب جبيل وابن هنفري ومقدم الداوية ، وكان من أعظم الفرنج شأنًا ، وأسروا أيضًا جماعة من الداوية ، وجماعة من الإسبتارية ، وكثر القتل والأسر فيهم ، فكان من يرى القتلى لايظن أنهم أسروا واحدًا ، ومن يرى الأسرى لايظنّ أنهم قتلوا واحدًا ، وما أصيب الفرنج منذ خرجوا إلى الساحل وهو سنة إحدى وتسعين وأربعمائة إلى الآن بمثل هذه الوقعة .

فلما فرغ المسلمون منهم نزل صلاح الدين في خيمته وأحضر ملك الفرنج عنده وبرنس صاحب الكرك ، وأجلس الملك إلى جانبه وقد أهلكه العطش فسقاه ماء مثلوجا ، فشرب وأعطى فضله برنس صاحب الكرك ، فشرب ، فقال صلاح الدين : إن هذا الملعون لم يشرب الماء بإذني فينال أماني ، ثم كلم البرنس وقرّعه بذنوبه وعدّد عليه عوراته ، وقام إليه بنفسه فضرب رقبته ، وقال : كنت نذرت دفعتين أن أقتله إن ظفرت به ، إحداهما لما أراد المسير إلى مكة والمدينة ، والثانية لما أخذ القفل غدرًا ، فلما قتله ، وسُحب وأُخرج ، ارتعدت فرائص الملك ، فَسكّن جأشه وأمنه، وأما القمص صاحب طرابلس ، فإنه لما نجا من المعركة - كما ذكرناه - وصل إلى صور ، ثم قصد طرابلس ولم يلبث إلا أياما قلائل حتى مات غيظًا وحنقًا مما جرى على الفرنج خاصة وعلى دين النصرانية عامة.

ذكر عود صلاح الدين إلى طبرية وملك قلعتها مع المدينة

لما فرغ صلاح الدين من هزيمة الفرنج أقام بموضعه باقي يومه ، وأصبح يوم الأحد عاد إلى طبريّة ونازلها ، فأرسلت صاحبتها تطلب الأمان لها ولأولادها وأصحابها ومالها فأجابها إلى ذلك فخرجت بالجميع فوفّى لها فسارت آمنة ، ثمّ أمر بالملك وجماعة من أعيان الأسرى ، فأرسلوا إلى دمشق وأمر بمن أسر من الداوية والاسبتارية أن يجمعوا ليقتلهم ثم علم أن من عنده أسير لايسمح به لما يرجو من فدائه ، فبذل في كل أسير من هذين الصنفين خمسين دينارًا مصريّة فأحضر عنده في الحال مائتا أسير ، فأمر بهم فضربت أعناقهم ، وإنما خصّ هؤلاء بالقتل لأنهم أشدّ شوكة من جميع الفرنج ، فأراح الناس من شرّهم ، وكتب إلى نائبه بدمشق ليقتل من دخل البلد منهم سواء كان له أو لغيره ، ففعل ذلك ، ولقد اجتزت بموضع الوقعة بعدها بنحو سنة ، فرأيت الأرض ملأى من عظامهم تبين على البعد منها المجتمع بعضه على بعض ، ومنها المفترق هذا سوى ما جحفته السيول وأخذته السباع في تلك الآكام والوهاد.

www.alkottob.com

ذكر فتح مدينة عكا

لما فرغ صلاح الدين من طبريّة سار عنها يوم الثلاثاء ، ووصل إلى عكّا يوم الأربعاء ، وقد صعد أهلها على سورها يظهرون الامتناع والحفظ، فعجب هو والناس من ذلك لأنّهم علموا أنّ عساكرهم من فارس وراجل بين قتيل وأسير ، وأنهم لم يسلم منهم إلا القليل إلا أنه نزل يومه وركب يوم الخميس ، وقد صمّم على الزحف إلى البلد وقتاله ، فبينما هو ينظر من أين يزحف ويقاتل إذ خرج كثير من أهلها يضرعون ويطلبون الأمان ، فأجابهم إلى ذلك ، وأمنهم على أنفسهم وأموالهم وخيّرهم بين الإقامة والظعن ، فاختاروا الرحيل خوفًا من المسلمين ، وساروا عنها متفرقين ، وحملوا ما أمكنهم حمله من أموالهم ، وتركوا الباقي على حاله، ودخل المسلمون إليها يوم الجمعة مستهل جمادى الأولى ، وصلّوا بها الجمعة في جامع كان للمسلمين قديمًا ، ثم جعله الفرنج بيعة ثمّ جعله صلاح الدين جامعًا . وهذه الجمعة أوّل جمعة أقيمت بالساحل الشامي بعد أن ملكه الفرنج وسلم البلد إلى ولده الأفضل ، وأعطى جميع ما كان فيه للداوية من أقطاع وضياع وغير ذلك للفقيه عيسى ، وغنم المسلمون ما بقي ممّا لم يطق الفرنج حمله ، وكان من كثرته يعجز الإحصاء عنه ، فرأوا فيها من الذهب والجوهر والسقلاط والبندقي والشكر والسلاح وغير ذلك من أنواع الأمتعة كثيرًا ، فإنّها كانت مقصدًا للتجار الفرنج والروم وغيرهم من أقصى البلاد وأدناها ، وكان كثير منها قد خزنه التجار ، وسافروا عنه لكساده ، فلم يكن له من ينقله ، ففرّق صلاح الدين وابنه

الأفضل ذلك جميعه على أصحابهما ، وأكثر ذلك فعله الأفضل لأنه كان مقيمًا بالبلد ، وكان شيمته في الكرم معروفة ، وأقام صلاح الدين بعكا عدة أيام لإصلاح حالها وتقرير قواعدها .

ذكر فتح مجدل يابا

لما هزم صلاح الدين الفرنج أرسل إلى أخيه العادل بمصر يبشره بذلك ويأمره بالمسير إلى بلاد الفرنج من جهة مصر بمن بقي عنده من العسكر ومحاصرة ما يليه منها ، فسارع إلى ذلك وسار عن مصر ، فنازل حصن مجدل يابا وحصره وغنم ما فيه ، وردّ كتابه بذلك إلى صلاح الدين ، وكانت بشارة كبيرة .

ذكر فتح عدة حصون

في مدة مقام صلاح الدين بعكا تفرق عسكره إلى الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا والشقيف والفولة وغيرها من البلاد المجاورة لعكا، فملكوها ونهبوها ، وأسروا رجالها وسبوا نساءها وأطفالها ، وقدموا من ذلك بما سدّ الفضاء وسيّر تقي الدين ، فنزل على تبنين ليقطع الميرة عنها وعن صور ، وسيّر حسام الدين عمر بن لاجين في عسكر إلى نابلس ، فأتى سبسطية وبها قبر زكريا ، فأخذه من أيدي النصارى ، وسلمه إلى المسلمين ووصل إلى نابلس فدخلها وحصر قلعتها ، واستنزل من فيها بالأمان وتسلم القلعة وأقام أهل البلد به وأقرهم على أملاكهم وأموالهم .

www.alkottob.com

ذكر فتح يافا

لما خرج العادل من مصر وفتح مجدل يابا - كما ذكرنا - سار إلى مدينة يافا وهي على الساحل فحصرها وملكها عنوة ونهبها وأسر الرجال وسبى الحريم ، وجرى على أهلها ما لم يجر على أحد من أهل تلك البلاد ، وكان عندي جارية من أهلها وأنا بحلب ، ومعها طفل غمره نحو سنة فسقط من يدها ، فانسلخ وجهه فبكت عليه كثيرًا ، فسكتتها واعلمتها أنه ليس بولدها ما يوجب البكاء ، فقالت ماله أبكي إنما أبكي لما جرى علينا ، كان لي ستة إخوة كلهم هلكوا جميعهم ، وزوج واختان لا اعلم ما كان منهم هذا من امرأة واحدة ، والباقي بالنسبة ورأيت بحلب امرأة فرنجية قد جاءت مع سيدها إلى باب فطرقه سيدها ، فخرج صاحب البيت فكلمهم ، ثم أخرج امرأة فرنجية ، فحين رأتها الأخرى صاحتا واعتنقتا ، وهما يصرخان ويبكيان ، وسقطتا إلى الأرض ، ثم قعدتا يتحدثان وإذا هما اختان ، وكان لهما عدة من الأهل ليس لهما علم بأحد منهم .

ذكر فتح تبنين وصيدا وجبيل وبيروت

فأما تبنين فقد ذكرنا انفاذ صلاح الدين تقي الدين ابن أخيه إلى تبنين، فلمّا وصلها نازلها وأقام عليها ، فرأى حصرها لايتم إلا بوصول عمه صلاح الدين إليه ، فأرسل إليه يعلمه الحال ويحثه على الوصول إليه ، فرحل ثامن جمادى الأولى ، ونزل عليه حادي عشرة فحصرها وضايقها وقاتلها بالزحف ، وهي من القلاع المنيعة على جبل ، فلما ضاق

عليهم الأمر واشتدّ الحصر أطلقوا مَنْ عندهم مِنْ أسرى المسلمين وهم زيدون على مائة رجل ، فلما دخلوا العسكر أحضرهم صلاح الدين وكساهم وأعطاهم نفقة وسيَّرهم إلى أهليهم ، وبقي الفرنج كذلك خمسة أيام ثمّ أرسلوا يطلبون الأمان ، فأمّنهم على أنفسهم ، فسلموها إليه ووفى لهم ، وسيّرهم إلى مأمنهم .

وأما صيدا فإنّ صلاح الدين لما فرغ من تبنين رحل عنها إلى صيدا ، فاجتاز في طريقه بصرفند فأخذها صفوا عفوا بغير قتال ، وسار عنها إلى صيدا وهي من مدن الساحل المعروفة ، فلما سمع صاحبها بمسيره نحوه سار عنها وتركها فارغة من مانع ومدافع ، فلما وصلها صلاح الدين تسلمها ساعة وصوله ، وكان ملكها لتسع بقين من جمادى الأولى .

وأما بيروت فهي من أحصن مدن الساحل وأنزهها وأطيبها ، فلما فتح صلاح الدين صيدا سار عنها من يومه نحو بيروت ، ووصل إليها من الغد ، فرأى أهلها قد صعدوا على سورها ، وأظهروا القوَّة والجلد والعدد وقاتلوا على سورها قتالاً شديدًا ، واغتروا بحصانة البلد ، وظنوا أنهم قادرون على حفظه ، وزحف المسلمون إليهم مرة بعد مرة ، فبينما الفرنج يقاتلون إذ سمعوا من البلد جلبة عظيمة وغلبة زائدة ، فأتاهم من أخبرهم ان البلد قد دخله المسلمون من الناحية الأخرى قهرًا وغلبة ، فأرسلوا ينظرون ما الخبر ، وإذا ليس له صحة ، فأرادوا تسكين من به فلم يمكنهم ذلك لكثرة ما اجتمع فيه من السواد ، فلما خافوا على أنفسهم من

www.alkottob.com

الاختلاف الواقع أرسلوا يطلبون الأمان ، فـأمنهم على أنفسهم وأموالهم ، وتسلمها في التاسع والعشرين من جمادى الأولى من السنة ، فكان مدة حصرها ثمانية أيام ، وأما جبيل فإن صاحبها كان من جملة الأسرى الذين سيروا إلى دمشق مع ملكهم ، فتحدث مع نائب صلاح الدين بدمشق في تسليم جديد على شرط إطلاقه فعرف صلاح الدين بذلك، فأحضره مقيّدًا عنده تحت الاستظهار والاحتياط ، وكان العسكر حينئذ على بيروت ، فسلم حصنه وأطلق اسرى المسلمين الذين به ، وأطلقه صلاح الدين كما شرط له ، وكان هذا صاحب جبيل من أعيان الفرنج ، وأصحاب الرأي والمكر والشر به يضرب المثل بينهم ، وكان للمسلمين منه عدو أزرق ، وكان إطلاقه من الأسباب الموهنة للمسلمين على ما يأتي بيانه.

ذكر خروج المركيش إلى صور

لما انهزم القمص صاحب طرابلس من حطين إلى مدينة صور ، فأقام بها وهي أعظم بلاد الشام حصانة وأشد امتناعا على من رامها ، فلما رأى السلطان قد ملك تبنين وصيدا وبيروت خاف أن يقصد صلاح الدين صور وهي فارغة ممن يقاتل فيها ويحميها ويمنعها ، فلا يقوى على حفظها ، وتركها وسار إلى مدينة طرابلس ، فبقيت صور شاغرة لا مانع لها ولا عاصم من المسلمين ، فلو بدأ بها صلاح الدين قبل تبنين وغيرها لأخذها بغير مشقة لكنه استعظمها لحصانتها فأراد أن يفرغ باله مما يجاورها من

نواحيها ليسهل أخذها ، فكان ذلك سبب حفظها ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾[1] واتفق أن إنسانًا من الفرنج الذين داخل البحر يقال له المركيش لعنه الله خرج في البحر بمال كثير للزيارة والتجارة ولم يشعر بما كان من الفرنج فأرسى بعكا وقد رابه ما رأى من ترك عوائد الفرنج عند وصول المراكب من الفرح ، وضرب الأجراس وغير ذلك وما رأى أيضًا من زي أهل البلد ، فوقف ولم يدر ما الخبر ، وكانت الريح قد ركدت ، فأرسل الملك الأفضل إليه بعض أصحابه في سفينة يبصر من هو ومن يريد ، فأتاه القاصد ، فسأله المركيش عن الأخبار لما أنكره فأخبره بكسرة الفرنج وأخذ عكا وغيرها ، وأعلمه أن صور بيد الفرنج وعسقلان وغيرها، وحكى الأمر له على وجهه ، فلم يمكنه الحركة لعدم الريح ، فردّ الرسول يطلب الأمان ليدخل البلد بما معه من متاع ومال ، فأجيب إلى ذلك ، فردّده مرارا كل مرة يطلب شيئًا لم يطلبه في المرة الأولى وهو يفعل ذلك انتظارا لهبوب الهواء ليسير به ، فبينما هو في مراجعاته اذهبت الريح ، فسار نحو صور ، وسيّر الملك الأفضل الشواني في طلبه ، فلم يدركوه ، فأتى صور وقد اجتمع بها من الفرنج خلق كثير لأن صلاح الدين كان كلما فتح مدينة من عكا وبيروت وغيرهما مما ذكرنا أعطى أهلها الأمان ، فساروا كلهم إلى صور ، وكثر الجمع بها ، إلا أنهم ليس لهم رأس يجمعهم ولا مقدّم يقاتل بهم ، وليسوا أهل حرب ، وهم عازمون على

(١) سورة الأحزاب ٣٨ .

www.alkottob.com

مراسلة صلاح الدين وتسليم البلد إليه ، فأتاهم المركيش وهم على ذلك العزم ، فردهم عنه وقوى نفوسهم وضمن لهم حفظ المدينة ، وبذل ما معه من الأموال ، وشرط عليهم أن تكون المدينة وأعمالها له دون غيره ، فأجابوه إلى ذلك ، فأخذ أيمانهم عليه وأقام عندهم ودبَّر أحوالهم ، وكان من شياطين الإنس حسن التدبير والحفظ له شجاعة عظيمة ، وشرع في تحصينها ، فجدد حفر خنادقها وعمل أسوارها وزاد في حصانتها ، وافق من بها على الحفظ والقتال دونها .

ذكر فتح عسقلان وما يجاورها

لما ملك صلاح الدين بيروت وجبيل وغيرهما كان أمر عسقلان والقدس أهم عنده لأسباب منها : أنهما على طريق مصر يقطع بينهما وبين الشام ، وكان يختار أن تتصل الولايات له ليسهل خروج العسكر منها ودخولهم إليها ولما في فتح القدس من الذكر الجميل والصيت العظيم إلى غير ذلك من الأغراض ، فسار عن بيروت نحو عسقلان ، واجتمع بأخيه العادل ومن معه من عساكر مصر ، ونازلوها يوم الأحد سادس عشر جمادى الآخرة ، وكان صلاح الدين قد أحضر ملك الفرنج ومقدم الداوية إليه من دمشق وقال لهما : إن سلمتما البلاد إليَّ فلكما الأمان فأرسلا إلى من بعسقلان من الفرنج يأمرانهم بتسليم البلد ، فلم يسمعوا أمرهما، وردوا عليهما أقبح رد وجبهوهما بما يسوءهما فلما رأى السلطان وذلك جد في قتال المدينة ونصب المنجنيقات عليها مرة أخرى وتقدَّم النقابون إلى

الصور ، فنالوا من باشورته شيئًا ، هذا وملكهم يكرر المراسلات إليهم بالتسليم ، ويشير عليهم ويعدهم أنه إذا أطلق من الأسر أضرم البلاد على المسلمين نارًا ، واستنجد بالفرنج من البحر ، وأجلب الخيل والرجل من أقاصى بلاد الفرنج وأدانيها ، وهم لايجيبون إلى ما يقول ولايسمعون ما يشير به ، ولما رأوا أنهم كل يوم يزدادون ضعفًا ووهنًا وإذا قتل منهم الرجل لايجدون له عوضًا ولا لهم نجدة ينتظرونها ، راسلوا صلاح الدين في تسليم البلد على شروط اقترحوها ، فأجابهم صلاح الدين إليها ، وكانوا قتلوا في الحصار أميرًا كبيرًا من المهرانيّة ، فخافوا عند مفارقة البلد أن عشيرته يقتلون منهم بثأره ، فاحتاطوا فيما اشترطوا لأنفسهم ، فأجيبوا إلى ذلك جميعه وسلَّموا المدينة سلخ جمادى الآخرة من السنة ، وكانت مدة الحصار أربعة عشر يومًا وسيَّرهم صلاح الدين ونساءهم وأموالهم وأولادهم إلى بيت المقدس ووفى لهم بالأمان .

ذكر فتح البلاد والحصون المجاورة لعسقلان

لما فتح صلاح الدين عسقلان أقام بظاهرها وبثّ السرايا في أطراف البلاد المجاورة لها ففتحوا الرملة والداروم وغزة ومشهد إبراهيم الخليل عليه السلام وتبنين وبيت لحم وبيت جبريل والنطرون وكل ما كان للداوية .

ذكر فتح البيت المقدس

لما فرغ صلاح الدين من أمر عسقلان وما يجاورها من البلاد على ما تقدم ، وكان قد أرسل إلى مصر أخرج الأسطول الذي بها في جمع من

www.alkottob.com

المقاتلة ومقدمهم حسام الدين لؤلؤ الحاجب وهو معروف بالشجاعة والشهامة ويمن النقيبة ، فأقاموا في البحر يقطعون الطريق على الفرنج ، كلما رأوا لهم مركبا غنموه وشانيا أخذوه ، فحين وصل الأسطول وخلا سره من تلك الناحية سار عن عسقلان إلى البيت المقدس ، وكان به البطرك المعظم عندهم وهو أعظم شأنا من ملكهم وبه أيضًا باليان بن بيرزان صاحب الرملة ، وكانت مرتبته عندهم تقارب مرتبة الملك ، وبه أيضًا من خلص أيضًا من فرسانهم من حطين ، وقد جمعوا وحشدوا واجتمع أهل تلك النواحي عسقلان وغيرها ، فاجتمع به كثير من الخلق كلهم يرى الموت أيسر عليه من أن يملك المسلمون البيت المقدس ، ويأخذوه منهم ويرى أن بذل نفسه وماله وأولاده بعض ما يجب عليه من حفظه ، وحصنوه تلك الأيام بما وجدوا إليه سبيلا وصعدوا على سوره بحدّهم وحديدهم مجتمعين على حفظه والذب عنه بجهدهم وطاقتهم مظهرين العزم على المناضلة دونه بحسب استطاعتهم ، ونصبوا المنجنيقات ليمنعوا من يريد الدنو منه والنزول عليه ، ولما قرب صلاح الدين منه نادى أمير في جماعة عن أصحابه غير محتاط ولا حذر ، فلقيه جمع من الفرنج قد خرجوا من القدس ليكونوا يزكا ، فقاتلوه وقاتلهم ، فقتلوه وقتلوا جماعة ممن معه ، فأهم المسلمين قتله ، وفجعوا بفقده وساروا حتى نزلوا على القدس منتصف رجب ، فلمّا نزلوا عليه رأى المسلمون على سوره من الرجال ما هالهم ، وسمعوا لأهله من الغلبة والضجيج من وسط المدينة ما استدلوا به على كثرة الجمع .

وبقي صلاح الدين خمسة أيّام يطوف حول المدينة لينظر من أين يقاتله لأنه في غاية الحصانة والامتناع ، فلم يجد عليه موضع قتال إلا من جهة الشمال نحو باب عمود أو كنيسة صهيون ، فانتقل إلى هذه الناحية في العشرين من رجب ونزلها ، ونصب تلك الليلة المنجنيقات ، فأصبح من الغد وقد فرغ من نصبها ورمى بها ، ونصب الفرنج على سور البلد منجنيقات ورموا بها وقوتلوا أشدَّ قتال رآه أحد من الناس كل واحد من الفريقين يرى ذلك دينًا وحتمًا واجبًا ، فلا يحتاج فيه إلى باعث سلطاني بل كانوا يمنعون ولايمتنعون ، ويزجرون ولاينتزجرون ، وكان خيالة الفرنج كل يوم يخرجون إلى ظاهر البلد يقاتلون ويبارزون ، فيقتل من الفريقين ، وممن استشهد من المسلمين الأمير عز الدين عيسى بن مالك ، وهو من أكابر الأمراء ، وكان أبوه صاحب قلعة جعبر ، وكان يصطلي القتال بنفسه كل يوم فقتل إلى رحمة الله تعالى ، وكان محبوبا إلى الخاص والعام ، فلمّا رأى المسلمون مصرعه عظم عليهم ذلك وأخذ من قلوبهم ، فحملوا حملة رجل واحد ، فأزالوا الفرنج عن مواقفهم ، فادخلوهم بلدهم ، ووصل المسلمون إلى الخندق ، فجاوزوه والتصقوا إلى السور ، فنقبوه ، وزحف الرماة يحمونهم ، والمنجنيقات توالي الرمي لتكشف الفرنج عن الأسوار ليتمكّن المسلمون من النقب ، فلما نقبوه حشوه بما جرت به العادة ، فلما رأى الفرنج شدة قتال المسلمين ، وتحكُّم المنجنيقات بالرمي المتدارك ، وتمكُّن النقابين من النقب ، وأنَّهم قد أشرفوا على الهلاك اجتمع مقدموهم يتشاورون فيما يأتون ويذرون ، فاتفق رأيهم

www.alkottob.com

على طلب الأمان وتسليم البيت المقدس إلى صلاح الدين ، فأرسلوا جماعة من كبرائهم وأعيانهم في طلب الأمان ، فلما ذكروا ذلك للسلطان امتنع من إجابتهم ، وقال : لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة من القتل والسبي وجزاء السيئة بمثلها، فلما رجع الرسل خائبين محرومين أرسل باليان بن بيرزان ، وطلب الأمان لنفسه ليحضر عند صلاح الدين في هذا الأمر وتحريره ، فأجيب إلى ذلك وحضر عنده ورغب في الأمان ، وسأل فيه فلم يجبه إلى ذلك ، واستعطفه فلم يعطف عليه واسترحمه فلم يرحمه ، فلما أيس من ذلك ، قال له : أيُّها السلطان اعلم أننا في هذه المدينة في خلق كثير لايعلمهم إلا الله تعالى وإنما يفترون عن القتال رجاء الأمان ظنًا منهم أنك تجيبهم إليه كما اجبت غيرهم ، وهم يكرهون الموت ويرغبون في الحياة ، فإذا رأينا الموت لابد منه فوالله لنقتلن أبناءنا ونساءنا ونحرق أموالنا وامتعتنا ، ولا نتركك تغنمون منها دينارًا واحدًا ولا درهمًا ولاتسبون وتأسرون رجلاً ولا امرأة ، وإذا فرغنا من ذلك اخربنا الصخرة والمسجد الأقصى وغيرهما من الموضع ، ثم نقتل من عندنا من أسارى المسلمين ، وهم خمسة آلاف أسير ، ولا نترك لنا دابة ولا حيوانا إلا قتلناه ، ثم خرجنا إليكم كلنا قاتلناكم قتال من يريد أن يحمي دمه ونفسه ، وحينئذ لايقتل الرجل حتى يقتل أمثاله ونموت أعزاء أو نظفر كراما .

فاستشار صلاح الدين أصحابه ، فاجمعوا على إجابتهم إلى الأمان، وأن لايخرجوا ويحملوا على ركوب ما لايدرى عاقبة الأمر فيه عن أي

شيء تنجلي ، ونحسب أنهم أسارى بأيدينا فنبيعهم نفوسهم بما يستقر بيننا وبينهم ، فأجاب صلاح الدين حينئذ إلى بذل الأمان للفرنج ، فاستقرَّ أن يؤخذ من الرجل عشرة دنانير يستوى فيه الغني والفقير ، ويزن الطفل من الذكور والبنات دينارين ، وتزن المرأة خمسة دنانير ، فمن أدّى ذلك إلى أربعين يومًا فقد نجا ومن انقضت الأربعون يوما عنه ولم يؤد ما عليه ، فقد صار مملوكا ، فبذل باليان بن بيرزان عن الفقراء ثلاثين ألف دينار ، فأجيب إلى ذلك وسلمت المدينة يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب وكان يومًا مشهودًا ورفعت الأعلام الإسلامية على أسواره ، ورتب صلاح الدين على أبواب البلد في كل باب أمينا من الأمراء ليأخذوا من أهله ما استقر عليهم ، فاستعملوا الخيانة ولم يؤدوا فيه أمانة ، واقتسم الأمناء الأموال ، وتفرقت أيدي سبا ولو أديت فيه الأمانة لملأ الخزائن وعمّ الناس فإنه كان فيه والولدان ، ولايعجب السامع من ذلك ، فإن البلد كبير ، واجتمع إليه من تلك النواحي من عسقلان وغيرها والداروم والرملة وغزة وغيرها من القرى بحيث امتلأت الطرق والكنائس ، وكان الإنسان لايقدر أن يمشي ، ومن الدليل على كثرة الخلق أن أكثرهم وأن ما استقر من القطيعة ، واطلق باليان بن بيرزان ثمانية عشر ألف رجل وزن عنهم ثلاثين ألف دينار ، وبقي بعد هذا جميعه من لم يكن معه ما يعطي، وأخذ أسيرا ستة عشرة ألف آدمي ما بين رجل وامرأة وصبي هذا بالضبط واليقين ، ثم إن جماعة من الأمراء ادعى كل واحد منهم من رعية إقطاعه مقيمون بالبيت المقدس ، فيطلقهم ويأخذ هو قطيعتهم .

www.alkottob.com

وكان جماعة من الأمراء يلبسون الفرنج زي الجند المسلمين ويخرجونهم ويأخذون منهم قطيعة قرّرها ، واستوهب جماعة من صلاح الدين عددا من الفرنج فوهبهم لهم ، فأخذوا قطيعتهم ، وبالجملة فلم يصل إلى خزائنه إلا القليل ، وكان بالقدس بعض نساء الملوك من الروم، وقد ترهبت وأقامت به ومعها من الحشد والعبيد والجواري خلق كثير ، ولها من الأموال والجواهر النفيسة شيء عظيم ، فطلبت الأمان لنفسها ومن معها فأمنها وسيّرها ، وكذلك أيضًا أطلق ملكة القدس التي كان زوجها الذي أسره صلاح الدين قد ملك الفرنج بسببها ونيابة عنها كان يقوم بالملك ، وأطلق مالها وحشمها واستأذنته في المصير إلى زوجها ، وكان حينئذ محبوسا بقلعة نابلس ، فأذن لها ، فأتته وأقامت عنده وأتته أيضًا امرأة للبرنس أرناط صاحب الكرك ، وهو الذي قتله صلاح الدين بيده يوم المصاف بحطين ، فشفعت في ولد لها مأسور ، فقال لها صلاح الدين: إن سلمت الكرك أطلقته ، فسارت إلى الكرك فلم يسمع منها الفرنج ولم يسلموه ، فلم يطلق ولدها ، ولكنه أطلق ما لها ومن تبعها ، وخرج البطرك الكبير الذي للفرنج ومعه من أموال البيع منها الصخرة والأقصى وقمامة وغيرها ما لايعلمه إلا الله تعالى ، وكان له من المال مثل ذلك ، فلم يعرض له صلاح الدين ، فقيل له ليأخذ ما معه يقوي به المسلمين ، فقال لا أغدر به ، ولم يأخذ منه غير عشرة دنانير ، وسيَّر الجميع ومعهم من يحميهم إلى مدينة صور وكان على رأس قبة الصخرة صليب كبير مذهب ، فلما دخل المسلمون البلد يوم الجمعة تسلق جماعة

منهم إلى أعلى القبة ليقلعوا الصليب فحين صعدوا صاح الناس كلهم صوتًا واحدًا من البلد ومن ظاهره المسلمون والفرنج ، أما المسلمون فكبروا فرحًا ، وأما الفرنج فصاحوا تفجعًا وتوجعًا ، فسمع الناس صيحة كادت أن تميد بهم لعظمها وشدتها .

فلما ملك البلد وفارقه الكفار أمر صلاح الدين إعادة الأبنية إلى حالها القديم ، فإن الداوية بنوا غربي الأقصى أبنية ليسكنوها ، وعملوا فيها ما يحتاجون إليه من هري ومستراح وغير ذلك ، وادخلوا بعض الأقصى في أبنيتهم ، فأعيد إلى الأول ، وأمر بتطهير المسجد والصخرة من الأقذار ، والأنجاس ، ففعل ذلك أجمع ، ولما كان الجمعة الأخرى رابع شعبان صلى المسلمون فيه الجمعة ومعهم صلاح الدين ، وصلى في قبة الصخرة، وكان الخطيب والإمام محيي الدين بن الزكي قاضي دمشق . ثم رتَّب فيه صلاح الدين خطيبًا وإمامًا برسم الصلوات الخمس ، وأمر أن يعمل له منبر ، فقيل له إن نور الدين محمودًا كان قد عمل بحلب منبرًا أمر الصناع بالمبالغة في تحسينه وإتقانه ، وقال : هذا قد علمناه لينصب بالبيت المقدس، فعمله النجارون في عدّة سنين لم يعمل في الإسلام مثله ، فأمر بإحضاره ، فحمل من حلب ونصب بالقدس ، وكان بين عمل المنبر وحمله ما يزيد على عشرين سنة ، وكان هذا من كرامات نور الدين وحسن مقاصده رحمه الله . ولما فرغ صلاح الدين من صلاة الجمعة تقدّم بعمارة المسجد الأقصى ، واستنفاد الوسع في تحسينه وترصيفه وتدقيق نقوشه ، فأحضروا من الرخام الذي لايوجد ، ومن الفص المذهب

www.alkottob.com

القسطنطيني وغير ذلك مما يحتاجون إليه قد ادخر على طول السنين ، فشرعوا في عمارته ، ومحوا ما كان في تلك الأبنية من الصورة ، وكان الفرنج فرشوا الرخام فوق الصخرة ، وغيبوها فأمر بكشفها ، وكان سبب تغطيتها بالفرش أن القسيسين باعوا كثيراً منها للفرنج ، الواردين إليهم من داخل البحر للزيارة ، يشترونه بوزنه ذهبا رجاء بركتها ، وكان أحدهم إذا دخل إلى بلاده باليسير منها بنى له الكنيسة ، ويجعل في مذبحها ، فخاف بعض ملوكهم أن تفني فأمر بها ففرش فوقها حفظا لها ، فلما كشفت نقل إليها صلاح الدين المصاحف الحسنة والربعات الجيدة ، ورتّب القراء وأدر عليهم الوظائف الكثيرة ! فعاد الإسلام هناك غضّا طريّا ، وهذه المكرمة من فتح البيت المقدس لم يفعلها بعد عمر بن الخطاب * غير صلاح الدين رحمه الله وكفاه ذلك فخرًا وشرفًا ، وأما الفرنج من أهله فإنهم أقاموا وشرعوا في بيع مالا يمكنهم حمله من أمتعتهم وذخائرهم وأموالهم ، وما لايطيقون حمله وباعوا ذلك بأرخص الثمن ، فاشتراه التجار من أهل العسكر واشتراه النصارى من أهل القدس الذين ليسوا من الفرنج ، فإنهم طلبوا من صلاح الدين أن يمكنهم من المقام في مساكنهم ، ويأخذ منهم الجزية ، فأجابهم إلى ذلك فاستقروا ! فاشتروا حينئذ من أموال الفرنج ، وترك الفرنج أيضًا أشياء كثيرة لم يمكنهم بيعها من الأسرة والصناديق والبنيات وغير ذلك وتركوا أيضًا من الرخام الذي لايوجد مثله من الأساطين والألواح ، والفص وغيره شيئًا كثيرًا ثم ساروا .

ذكر رحيل صلاح الدين إلى صور ومحاصرتها

لما فتح صلاح الدين البيت المقدس أقام بظاهره إلى الخامس والعشرين من شعبان يرتب أمور البلد وأحواله وتقدّم بعمل الربط والمدارس ، فجعل دار الاسبتار مدرسة للشافعيّة ، وهي في غاية ما يكون من الحسن ، فلمّا فرغ من أمر البلد سار إلى مدينة صور وكانت قد اجتمع فيها من الفرنج عالم كثير ، وقد صار المركيش صاحبها ، والحاكم فيها ، وقد ساسهم أحسن سياسة ، وبالغ في تحصين البلد ، ووصل صلاح الدين إلى عكا ، وأقام بها أياما ، فلما سمع المركيش بوصوله إليها جدّ في عمل سور صور ، وخنادقها ، وتعميقها ووصلها من البحر إلى البحر من الجانب الآخر ، فصارت المدينة كالجزيرة في وسط الماء لايمكن الوصول إليها ، ولا الدنو منها ، ثم رَحل صلاح الدين من عكّا ، فوصل إلى صور تاسع شهر رمضان ، فنزل على نهر قريب البلد بحيث يراه حتى اجتمع الناس وتلاحقوا وسار في الثاني والعشرين من رمضان ، فنزل على تلّ يقارب سور البلد بحيث يرى القتال ، وقسم القتال على العسكر كل جمع منهم له وقت معلوم يقاتلون منه ، بحيث أن يتصل القتال على أهل البلد ، على أن الموضع الذى يقاتلون منه قريب المسافة يكفيه الجماعة اليسيرة من أهل البلد لحفظه وعليه الخنادق التى قد وصلت من البحر إلى البحر ، فلا يكاد الطير يطير عليها ، فإنّ المدينة كالكف في البحر ، والساعد متصل بالبر ، والبحر من جانبيّ الساعد ، والقتال إنّما هو في الساعد ، فزحف المسلمون مرة بالمنجنيقات والعرادات والجروخ والدبابات .

www.alkottob.com

وكان أهل صلاح الدين يتناوبون القتال مثل ولده الأفضل ، وولده الظاهر غازي ، وأخيه العادل بن أيوب ، وابن اخيه تقي الدين وكذلك سائر الأمراء ، وكان للفرنج شواني وحراقات يركبون فيها في البحر ، ويقفون من جانبي الموضع الذي يقاتل المسلمون منه أهل البلد ، فيرمون المسلمين من جانبهم بالخروج ، ويقاتلونهم ، وكان ذلك يعظم عليهم لأن أهل البلد يقاتلونهم من بين أيديهم ، وأصحاب الشواني يقاتلونهم من جانبيهم ، فكانت سهامهم تنفذ من أحد الجانبين إلى الجانب الآخر لضيق الموضع ، فكثر الجراحات في المسلمين والقتل ، ولم يتمكنوا من الدنو إلى البلد ، فأرسل صلاح الدين إلى الشواني التي جاءته من مصر وهي عشر قطع ، وكانت بعكّا فأحضرها برجالها ومقاتلتها عندها ، وكانت في البحر تمنع شواني أهل صور من الخروج إلى قتال المسلمين ، فتمكّن المسلمون حينئذ من القرب من البلد ومن قتاله ، فقاتلوه براً وبحراً ، وضايقوا حتى كادوا يظفرون فجاءت الأقدار لما لم يكن في الحساب ، وذلك أن خمس قطع من شواني المسلمين باتت في بعض تلك الليالي مقابل صور ليمنعوا من الخروج منه والدخول فيه ، فباتوا ليلتهم يحرسون، وكان مقدمهم عبد السلام المغربي الموصوف بالحذق في صناعته وشجاعته فلما كان وقت السحر أمنوا فناموا ، فما شعروا إلا بشواني الفرنج قد نازلتهم وضايقتهم ، فأوقعت بهم ، فقتلوا من أرادوا قتله ، وأخذوا الباقين بمراكبهم وأدخلوهم مينا صور ، والمسلمون في البر ينظرون إليهم ، ورمى جماعة من المسلمين أنفسهم من الشواني في البحر فمنهم من سبح فنجا ومنهم من غرق .

وتقدم السلطان إلى الشواني الباقية بالمسير إلى بيروت لعدم انتفاعه بها لقلتها ، فسارت فتبعها شواني الفرنج ، فحين رأى من في شواني المسلمين الفرنج مجدين في طلبهم ألقوا نفوسهم في شوانيهم إلى البر ، فنجوا وتركوها فأخذها صلاح الدين ونقضها ، وعاد إلى مقاتلة صور في البر ، وكان ذلك قليل الجدوى لضيق المجال ، وفي بعض الأيام خرج الفرنج ، فقاتلوا المسلمين من وراء خنادقهم ، فاشتدّ القتال بين الفريقين ، ودام إلى آخر النّهار ، وكان خروجهم قبل العصر ، وأسر منهم فارس كبير مشهور بعد أن كثر القتال والقتل عليه من الفريقين لما سقط ، فلما أسر قتل ، وبقوا ذلك عدة أيام .

ذكر الرحيل عن صور إلى عكا وتفريق العساكر

لما رأى صلاح الدين أن أمر صور يطول رحل عنها ، وهذه كانت عادته متى ثبت البلد بين يديه ضجر منه ، ومن حصاره ، فرحل عنه ، وكان هذه السنة لم يطل مقامه على مدينة ، بل فتح الجميع في الأيّام القريبة - كما ذكرناه - بغير تعب ولا مشقة ، فلما رأى هو وأصحابه شدّة أمر صور ملوها وطلبوا الانتقال عنها ولم يكن لأحد ذنب في أمرها غير صلاح الدين ، فإنه هو جهّز إليها جنود الفرنج ، وأمدها بالرجال والأموال من أهل عكّا وعسقلان والقدس وغير ذلك - كما سبق ذكره - كان يعطيهم الأمان ويرسلهم إلى صور ، فصار فيها فرسان الفرنج بالساحل بأموالهم وأموال التجار وغيرهم ، فحفظوا المدينة ، وراسلوا

www.alkottob.com

الفرنج داخل البحر يستمدونهم ، فأجابوهم بالتلبية لدعوتهم ، ووعدوهم بالنصرة وأمروهم بحفظ صور لتكون دار هجرتهم يحتمون بها ويلجؤون إليها فزادهم ذلك حرصا على حفظها والذب عنها ، وسنذكر إن شاء الله ما صار إليه الأمر بعد ذلك ليعلم أن الملك لاينبغي أن يترك الحزم ، وإن ساعدته الاقدار ، فلأن يعجز حازما خير له من أن يظفر مفرطًا مضيعًا للحزم ، وأعذر له عند الناس .

ولما أراد الرحيل استشار أمراءه ، فاختلفوا فجماعة يقولون : الرأي أن يرحل ، فقد جرح الرجال وقتلوا وملوا وفنيت النفقات ، وهذا الشتاء قد حضر والشوط بطين ، فنريح ونستريح في هذا البرد ، فإذا جاء الربيع اجتمعنا وعاودناها وغيرها ، وكان هذا قول الأغنياء منهم وكأنهم خافوا أن السلطان يقترض منهم ما ينفقه في العسكر ، إذا أقام لخلو الخزائن وبيوت الأموال من الدرهم والدينار ، فإنه كان يخرج كل ما حمل إليه منها ، وقالت الطائفة الأخرى : الرأي أن نصابر البلد ونضايقه ، فهو الذي يعتمدون عليه من حصونهم ، ومتى أخذناه منهم انقطع طمع من داخل البحر من هذا الجانب ، وأخذنا باقي البلاد صفوا ، فبقي صلاح الدين مترددًا بين الرحيل والإقامة ، فلما رأى من يرى الرحيل إقامته اخل بما ردّ إليه من المحاربة والرمي بالمنجنيق ، واعتذروا بجراح رجالهم ، وانهم قد أرسلوا بعضهم ليحضروا نفقاتهم والعلوفات لدوابهم والأقوات لهم إلى ذلك من الأعذار ، فصاروا مقيمين بغير قتال ، فاضطر إلى الرحيل ، فرحل عنها آخر شوال ، وكان أول كانون الأول إلى عكا .

فأذن العساكر جميعها بالعود إلى أوطانهم ، والاستراحة في الشتاء ، والعود في الربيع ، فعادت عساكر الشرق والموصل وغيرها وعساكر الشام وعساكر مصر ، وبقي حلقته الخاص مقيما بعكا ، فنزل بقلعتها ورد أمر البلد إلى عز الدين جورديك وهو من أكابر المماليك النورية ، جمع الديانة والشجاعة وحسن السيرة .

ذكر فتح هونين

لما فتح صلاح الدين تبنين [١] امتنع من بهونين [٢] من تسليمها ، وهي من أحصن القلاع وأمنع ؛ فلم ير التعريج عليها ، ولا الاشتغال بمحاصرتها بل سيّر إليها جماعة من العسكر والأمراء ، فحصروها ومنعوا من حمل الميرة إليها ، واشتغل - بما تقدم ذكره من فتح عسقلان والبيت المقدس وغير ذلك - فلما كان يحاصر مدينة صور أرسل من فيها يطلبون الأمان ، فأمنهم ، فسلموا ونزلوا منها ، فوفي لهم بأمانهم .

ذكر حصر صفد وكوكب والكرك

لما سار صلاح الدين إلى عسقلان جعل على قلعة كوكب ، وهي مطلة على الأردن من يحصرها ، ويحفظ الطريق للمجتازين ، لئلا ينزل

(١) تبنين : بلدة في جبال بني عامر المطلّة على بلد بانياس بين دمشق وصور .
(٢) هونين : بلد في جبال عامل مطلّة على نواحي مصر .

www.alkottob.com

من به من الفرنج يقطعونه ، وسيَّر طائفة أخرى من العسكر أيضاً إلى قلعة صفد ، فحصروها وهي مطلّة على مدينة طبريّة ، وكان حصن كوكب للاسبتار وحصن صفد للداوية ، وهما قريبان من حطين موضع المصاف ، فلجأ إليهما جمع ممن سلم من الداوية والاسبتار فحموهما ، فلما حصرهما المسلمون استراح الناس من شرّ من فيهما ، واتصلت الطرق حتى كان يسير فيها المنفرد فلا يخاف ، وكان مقدّم الجماعة الذين يحصرون قلعة كوكب أميرا يقال له سيف الدين ، وهو اخو جاولي الأسدي وكان شهما شجاعا يرجع إلى دين وعبادة ، فأقام عليه إلى آخر شوال ، وكان أصحابه يحرسون نوبا مرتبة ، فلما كان آخر ليلة من شوال غفل الذين كانت نوبتهم في الحراسة ، وكان قد صلى ورده من الليل إلى السحر ، وكانت ليلة كثيرة الرعد والبرق والريح والمطر ، فلم يشعر المسلمون وهم نازلون إلا والفرنج قد خالطوهم بالسيوف ، ووضعوا السلاح فيهم فقتلوهم أجمعين ، وأخذوا ما كان عندهم من طعام وسلاح وغيره ، وعادوا إلى قلعتهم فقووا بذلك قوة عظيمة أمكنهم أن يحفظوا قلعتهم إلى أن أخذت أواخر سنة أربع وثمانين - على ما سنذكره إن شاء الله - وأتى الخبر إلى صلاح الدين بذلك عند رحيله عن صور ، فعظم ذلك عليه مضافا إلى ما ناله من أخذ شوانيه ومن فيها ، ورحيله عن صور، ثم رتّب على حصن كوكب الأمير قايماز النجمي في جماعة أخرى من الأجناد ، فحصروها .

ذكر الفتنة بعرفات وقتل ابن المقدم

في هذه السنة يوم عرفة قتل شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم بعرفات ، وهو أكبر الأمراء الصلاحية ، وقد تقدَّم من أمره ما فيه كفاية ، وسبب قتله أنّه لما فتح المسلمون البيت المقدس طلب منّا من صلاح الدين ليحج ويحرم من القدس ، ويجمع في سنته بين الجهاد والحج ، وزيارة الخليل عليه السلام ، ومن بالشام من مشاهد الأنبياء ، وبين زيارة رسول الله صلى الله وسلم عليه وعليهم أجمعين ، فأذن له ، وكان قد اجتمع تلك السنة من الحجاج بالشام الخلق العظيم ، من البلاد والعراق والموصل وديار الجزيرة وخلاط وبلاد الروم ومصر وغيرها ، ليجمعوا بين زيارة بيت المقدس ومكّة ، فجعل ابن المقدّم أميرًا عليهم ، فساروا حتى وصلوا إلى عرفات سالمين ، ووقفوا في تلك المشاعر، وأدوا الواجب والسنة ، فلمّا كان عشية عرفة تجهّز هو وأصحابه ليسيروا من عرفات ، فأمر بضرب كؤساته التي هي امارة الرحيل ، فضربها أصحابه ، فأرسل إليه أمير الحاج العراقي ، وهو مجير الدين طاشتكين ينهاه عن الافاضة من عرفات قبله ، ويأمر بكفّ أصحابه عن ضرب كؤساته ، فأرسل إليه يقول : إني ليس لي معك تعلق أنت أمير الحاج العراقي ، وأنا أمير الحاج الشامي وكل منا يفعل ما يراه ويختاره ، وسار ولم يقف ولم يسمع قوله ، فلما رأى طاشتكين إصراره على مخالفته ركب في أصحابه وأجناده ، وتبعه من غوغاء الحاج العراقي وبطّاطيَّهم وطمّاعتهم العالم الكثير ، والجم الغفير ، وقصدوا حاج الشام ، مهولين

www.alkottob.com

عليهم ، فلما قربوا منهم خرج الأمير من الضبط ، وعجزوا عن تلافيه ، فهجم طماعة العراق على حاج الشام ، وفتكوا فيهم ، وقتلوا جماعة ، ونهبت أموالهم ، وسبيت جماعة من نسائهم إلا أنهن رددن عليهم ، وجرح ابن المقدم عدة جروح ، وكان يكف أصحابه عن القتال ، ولو أذن لهم لانتصف منهم وزاد ولكنه راقب الله تعالى وحرمة المكان واليوم ، فلمّا اثخن بالجراحات أخذه طاشتكين إلى خيمته ، وأنزله عنده ليمرضه ويستدرك الفارط في حقه ، وساروا تلك الليلة من عرفات ، فلما كان العد مات بمنى ، ودفن بمقبرة المعلى ، ورزق الشهادة بعد الجهاد وشهود فتح البيت المقدس رحمه الله تعالى .

ذكر قوة السلطان طغرل على قزل

في هذه السنة قوي أمر السلطان طغرل ، وكثر جمعه وملك كثيراً من البلاد فأرسل قزل إلى الخليفة يستنجده ويخوفه من طغرل ويبذل من نفسه الطاعة والتصرف على ما يختارونه ، وأرسل طغرل رسولاً إلى بغداد يقول : أريد أن يتقدَّم الديوان بعمارة دار السلطنة لأسكنها إذا وصلت ، فأكرم رسول قزل ، ووعده بالنجدة ، ورد رسول السلطان طغرل بغير جواب ، وأمر الخليفة بنقض دار السلطنة ، فهدمت إلى الأرض وعُفي أثرها .

ذكر ملك شرستى من الهند وانهزام المسلمين بعدها

في آخر هذه السنة سار شهاب الدين الغوري ملك غزنة إلى بلاد الهند ، وقصد بلاد أجمير ، وتعرف بولاية السوالك ، واسم ملكهم كولة، وكان شجاعا شهما ، فلما دخل المسلمون بلاده ملكوا مدينة تبرندة، وهي حصن منيع عامر ، وملكوا شرستى ، وملكوا كوة رام ، فلما سمع ملكهم جمع العساكر فأكثر ، وسار إلى المسلمين ، فالتقوا ، وقامت الحرب على ساق ، وكان مع الهند أربعة عشر فيلاً ، فلما اشتدَّت الحرب انهزمت ميمنة المسلمين وميسرتهم ، فقال لشهاب الدين بعض خواصه : قد انكسرت الميمنة والميسرة فانج بنفسك لايهلك المسلمون ، فأخذ شهاب الدين الرمح ، وحمل على الهنود ، فوصل إلى الفيلة ، فطعن فيلا منها في كتفه ، وجرح الفيل لايندمل ، فلما وصل شهاب الدين إلى الفيلة ، زرقه بعض الهنود بحربة ، فوقعت الحربة في ساعده ، فنفذت الحربة من الجانب الآخر ، فوقع حينئذ إلى الأرض ، فقاتل فيه أصحابه ليخلصوه ، وحرصت الهنود على أخذه ، وكان عنده حرب لم يسمع بمثله ، وأخذه أصحابه فركبوه فرسه ، وعادوا به منهزمين ، فلم يتبعهم الهنود ، فلما أبعدوا عن موضع الوقعة بمقدار فرسخ أغمي على شهاب الدين من كثرة خروج الدم ، فحمله الرجال على أكتافهم في محفة اليد أربعة وعشرين فرسخا ، فلما وصل إلى لهاوور ، أخذ الأمراء الغورية، وهم الذين انهزموا ولم يثبتوا ، وعلق على كل واحد منهم عليق شعير ، وقال : أنتم دواب ما أنتم أمراء ، وسار إلى غزنة ، وأمر بعضهم ، فمشى إليها

www.alkottob.com

ماشيًا ، فلما وصل إلى غزنة أقام بها ليستريح الناس ، ونذكر ما فعله بملك الهند الذي هزمه سنة ثمان وثمانين إن شاء الله تعالى .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة في ربيع الأول قتل مجد الدين أبو الفضل بن الصاحب، وهو أستاذ دار الخليفة أمر الخليفة بقتله ، وكان متحكمًا في الدولة ليس للخليفة معه حكم، وكان هو القيم بالبيعة له ، وظهر له أموال عظيمة أخذ جميعها ، وكان حسن السيرة عفيفًا عن الأموال ، وكان الذي سعى به إنسان من أصحابه وصنائعه يقال له عبيد الله بن يونس، فسعى به إلى الخليفة ، وقبح آثاره ، فقبض عليه وقتله .

وفيها في ربيع الآخر وقع حريق في الحظائر ببغداد احترقت أحطاب كثيرة ، وسببه أن فقيهًا بالمدرسة النظامية كان يطبخ طعامًا يأكله فغفل عن النار والطبيخ ، فعلقت النار ، واتصل ، فاحترقت جميعها ، واحترق درب السلسلة وغيره مما يجاوره .

وفيها في شوال استوزر الخليفة الناصر لدين الله أبا المظفر عبيد الله بن يونس ، ولقبه جلال الدين ، ومشى أرباب الدولة في ركابه حتى قاضي القضاة ، وكان ابن يونس من شهوده ، وكان يمشي ويقول لعن الله طول العمر .

وفيها في المحرم توفي عبد المغيث بن زهير الحري ببغداد ، وكان من

أعيان الحنابلة قد سمع الحديث الكثير ، وصنف كتابًا في فضائل يزيد بن معاوية أتى فيه بالعجائب ، وقد رد عليه أبو الفرج بن الجوزي ، وكان بينهما عداوة .

وفيها توفى قاضي القضاة أبو الحسن بن الدامغاني ، وولي القضاء للمقتفي بعد موت الزينبي ، ثم للمستنجد بالله ، ثم عزل ثم أعيد إلى المستضيء بأمر الله .

وفيها توفى علي بن خطاب بن ظفر الشيخ الصالح من جزيرة ابن عمر ، وكان من الأولياء أرباب الكرامات ، وصحبته أنا مدَّة ، فلم أر مثله حسن خلق وسمت وكرم عبادة رحمه الله .

وفيها ولدت امرأة من سواد بغداد بنتا لها أسنان . وفيها توفي نصر بن فتيان بن مطر أبو الفتح بن المنى الفقيه الحنبلي لم يكن لهم مثله رحمه الله تعالى .

www.alkottob.com

ثم دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة

ذكر حصر صلاح الدين كوكب

في هذه السنة في المحرم انحسر الشتاء ، فسار صلاح الدين من عكا فيمن تخلف عنده من العسكر إلى قلعة كوكب ، فحصرها ونازلها ظنّاً منه أن مُلكها سهلاً ، وأخذها عجلا ، وهو في قلة من العسكر متيسر ، فلما رآها عالية منيعة والوصول إليها متعذر ، وكان عنده منها ومن صفد والكرك المقيم المقعد ، لأن البلاد الساحلية من عكا إلى جهة الجنوب كانت قد ملك جميعها ما عدا هذه الحصون ، وكان يختار أن لايبقى في وسطها ما يشغل قلبه ويقسم همه ويحتاج إلى حفظه ، ولئلا ينال الرعايا والمجتازين ، منهم الضرر العظيم ، فلمّا حصر كوكب ورآها منيعة يبطىء ملكها وأخذها ، رحل عنها وجعل عليها قايماز النجمي مستديمًا لحصاره ، وكان رحيله عنها في ربيع الأول ، وأتاه رسل الملك قلج أرسلان وقزل أرسلان وغيرهما يهنونه بالفتح والظفر ، وسار من كوكب إلى دمشق ففرح الناس بقدومه ، وكتب إلى البلاد جميعًا باجتماع العساكر بها ، وأقام بها إلى أن سار إلى الساحل بالبلاد الشامية .

ذكر رحيل صلاح الدين إلى بلد الفرنج

لما أراد صلاح الدين المسير عن دمشق حضر عنده القاضي الفاضل مودّعا له ومستشيراً ، وكان مريضًا ومودّعه ، وسار عن دمشق منتصف ربيع الأول إلى حمص ، فنزل على بحيرة قدس غربي حمص ، وجاءته العساكر : فأوّل من أتاه من أصحاب الأطراف عماد الدين زنكي بن مودود بن آقسنقر صاحب سنجار ونصيبين والخابور ، وتلاحقت العساكر من الموصل وديار الجزيرة وغيرها ، فاجتمعت عليه وكثرت عنده فسار حتى نزل تحت حصن الأكراد من الجانب الشرقي ، وكنت معه حينئذ ، فأقام يومين ، وسار جريدة ، وترك أثقال العسكر موضعها تحت الحصن ، ودخل إلى بلد الفرنج ، فأغار على صافيثا والعريمة ويحمور وغيرها من البلاد والولايات ، ووصل إلى قريب طرابلس ؛ وأبصر البلاد ، وعرف من أين يأتيها وأين يسلك منها . ثم عاد إلى معسكره سالما ، وقد غنم العسكر من الدواب على اختلاف أنواعها ما لا حدَّ له ، وأقام تحت حصن الأكراد إلى آخر ربيع الآخر .

ذكر فتح جبلة

لما أقام صلاح الدين تحت حصن الأكراد أتاه قاضي جبلة ، وهو منصور بن ثبيل يستدعيه إليه ليسلمها إليه ، وكان هذا القاضي عند بيمند صاحب أنطاكية وجبلة مسموع الكلمة له الحرمة الوافرة والمنزلة العالية ؛ وهو يحكم على جميع المسلمين بجبلة ونواحيها وعلى ما يتعلق بالبيمند ،

www.alkottob.com

فحملته الغيرة للدين على قصد السلطان ، وتكفل له بفتح جبلة ولاذقية والبلاد الشمالية ، فسار صلاح الدين معه رابع جمادى الأولى ، فنزل بانطرطوس سادسه ، فرأى الفرنج قد أخلوا المدينة واحتموا في برجين حصينين كل واحد منها قلعة حصينة ، ومعقل منيع ، فخرّب المسلمون دورهم ومساكنهم وسور البلد ، ونهبوا ما وجدوه من ذخائر ، وكان الداوية بأحد البرجين فحصرها صلاح الدين ، فنزل إليه من في أحد البرجين بأمان ، وسلموه بأمنهم ، وخرب البرج ، وألقى حجارته في البحر ، وبقي الذي فيه الداوية لم يسلموه ، وكان معهم مقدمهم الذي أسره صلاح الدين يوم المصاف ، وكان قد أطلقه لما ملك البيت المقدس ، فهو الذي حفظ هذا الحصن ، فخرب صلاح الدين ولاية انطرطوس ، ورحل عنها ، وأتى مرقية وقد أخلاها أهلها ورحلوا عنها ، وساروا إلى المرقب ، وهي من حصونهم التي لاترام ، ولا تحدث أحدا نفسه بملكه لعلوه وامتناعه ، وهو للاسبتار ، والطريق تحته ، فيكون الحصن على يمين المجتاز إلى جبلة والبحر عن يساره ، والطريق مضيق لايسلكه إلا الواحد بعد الواحد ، فاتفق أن صاحب صقلية من الفرنج قد سيَّر نجدة إلى فرنج الساحل في ستين قطعة من الشواني ، وكانوا بطرابلس ، فلمّا سمعوا بمسير صلاح الدين جاؤوا ووقفوا في البحر تحت المرقب في شوانيهم ليمنعوا من يجتاز بالسهام ، فلما رأى صلاح الدين ذلك أمر بالطارقيات والجفتيات ، فصفَّت على الطريق ممَّا يلي البحر من أول المضيق إلى آخره، وجعل وراءها الرماة ، فمنعوا الفرنج من الدنو إليهم ، فاجتاز المسلمون

عن آخرهم حتّى عبروا المضيق ، ووصلوا إلى جبلة ثامن عشر جمادى الأولى ، وتسلمها وقت وصوله ، وكان قاضيها قد سبق إليها ودخل ، فلما وصل صلاح الدين رفع أعلامه على سورها وسلمها إليه ، وتحصن الفرنج الذين كانوا بها تحصنًا ، واحتموا بقلعتها ، فما زال قاضي جبلة يخوفهم ويرغبهم حتى استنزلهم بشرط الأمان . وأن يأخذ رهائنهم يكونون عنده إلى أن يطلق الفرنج رهائنهم من المسلمين من أهل جبلة ، وكان بيمند صاحبها قد أخذ رهائن القاضي ومسلمي جبلة ، وتركهم عنده بأنطاكية ، فأخذ القاضي رهائن الفرنج ، وجاء رؤساء أهل الجبل إلى صلاح الدين بطاعة أهله ، وهو من أمنع الجبال ، وأشقها مسلكا ، وفيه حصن يعرف ببكسرايل بين جبلة ومدينة حماه ، فملكه المسلمون ، وصار الطريق في هذا الوقت عليه من بلاد الإسلام إلى العسكر ، وكان الناس يلقون شدّة في سلوكه ، وقرَّر صلاح الدين أحوال جبلة ، وجعله فيها لحفظها الأمير سابق الدين عثمان بن الداية صاحب شيزر وسار عنها .

ذكر فتح لاذقية

لما فرغ السلطان من أمر جبلة ، سار عنها إلى لاذقية ، فوصل إليها في الرابع والعشرين من جمادى الأولى ، فترك الفرنج المدينة لعجزهم عن حفظها ، وصعدوا إلى حصنين لها على الجبل ، فامتنعوا بهما ، فدخل المسلمون المدينة ، وحصروا القلعتين اللتين فيهما للفرنج ، وزحفوا إليهما ونقبوا الأسوار ستين ذراعا وعلقوه ، وعظم القتال واشتد الأمر عند

www.alkottob.com

الوصول إلى السور ، فلما أيقن الفرنج بالعطب ، ودخل إليهم قاضي جبلة ، فخوّفهم من المسلمين فطلبوا الأمان ، فأمّنهم صلاح الدين ، ورفعوا الأعلام الإسلامية إلى الحصنين ، وكان ذلك في اليوم الثالث من النزول عليها ، وكانت عمارة اللاذقية من أحسن الأبنية وأكثرها زخرفة مملوءة بالرخام على اختلاف أنواعه ، فخرّب المسلمون كثيراً منها ، ونقلوا رخامها ، وشعثوا كثيراً من بيعها التي قد غرم على كل واحدة منها الأموال الجليلة المقدار ، وسلمها إلى ابن أخيه تقي الدين عمر ، فعمّرها ، وحصّن قلعتها حتى إذا رآها اليوم من رآها ينكرها فلا يظنُّ أن هذه تلك وكان عظيم الهمّة في تحصين القلاع والغرامة الوافرة عليها كما فعل بقلعة حماه .

ذكر حال أسطول صقلية

لما نازل صلاح الدين لاذقية ووصل أسطول صقلية - الذي تقدم ذكره - فوقف بإزاء مينا لاذقية ، فلما سلّمها الفرنج الذين بها إلى صلاح الدين عزم أهل هذا الأسطول على أخذ من يخرج منها من أهلها غيظًا وحنقًا حيث سلموها سريعًا ، فسمع بذلك أهل لاذقية ، فأقاموا وبذلوا الجزية وكان سبب مقامهم ، ثم إن مقدّم هذا الأسطول طلب من السلطان الأمان ليحضر عنده ، فأمنه وحضر وقبّل الأرض بين يديه ، وقال ما معناه: إنك سلطان رحيم كريم ؛ وقد فعلت بالفرنج ما فعلت فذلوا فاتركهم يكونون مماليكك وجندك تفتح بهم البلاد والممالك ، وترد عليهم بلادهم ، وإلا

جاءك من البحر ما لاطاقة لك به ، فيعظم عليك الأمر ، ويشتد الحال ، فأجابهم صلاح الدين بنحو من كلامه من إظهار القوة والاستهانة بكل من يجيء من البحر ، وأنهم إن خرجوا أذاقهم ما أذاق أصحابهم من القتل والأسر ، فانقلب على وجهه ورجع إلى أصحابه .

ذكر فتح صهيون وعدة من الحصون

ثم رحل صلاح الدين عن لاذقية في السابع والعشرين من جمادى الأولى ، وقصد قلعة صهيون ، وهي قلعة منيعة شاهقة في الهواء ، صعبة المرتقى على قرنة جبل ، يطيف بها واد عميق فيه ضيق في بعض المواضع ، بحيث أنّ حجر المنجنيق يصل منه إلى الحصن إلا أن الجبل متصل بها من جهة الشمال ، وقد عملوا لها خندقًا عميقًا لايرى قعره وخمسة أسوار منيعة ، فنزل صلاح الدين على هذا الجبل الملتصق بها ، ونصبت عليه المنجنيقات ورماها وتقدّم إلى ولده الظاهر صاحب حلب ، فنزل على المكان الضيّق من الوادي ، ونصب عليه المنجنيقات ، فرمى الحصن منه ، وكان معه من الرجالة الحلبيين كثير ، وهم في الشجاعة بالمنزلة المشهورة ، ودام رشق السهام من قسي اليد والجرخ والزنبوك والزيار ، فجرح أكثر من بالحصن ، وهم يظهرون التجلّد والامتناع ، وزحف المسلمون إليهم ثاني جمادى الآخرة ، فتعلّقوا بقرنة من ذلك الجبل قد أغفل الفرنج إحكامها ، فتسلّقوا منها بين الصخور حتى التحقوا بالسور الأول ، فملكوا منها ثلاثة ، وغنموا ما فيها من أبقار ودواب

www.alkottob.com

وذخائر وغير ذلك ، واحتمى الفرنج بالقلّة التي للقلعة ، فقاتلهم المسلمون عليها فنادوا وطلبوا الأمان ، فلم يجبهم صلاح الدين إليه ، فقرروا على أنفسهم مثل قطيعة البيت المقدس ، وتسلم الحصن ، وسلمه إلى أمير يقال له ناصر الدين منكورس صاحب قلعة أبي قبيس ، فحصنه وجعله من أحصن الحصون ، ولما ملك المسلمون صهيون تفرقوا في تلك النواحي ، فملكوا حصن بلاطنوس ، وكان من به من الفرنج قد هربوا منه وتركوه خوفًا ورعبًا ، وملك أيضًا حصن العيد ، وحصن الجماهرتين ، فاتسعت المملكة الإسلامية بتلك الناحية إلا أن الطريق إليها من البلاد الإسلامية على عقبة بكسرائيل شاق شديد لأن الطريق السهلة كانت غير مسلوكة لأن بعضها بيد الإسماعيلية وبعضها بيد الفرنج .

ذكر فتح حصن بكاس والشغر

ثم صار صلاح الدين عن صهيون ثالث جمادى الآخرة ، فوصل إلى قلعة بكاس ، فرأى الفرنج قد اخلوها وتحصنوا بقلعة الشغر ، فملك قلعة بكاس بغير قتال وتقدّم إلى قلعة الشغر ، وهي وبكاس على الطريق السهل المسلوك إلى لاذقيّة وجبلة والبلاد التي افتتحها صلاح الدين من بلاد الشام الإسلاميّة ، فلمّا نازلها رآها منيعة حصينة لاترام ولا يوصل إليها بطريق من الطرق ، إلاّ أنّه أمر بمزاحفتهم ونصب المنجنيق عليهم ، ففعلوا ذلك ورمى بالمنجنيق ، فلم يصل من أحجاره إلى القلعة شيء إلا القليل الذي لا يؤذي ، فبقي المسلمون عليه أيّامًا لايرون فيه طمعًا وأهله

غير مهتمين بالقتال لامتناعهم عن ضرور يتطرق إليهم وبلاء ينزل عليهم، فبينما صلاح الدين جالس وعنده أصحابه ، وهم في ذكر القلعة ، وإعمال الحيلة في الوصول إليها ، فقال بعضهم : هذا الحصن كما قال الله تعالى : ﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾[1] فقال صلاح الدين ، أو يأتي الله بنصر من عنده ، وفتح ، فبينما هم في هذا الحديث إذ قد أشرف عليهم فرنجي ونادى بطلب الأمان لرسول يحضر عند صلاح الدين ، فأجيب إلى ذلك ، ونزل رسول، وسأل انتظارهم ثلاثة أيام ، فإن جاءهم من يمنعهم ، وإلا سلموا القلعة بما فيها من ذخائر ودواب وغير ذلك ، فأجابهم إليه وأخذ رهائنهم على الوفاء به فلمّا كان اليوم الثالث سلّموها إليه ، واتفق أنّه يوم الجمعة سادس عشر جمادى الآخرة ، وكان سبب استمالهم أنّهم أرسلوا إلى البيمند صاحب أنطاكية - وكان هذا الحصن له - يعرّفونه أنّهم محصورون ويطلبون منه أن يرحّل عنهم المسلمين فإن فعل ، وإلا سلموها ، وإنّما فعلوا ذلك لرعب قذفه الله تعالى في قلوبهم ، وإلا فلو أقاموا الدهر الطويل لم يصل إليهم أحد ولا بلغ المسلمون منه غرضًا ، فلما تسلّم صلاح الدين الحصن سلّمه إلى أمير، يقال له : قلج ، وأمره بعمارته ورحل عنه .

(١) سورة الكهف ٩٧ .

www.alkottob.com

ذكر فتح سرْمينية[1]

لما كان صلاح الدين بمشغولاً بهذه القلاع والحصون سيّر ولده الظاهر غازي صاحب حلب ، فحصر سرمينية ، وضيّق على أهله ، واستنزلهم على قطيعة قررها عليهم ، فلما أنزلهم وأخذ منهم المقاطعة ، هدم الحصن وعفى أثره وعالي بنيانه ، وكان فيه وفي هذه الحصون من أسارى المسلمين الجمّ الغفير ، فأطلقوا وأعطوا كسوة ونفقة وكان فتحه في يوم الجمعة الثالث والعشرين من جمادى الآخرة ، واتّفق أنّ فتح هذه المدن والحصون جميعها من جبلة إلى سرمينية مع كثرتها كان في ست جمع مع أنّها في أيدي أشجع الناس وأشدهم عداوة للمسلمين ، فسبحان من إذا أراد أن يسهّل الصعب فعل ، وهي جميعها من أعمال انطاكية ، ولم يبق لها سوى القصير وبغراس ودرب ساك وسيأتي ذكرها إن شاء الله تعالى في مكانه .

ذكر فتح برزيه

لما رحل صلاح الدين من قلعة الشغر سار إلى قلعة بَرْزَيَة ، وكانت قد وصفت له وهي تقابل حصن افامية وتناصفها في أعمالها ، وبينهما بحيرة تجتمع من ماء العاصي ، وعيون تتفجر من جبل برزية وغيره ، وكان أهلها أضرَّ شيء على المسلمين يقطعون الطريق ويبالغون في الأذى،

(١) سرمينية : في معجم البلدان سرمين : بلدة مشهورة من أعمال حلب .

فلما وصل إليها نزل شرقيها في الرابع والعشرين من جمادى الآخرة ، ثمّ ركب من الغدّ وطاف عليها لينظر موضعًا يقاتلها منه ، فلم يجده إلا من جهة الغرب فنصب له هناك خيمة صغيرة ونزل فيها ومعه بعض العسكر جريدة لضيق المواضع ، وهذه القلعة لايمكن أن تقاتل من جهة الشمال والجنوب البتّة ، فإنّها لايقدر أحد أن يصعد جبلها من هاتين الجهتين ، وأمّا الجانب الشرقي فيمكن الصعود منه لكن لغير مقاتل لعلوه وصعوبته، وأمّا جهة الغرب فإنّ الوادي المطيف بجبلها قد ارتفع هناك ارتفاعًا كثيرًا حتى قارب القلعة بحيث يصل منه حجر المنجنيق والسهام ، فنزل له المسلمون ونصبوا عليه المنجنيقات ، ونصب أهل القلعة عليها منجنيقا بطلها ورأيت أنا من رأس جبل عال يشرف على القلعة لكنه لايصل منه شيء إليها امرأة ترمي من القلعة عن المنجنيق ، وهي التي أبطلت منجنيق المسلمين ، فلما رأى صلاح الدين أنّ المنجنيق لاينتفعون به عزم على الزحف ومكاثرة أهلها بجموعه فقسّم عسكره ثلاثة أقسام يزحف قسم ، فإذا تعبوا وكلّوا عادوا ، وزحف القسم الثاني ، فإذا تعبوا وضجروا عادوا وزحف القسم الثالث ، ثم يدور الدور مرة بعد أخرى حتى يتعب الفرنج وينصبوا ، فإنه لم يكن عندهم من الكثرة ما يتقسّمون كذلك ، فإذا تعبوا وأعيوا سلّموا القلعة ، فلما كان الغدّ وهو السابع والعشرين من جمادى الآخرة ، تقدّم أحد الأقسام ، وكان المقدم عليهم عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي صاحب سنجار وزحفوا وخرج الفرنج من حصنهم ، فقاتلهم على فصيلهم ورماهم المسلمون بالسهام من وراء الجفتيات

www.alkottob.com

والجنويات والطارقيات ، ومشوا إليهم حتى قربوا إلى الجبل ، فلما قاربوا الفرنج عجزوا عن الدنو منهم لخشونة المرتقى ، وتسلّط الفرنج عليهم لعلو مكانهم بالنشاب والحجارة ، فإنهم كانوا يلقون الحجارة الكبار فتتدحرج إلى أسفل الجبل فلا يقوم لها شيء ، فلما تعب هذا القسم انحدروا ، وصعد القسم الثاني ، وكانوا جلوسًا ينتظرونهم ، وهم حلقة صلاح الدين الخاص ، فقاتلوا قتالاً وكان الزمان حرًا شديدًا فاشتدّ الكرب على الناس وصلاح الدين في سلاحه يطوف عليهم ويحرضهم ، وكان تقي الدين ابن أخيه كذلك ، فقاتلوهم إلى قريب الظهر ، ثم تعبوا ورجعوا ، فلمّا رآهم صلاح الدين قد عادوا تقدّم إليهم وبيده جماق يردهم ، وصاح في القسم الثالث ، وهم جلوس ينتظرون نوبتهم ، فوثبوا ملبّين وساعدوا إخوانهم ، وزحفوا معهم ، فجاء الفرنج ما لاقبل لهم به ، وكان أصحاب عماد الدين قد استراحوا ، فقاموا أيضًا معهم ، فحينئذ اشتدّ الأمر على الفرنج وبلغت القلوب الحناجر ، وكانوا قد اشتد تعبهم ونصبهم ، فظهر عجزهم عن القتال وضعفهم عن حمل السلاح لشدّة الحر والقتال ، فخالطهم المسلمون ، فعاد الفرنج يدخلون الحصن ، فدخل المسلمون معهم ، وكان طائفة قليلة في الخيام شرقي الحصن فرأوا الفرنج قد أهملوا ذلك الجانب لأنهم لم يروا فيه مقاتلاً وليكثروا في الجهة التي فيها صلاح الدين ، فصعدت تلك الطائفة من العسكر ، فلم يمنعهم مانع ، فصعدوا أيضًا الحصن من الجهة الأخرى ، فالتقوا مع المسلمين الداخلين مع الفرنج فملكوا الحصن عنوة وقهرًا . ودخل الفرنج القلّة التي

للحصن ، وأحاط بها المسلمون وأرادوا نقبها ، وكان الفرنج قد رفعوا من عندهم من أسرى المسلمين إلى سطح القلة ، وأرجلهم في القيود والخشب المثقوب ، فلما سمعوا تكسير المسلمين في نواحي القلعة كبروا في سطح القلة ، وظن الفرنج أنّ المسلمين قد صعدوا على السطح ، فاستسلموا وألقوا بأيديهم إلى الأسر ، فملكها المسلمون عنوة ، ونهبوا ما فيها وأسروا وسبوا من فيها ، وأخذوا صاحبها ، وأهله ، وأمست خالية لا ديار بها ، وألقى المسلمون النار في بعض بيوتهم فاحترقت .

ومن أعجب ما يحكى من السلامة أنّني رأيت رجلاً من المسلمين على هذا قد جاء من طائفة من المؤمنين شمالي القلعة إلى طائفة أخرى من المسلمين جنوبي القلعة وهو يعدو في الجبل عرضًا ، فَأُلْقِيَتْ عليه الحجارة، وجاءه حجر كبير لو ناله لبعّجه ، فنزل عليه فناداه الناس يحذرونه ، فالتفت ينظر ما الخبر فسقط على وجهه من عثرة ، فاسترجع الناس وجاء الحجر إليه ، فلمّا قاربه وهو منبطح على وجهه لقيه حجر آخر ثابت في الأرض فوق الرجل ، فضربه المنحدر ، فارتفع عن الأرض وجاز الرجل ، ثمّ عاد إلى الأرض من جانبه الآخر لم ينله من أذى ولا ضرر ، وقام يعدو حتى لحق بأصحابه ، فكان سقوطه سبب نجاته ، فتعست أم الجبان.

وأما صاحب برزية ، فإنه أسر هو وأصحابه وامرأته وأولاده ومنهم بنت له معها زوجها ، فتفرقت العسكر ، فأرسل صلاح الدين في الوقت وبحث عنهم واشتراهم وجمع شمل بعضهم ببعض ، فلما قارب أنطاكية أطلقهم وسيّرهم إليها ، وكانت امرأة صاحب برزية أخت امرأة بيمند

www.alkottob.com

صاحب انطاكية ، وكانت تراسل صلاح الدين وتهاديه وتعلمه كثيرًا من الأموال التي تؤثر فاطلق هؤلاء لأجلها .

ذكر فتح درب ساك

لما فتح صلاح الدين حصن برزية رحل عنه من الغد ، فأتى جسر الحديد ، وهو على العاصي بالقرب من انطاكية ، فأقام عليه حتى وافاه من تخلّف عنه من عسكره ، ثمّ سار إلى قلعة درب ساك ، فنزل عليها ثامن رجب ، وهي من معاقل الداوية الحصينة ، وقلاعهم التي يدخرونها لحماياتهم عند نزول الشدائد، فلمّا نزل عليها نصب المنجنيقات ، وتابع الرمي بالحجارة فهدمت من سورها شيئًا يسيرا ، فلم يبال من فيه بذلك فأمر بالزحف عليها ومهاجمتها ، فبادرها العسكر بالزحف وقاتلوها ، وكشفوا الرجال عن سورها ، وتقدّم النقابون فنقبوا منها برجا وعلقوه فسقط ، واتسع المكان الذي يريد المقاتلة يدخلون منه وعادوا يومهم ذلك ، ثم باكروا الزحف من الغد ، وكان من فيه قد أرسلوا إلى صاحب انطاكية يستنجدونه ، فصبروا وأظهروا الجلد وهم ينتظرون جوابه ، إما بإنجادهم وازاحة المسلمين عنهم ، وإما بالتخلّي عنهم ليقوم عذرهم في التسليم ، فلما علموا عجزه عن نصرتهم ، وخافوا هجوم المسلمين عليها ، وأخذهم بالسيف وقتلهم وأسرهم ونهب أموالهم ، طلبوا الأمان ، فأمنهم على شرط أن لايخرج أحد إلا بثيابه التي عليه ، بغير مال ، ولا سلاح ولا أثاث بيت ولا دابة ولا شيء مما بها ، ثم أخرجهم منه وسيّرهم إلى انطاكية ، وكان فتحه تاسع عشر رجب .

ذكر فتح بغراس

ثم سار عن درب ساك إلى قلعة بَغْرَاس ، فحصرها بعد أن اختلف أصحابه في حصرها ، فمنهم من أشار به ومنهم من نهى عنه وقال : هو حصن حصين وقلعة منيعة ، وهو بالقرب من انطاكية ، ولا فرق بين حصره وحصرها ، ويحتاج أن يكون أكثر العسكر في اليزك مقابل انطاكية، فإذا كان الأمر كذلك قلّ المقاتلون عليه ، ويتعذر الوصول إليها، فاستخار الله تعالى ، وسار إليها وجعل أكثر عسكره يزكا مقابل أنطاكية يغيرون على أعمالها ، وكانوا حذرين من الخوف من أهلها إن غفلوا لقربهم منها ، وصلاح الدين في بعض أصحابه على القلعة يقاتلها ، ونصب المنجنيقات ، فلم يؤثر فيها شيئًا لعلوها وارتفاعها ، فغلب على الظنون تعذُّر فتحها وتأخر ملكها ، وشق على المسلمين قلّة الماء عندهم ، إلا أنّ صلاح الدين نصب الحياض ، وأمر بحمل الماء ، فخفّف الأمر عليهم ، فبينما هو على هذه الحال إذ قد فتح باب القلعة ، وخرج منه إنسان يطلب الأمان فأجيب إلى ذلك ، فأذن له في الحضور، فحضر وطلب الأمان لمن في الحصن حتى يسلموه إليه بما فيه على قاعدة درب ساك فأجابهم إلى ما طلبوا ! فعاد الرسول ومعه الأعلام الإسلامية ، فرفعت على رأس القلعة ، ونزل من فيها ، وتسلم المسلمون القلعة بما فيها من ذخائر وأموال وسلاح ، وأمر صلاح الدين بتخريبه ، فخرّب ، وكان ذلك مضرة عظيمة على المسلمين ، فإنّ ابن ليون صاحب الأرمن خرج إليه من ولايته ، وهو مجاوره ، فجدّد عمارته وأتقنه ، وجعل فيه جماعة من

www.alkottob.com

عسكره يغيرون منه على البلاد ، فتأذّى بهم السواد الذي لحلب وهو إلى الآن بأيديهم .

ذكر الهدنة بين المسلمين وصاحب انطاكية

لما فتح صلاح الدين بغراس عزم على التوجه إلى أنطاكية وحصرها فخاف البيمند صاحبها من ذلك ، وأشفق منه ، فأرسل إلى صلاح الدين يطلب الهدنة ، وبذل إطلاق كل أسير عنده من المسلمين ، فاستشار من عنده من أصحاب الأطراف وغيرهم ، فأشار أكثرهم بإجابته إلى ذلك ليعود الناس ليستريحوا ويجدّدوا ما يحتاجون إليه ، فأجاب إلى ذلك ، واصطلحوا ثمانية أشهر أولها أول تشرين الأول وآخرها آخر أيار ، وسيّر رسوله إلى صاحب انطاكية يستحلفه ويطلق من عنده من الأسرى ، وكان صاحب انطاكية في هذا الوقت أعظم الفرنج شأنًا وأكثرهم ملكًا ، فإنه كان الفرنج قد سلّموا إليه طرابلس بعد موت القمص وجميع أعمالها مضافًا إلى ما كان له لأن القمّص لم يخلف ولدًا ، فلمّا سلّمت إليه طرابلس جعل ولده الأكبر فيها نائبًا عنه ، وأمّا صلاح الدين ، فإنه عاد إلى جلب ثالث شعبان ، فدخلها . وسار منها إلى دمشق ، وفرق العساكر الشرقية كعماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار والخابور وعسكر الموصل وغيرها ، ثمّ رحل من حلب إلى دمشق وجعل طريقه على قبر عمر بن عبد العزيز ، فزاره وزار الشيخ الصالح أبا زكريا المغربي، وكان مقيمًا هناك ، وكان من عباد الله الصالحين ، وله كرامات

ظاهرة ، وكان مع صلاح الدين الأمير عز الدين أبو الفليتة قاسم بن المهنا العلوي الحسيني ، وهو أمير مدينة النبي ﷺ كان قد حضر عنده وشهد معه مشاهده وفتوحه ، وكان صلاح الدين قد تبرّك برؤيته ، وتيمن بصحبته ، وكان يكرمه كثيرًا ، وينبسط معه ويرجع إلى قوله في أعماله كلها ، ودخل دمشق أول شهر رمضان ، فأشير عليه بتفريق العساكر ، فقال : أن العمر قصير ، والأجل غير مأمون ، وقد بقي بيد الفرنج هذه الحصون كوكب وصفد والكرك وغيرها ، ولابد من الفراغ منها فإنها في وسط بلاد الإسلام ، ولايؤمن شر أهلها ، وإن أغفلناهم ندمنا فيما بعد والله أعلم .

ذكر فتح الكرك وما يجاوره

كان صلاح الدين قد جعل على الكرك عسكرًا يحصره ، فلازموا الحصار هذه المدة الطويلة حتى فنيت أزواد الفرنج وذخائرهم ، وأكلوا دوابهم ، وصبروا حتى لم يبق للصبر مجال ، فراسلوا الملك العادل أخا صلاح الدين ، وكان جعله صلاح الدين على قلعة الكرك في جمع من العسكر يحصرها ، ويكون مطلعا على هذه الناحية من البلاد لما أبعد هو إلى درب ساك وبغراس ، فوصلته رسل الفرنج من الكرك يبذلون تسليم القلعة إليه ، ويطلبون الأمان ، فأجابهم إلى ذلك ، وأرسل إلى مقدّم العسكر الذي يحصرها في المعنى ، فتسلّم القلعة منهم وأمّنهم ، وتسلم أيضًا ما يقاربه من الحصون كالشوبك ، وهزموا الوعيرة والسلع ، وفرغ

www.alkottob.com

القلب من تلك الناحية ، وألقى الإسلام هناك جرانه ، وأمنت قلوب من في ذلك الصقيع من البلاد كالقدس وغيره ، فإنهم كانوا ممّن بتلك الحصون وجلين ، ومن شرهم مشفين .

ذكر فتح قلعة صفد

لما وصل صلاح الدين إلى دمشق ، وأشير عليه بتفريق العساكر ، وقال : لابدَّ من الفرنج من صفد وكوكب وغيرها ، أقام بدمشق إلى منتصف رمضان ، وسار عن دمشق إلى قلعة صفد ، فحصرها وقاتلها ونصب عليها المنجنيقات ، وأدام الرمي إليها ليلاً ونهاراً بالحجارة ، والسهام ، وكان أهلها قد قارب ذخائرهم وأزوادهم أن تفنى في المدّة التي كانوا فيها محاصرين ، فإنَّ عسكر صلاح الدين كان يحاصرهم - كما ذكرناه - فلما رأى أهله جدّ صلاح الدين في قتالهم ، خافوا أن يقيم إلى أن يفنى ما بقي معهم من أقواتهم ، وكانت قليلة ، ويأخذهم عنوة ويهلكهم ، أو أنهم يضعفون عن مقاومته قبل فناء ما عندهم من القوت فيأخذهم ، فأرسلوا يطلبون الأمان ، فأمنهم وتسلمها منهم ، فخرجوا ، عنها إلى مدينة صور ، وكفى الله المؤمنين شرهم ، فإنهم كانوا وسط البلاد الإسلامية .

ذكر فتح كوكب

لما كان صلاح الدين يحاصر صفد ، اجتمع من بصور من الفرنج

وقالوا : إن فتح المسلمون قلعة صفد لم تبق كوكب ولو أنها معلقة بالكوكب ، وحينئذ ينقطع طمعنا من هذا الطرف من البلاد ، فاتّفق رأيهم على إنفاذ نجدة لها سراً من رجال وسلاح وغير ذلك ، فأخرجوا مائتي رجل من شجعان الفرنج وأجلادهم ، فساروا الليل مستخفين ، وأقاموا النهار مكمنين ، فاتفق من قدر الله تعالى أن رجلاً من المسلمين الذي يحاصرون كوكب خرج متصيّداً فلقي رجلا من تلك النجدة ، فاستغربه بتلك الأرض ، فضربه ليعلمه بحاله وما الذي أقدمه إلى هناك ، فأقرَّ بالحال ودله على أصحابه ، فعاد الجنديُّ المسلم إلى قايماز النجمي ، وهو مقدم ذلك العسكر ، فأعلمه الخبر والفرنجي معه ، فركب في طائفة من العسكر إلى الموضع الذي قد اختفى فيه الفرنج، فكسبهم ، فأخذهم وتتبعهم في الشعاب والكهوف ، فلم يفلت منهم أحد ، فكان معهم مقدمات من فرسان الاسبتار ، فحملوا إلى صلاح الدين - وهو على صفد - فأحضرهما ليقتلهما ، وكانت عادته قتل الداوية والاسبتارية لشدّة عداوتهم للمسلمين وشجاعتهم ، فلما أمر بقتلهما قال له أحدهما : ما أظنُّ ينالنا سوء وقد نظرنا إلى طلعتك المباركة ووجهك الصبيح ، وكان رحمه الله كثير العفو يفعل الاعتذار والاستعطاف فيه فيعفو ويصفحَ فلما سمع كلامهما لم يقتلهما وأمر بهما فسجنا ، ولما فتح صفد سار عنها إلى كوكب ، ونازلها وحصرها ، وأرسل إلى من بها من الفرنج يبذل لهم الأمان إن سلموا ويتهددهم بالقتل والسبي والنهب إن امتنعوا ، فلم يسمعوا قوله وأصروا على الامتناع ، فجدَّ في قتالهم ، ونصب عليهم

www.alkottob.com

المنجنيقات ، وتابع رمي الأحجار إليهم ، وزحف مرّة بعد مرّة ، وكانت الأمطار كثيرة لاتنقطع ليلا ولا نهارًا ، فلم يتمكن المسلمون من القتال على الوجه الذي يريدونه ، وطال مقامهم عليها ، وفي آخر الأمر زحف إليها دفعات متتاوبة في يوم واحد ، ووصلوا إلى باشورة القلعة ومعهم النقّابون، والرماة يحمونهم بالنشاب عن قوس اليد والجروخ ، فلم يقدر أحد منهم أن يخرج رأسه من أعلى السور ، فنقبوا الباشورة فسقطت ، وتقدموا إلى السور الأعلى ، فلما رأى الفرنج ذلك اذعنوا بالتسليم وطلبوا الأمان ، فأمنهم وتسلم الحصن منهم منتصف ذي القعدة وسيّرهم إلى صور ، فوصلوا إليها ، واجتمع بها من شياطين الفرنج وشجعانهم كل صنديد ، فاشتدت شوكتهم وحميت جمرتهم ، وتابعوا الرسل إلى من بالأندلس وصقلية وغيرها من جزائر البحر يستغيثون ويستنجدون ، والأمداد كل قليل تأتيهم ، وكان ذلك كله بتفريط صلاح الدين في إطلاق كل من حصره حتى عض بنانه ندما وأسفا حيث لم ينفعه ذلك واجتمع للمسلمين بفتح كوكب وصفد من حدايلة إلى أقصى أعمال بيروت لايفصل بينه غير مدينة صور ، وجميع أعمال انطاكية سوى القصير ، ولما ملك صلاح الدين صفد سار إلى البيت المقدس ، فعيَّد فيه عيد الأضحى ، ثم سار منه إلى عكا ، فأقام بها حتى انسلخت السنة .

ذكر ظهور طائفة من الشيعة بمصر

في هذه السنة ثار بالقاهرة جماعة من الشيعة عدتهم اثنا عشر رجلا

ليلاً ، ونادوا بشعار العلويين يالَ علي يالَ علي وسلكوا الدروب ينادون ظنًّا منهم أن رعيّة البلد يلبون دعوتهم ويخرجون معهم ، فيعيدون الدولة العلويّة ، ويخرجون بعض من بالقصر محبوسًا منهم ويملكون البلد ، فلم يلتفت أحد منهم إليهم ولا أعارهم سمعه ، فلما رأوا ذلك تفرقوا خائفين، فأخذوا وكتب بذلك إلى صلاح الدين ، فأهمّه أمرهم وأزعجه ، فدخل عليه القاضي الفاضل فأخبره الخبر . فقال القاضي الفاضل : ينبغي أن تفرح بذلك ولاتحزن ولاتهتم ، حيث علمت من بواطن رعيتك المحبة لك والنصح ، ولترك الميل إلى عدوك ، ولو وضعت جماعة يفعلون مثل هذه الحالة لتعلم بواطن أصحابك ورعيتك ، وخسرت الأموال الجليلة عليهم لكان قليلا فسرى عنه ، وكان هذا القاضي الفاضل صاحب دولة صلاح الدين وأكبر من بها ، وستأتي مناقبه عند وفاته ما تراه .

ذكر انهزام عسكر الخليفة من السلطان طغرل

في هذه السنة جهّز الخليفة الناصر لدين الله عسكرًا كثيرًا ، وجعل المقدّم عليهم وزيره جلال الدين عبيد الله بن يونس ، وسيّرهم إلى مساعدة قزل ليكفّ الناس طغرل عن البلاد ، فسار العسكر ثالث صفر إلى أن قارب همذان ، فلم يصل قزل إليهم ، وأقبل طغرل إليهم ، فالتقوا ثامن ربيع الأول بداي مرج عند همذان ، واقتتلوا ، فلم يثبت عسكر بغداد بل انهزموا وتفرقوا ، وثبت الوزير قائما ومعه مصحف وسيف فأتاه من عسكر طغرل من أسره ، وأخذ ما معه من خزانة وسلاح ودواب وغير ذلك ،

www.alkottob.com

وعاد العسكر إلى بغداد متفرّقين ، وكنت حينئذ بالشام في عسكر صلاح الدين يريد الغزاة ، فأتاه الخبر مع النجابين بمسير العسكر البغدادي ، فقال: كأنكم وقد وصل الخبر بانهزامهم ، فقال له بعض الحاضرين : وكيف ذلك ؟ فقال : لا شكّ من أن أصحابي وأهلي أعرف بالحرب من الوزير وأطوع في العسكر منه ، ومع هذا فما أرسل أحدًا منهم في سريّة للحرب إلا وأخاف عليه ، وهذا الوزير غير عارف بالحرب ، وقريب العهد بالولاية ، ولايراد الأمراء أهلا أن يطاع ، وفي مقابله سلطان شجاع قد باشر الحرب بنفسه ومن معه يطيعه ، وكان الأمر كذلك ووصل الخبر إليه بانهزامهم فقال لأصحابه : كنت اخبرتكم بكذا وكذا ، وقد وصل الخبر بذلك ، ولما عادت عساكر بغداد منهزمة قال بعض الشعراء وهو أحمد الواثق بالله :

اتركونا من جائحاتِ الجريمهْ ... طلعةٌ طلعةٌ تكونُ وخيمهْ

بركاتُ الوزير قد شملتنَا ... فلهذَا أمورُنا مُستقيمهْ

خَرَجَتْ جندُنَا تريدُ خراسا ... نَ جميعًا بأبَّهاتٍ عَظيمهْ

بخيولٍ وعدَّةٍ وعديدٍ ... وسيوفٍ مجرَّباتٍ قَديمهْ

ووزيرٍ وطاق طنبٍ ونقشٍ ... وخيولٍ معدةٍ للهزيمهْ

همْ رأوا عزَّةَ العدوِّ وقدْ ... أقبل ولّوا وانحلَّ عقدُ العزيمهْ

وأتَونَا ولا يخفى حنين ... بوجوهٍ سودٍ قباحٍ دَميمهْ

لو رأى صاحبُ الزمانِ ولو ... عاينَ أفعالهم وقبَّح الجريمهْ

قابلَ الكلَّ بالنَّكالِ ... وناهيكَ بها سبةٍ عليهم مقيمهْ

كان ينبغي أن تتقدم هذه الحادثة ، وإنما أخرتها لتتبع الحوادث المتقدمة بعضها بعضًا لنعلق كل واحدة منها بالأخرى .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة توفي شيخنا أبو محمد عبدالله بن علي بن عبدالله بن سويدة التكريتي ، كان عالمًا بالحديث وله تصانيف حسنة .

وفيها توفيت سلجوقة خاتون بنت قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان زوجة الخليفة ، وكانت قبله زوجة نور الدين محمب بن قرا أرسلان صاحب الحصن ، فلما توفي عنها تزوجها الخليفة ، ووجد الخليفة عليها وجدًا عظيمًا ظهر الناس كلّهم وبنى على قبرها تربة بالجانب الغربي وإلى جانب التربة رباطه المشهور بالرملة .

وفيها توفي علاء الدين تنامش ، وحمل تابوته إلى مشهد الحسن عليه السلام .

وفيها توفي خادم الخليفة وكان أكبر أمير ببغداد . ومات أبو الفرج

www.alkottob.com

بن النقور العدل ببغداد ، وسمع الحديث الكثير ، وهو من بيت الحديث رحمه الله [1].

(١) وفيها توفي الأمير الكبير سلالة الملوك والسلاطين الشيزرى مؤيد الدولة أبو الحارث وأبو المظفر أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ أحد الشعراء المشهورين ، المشكورين ، بلغ من العمر ستًا وتسعين سنة ، وكان عمره تاريخًا مستقلاً وحده ، وكانت داره بدمشق ، مكان العزيزية ، وكانت معقلاً للفضلاء ، ومنزلا للعلماء ، وله أشعار رائقة ، ومعان فائقة ولديه علم غزير ، وعنده جود وفضل كثير ، وكان من أولاد ملوك شيزر ، ثم أقام بمصر مدة في أيام الفاطميين ، ثم عاد إلى الشام فقدم على الملك صلاح الدين في سنة سبعين وأنشده :

حمدتُ على طول عمري المشيبَا ... وإن كنتُ أكثرتُ فيه الذُّنوبا
لأنّي حييت إلى أن لَقيت ... بعد العدوَّ صديقًا حبيبًا

ثم دخلت سنة خمس وثمانين وخمسمائة
ذكر فتح شقيف أرنوم

في هذه السنة ربيع الأول سار صلاح الدين إلى شقيف أرنوم ، وهو من أمنع الحصون ليحصره ، فنزل بمرج عيون ، فنزل صاحب الشقيف - وهو أرناط صاحب صيدا - وكان هذا أرناط من أعظم الناس دهاء ومكرًا، فدخل إليه واجتمع به ، واظهر له الطاعة والمودة وقال له : أنا محبّ لك ومعترف بإحسانك وأخاف أن يعرف المركيس ما بيني وبينك ، فينال أولادي وأهلي منه أذى ، فإنهم عنده ، فاشتهي أن تمهلني حتى أتوصل في تخليصهم من عنده ، وحينئذ أحضر أنا وهم عندك ونسلم الحصن إليك ، وأكون أنا وهم في خدمتك نقنع بما تعطينا من أقطاع ، فظنّ صلاح الدين صدقه ، فأجابه إلى ما سأل ، فاستقر الأمر بينهما أن يتسلم الشقيف في جمادى الآخرة ، وأقام صلاح الدين بمرج عيون ينتظر الميعاد، وهو قلق مفكر لقرب انقضاء مدة الهدنة بينه وبين البيمند صاحب أنطاكية، فأمر تقيّ الدين ابن أخيه أن يسير فيمن معه من عساكره ومن يأتي من بلاد المشرق ، ويكون مقابل أنطاكية لئلا يغير صاحبها على بلاد الإسلام عند انقضاء الهدنة ، وكان أيضًا منزعج الخاطر كثير الهمّ لما بلغه من اجتماع الفرنج بمدينة صور وما يتصل بهم من الأمداد في البحر ، وأن ملك الفرنج الذي كان قد أسره صلاح الدين وأطلقه بعد فتح القدس قد

www.alkottob.com

اصطلح هو والمركيس بعد اختلاف كان بينهما ، وأنّهم قد اجتمعوا في خلق لا تحصى ، فإنهم قد خرجوا من مدينة صور إلى ظاهرها ، فكان هذا وأشباهه ممّا يزعجه ويخاف من ترك الشقيف وراء ظهره والتقدم إلى صور وفيها الجموع المتوافرة فتنقطع الميرة عنه إلا أنه مع هذه الأشياء مقيم على العهد مع أرناط صاحب الشقيف وكان أرناط في مدّة الهدنة يشتري الأقوات من سوق العسكر والسلاح وغير ذلك ممّا يحصّن به شقيفه ، وكان صلاح الدين يحسن الظنّ وإذا قيل له عنه ممّا هو فيه من المكر ، وأن قصده المطاولة إلى أن يظهر الفرنج من صور ، وحينئذ يبدي فضيحته ويظهر مخالفته لايقبل فيه فلمّا قارب انقضاء الهدنة تقدّم صلاح الدين من معسكره إلى القرب من شقيف أرنوم وأحضر عنده أرناط ، وقد بقي من الأجل ثلاثة أيام فقال له : في معنى تسليم الشقيف ، فاعتذر بأولاده وأهله وأن المركيس لم يمكنهم من المجيء إليه ، وطلب التأخير مدة أخرى، فحينئذٍ علم السلطان مكره وخداعه ، فأخذه وحبسه وأمره بتسليم الشقيف ، فطلب قسّيسًا ذكره ليحمل رسالة إلى من بالشقيف ليسلموه ، فأحضروه عنده فساره بما لم يعلموا ، فمضى ذلك القسيس إلى الشقيف ، فأظهر أهله العصيان فسيَّر صلاح الدين ارناط إلى دمشق وسجنه وتقدم إلى الشقيف فحصره وضيق عليه وجعل عليه من يحفظه ويمنعه عن الذخيرة والرجال .

ذكر وقعة اليزك مع الفرنج

لما كان صلاح الدين بمرج عيون وعلى الشقيف جاءته كتب من أصحابه - الذين جعلهم يزكا في مقابل الفرنج على صور - يخبرونه فيها أنّ الفرنج قد أجمعوا على عبور الجسر الذي لصور ، وعزموا على حصار صيدا ، فسار صلاح الدين جريدة في شجعان أصحابه سوى من جعله على الشقيف ، فوصل إليهم ، وقد فات الأمر وذلك أن الفرنج قد فارقوا صور ، وساروا عنها لمقصدهم ، فلقيهم اليزك على مضيق هناك ، وقاتلوهم ومنعوهم ، وجرى لهم معهم حرب شديدة يشيب لها الوليد ، وأسروا من الفرنج جماعة وقتلوا جماعة ، وقتل من المسلمين أيضًا جماعة منهم مملوك لصلاح الدين كان من أشجع الناس ، فحمل وحده على صف الفرنج ، فاختلط بهم وضربهم بسيفه يمينًا وشمالاً ، فتكاثروا عليه فقتلوه رحمه الله . ثم إنَّ الفرنج عجزوا عن الوصول إلى صيدا فعادوا إلى مكانهم .

ذكر وقعة ثانية للغزاة المتطوّعة

لما وصل صلاح الدين إلى اليزك ، وقد فاتته تلك الوقعة أقام عندهم في خيمة صغيرة ينتظر عودة الفرنج لينتقم منهم ويأخذ بثأر من قتلوه من المسلمين ، فركب في بعض الأيام في عدّة يسيرة على أن ينظر إلى مخيّم الفرنج من الجبل ليعمل بمقتضى ما يشاهده ، وظنَّ من هناك من غزاة العجم والعرب المتطوعة أن على قصد المصاف ، والحرب ، فساروا

www.alkottob.com

مجدّين، وأوغلوا في أرض العدوّ مبعدين ، وفارقوا الحزم ، وخلفوا السلطان وراء ظهورهم وقاربوا الفرنج فأرسل صلاح الدين عدّة من الأمراء يردونهم ويحمونهم إلى أن يخرجوا ، فلم يسمعوا ولم يقبلوا ، وكان الفرنج قد اعتقدوا أن وراءهم كميناً ، فلم يقدموا عليهم ، فأرسلوا من ينظر حقيقة الأمر ، فأتاهم الخبر أنهم منقطعون عن المسلمين وليس وراءهم ما يخاف ، فحملت الفرنج عليهم حملة رجل واحد ، فقاتلوهم ، فلم يلبثوا أن أناموهم وقتل معهم جماعة من المعروفين ، وشقّ على صلاح الدين والمسلمين ما جرى عليهم ، وكان ذلك بتفريطهم في حقّ أنفسهم رحمهم الله ورضي عنهم ، وكانت هذه الوقعة تاسع جمادى الأولى ، فلما رأى صلاح الدين ذلك انحدر من الجبل إليهم في عسكره ، فحملوا على الفرنج ، فألقوهم إلى الجسر ، وقد أخذوا طريقهم ، فألقوا أنفسهم في الماء ، فغرق منهم نحو مائة دارع سوى من قتل ، وعزم السلطان عن مصابرتهم ومحاصرتهم ، فتسامع الناس ، فقصدوه واجتمع معه خلق كثير ، فلما رأى الفرنج ذلك عادوا إلى مدينة صور ، فلما عادوا إليها عاد صلاح الدين إلى تبنين ، ثم إلى عكا ينظر حالها ، ثم عاد إلى العسكر والمخيم .

ذكر وقعة ثالثة

لما عاد صلاح الدين إلى العسكر أتاه الخبر أن الفرنج يخرجون من صور للاحتطاب والاحتشاش متبددين ، فكتب إلى من بعكا من

العسكر ، وواعدهم يوم الاثنين ثامن جمادى الآخرة ليلاقوهم من الجانبين ، ورتّب كمناء في موضع من تلك الأودية والشعاب ، واختار جماعة من شجعان عسكره ، وأمرهم أنهم إذا حمل عليهم الفرنج قاتلوهم شيئًا من قتال ، ثم تطاردوا لهم وأروهم العجز عن مقاتلتهم ، فإذا تبعهم الفرنج استجروهم إلى أن يجوزوا مواضع الكمين ، ثم يعطفوا عليهم ويخرج الكمين من خلفهم ، فخرجوا على هذه العزيمة ، فلما تراءى الجمعان والتقت الفئتان أنف فرسان المسلمين أن يظهر عنهم اسم الهزيمة ، وثبتوا ، فقاتلوهم وصبر بعضهم لبعض ، واشتدّ القتال ، وعظم الأمر ، ودامت الحرب ، وطال على الكمناء الانتظار ، فخافوا على أصحابهم ، فخرجوا من مكانهم نحوهم مسرعين وإليهم قاصدين ، فأتوهم وهم في شدّة الحرب ، فازداد الأمر شدّة على شدّة ، وكان فيهم أربعة أمراء من ربيعة طي ، وكانوا يجهلون تلك الأرض ، فلم يسلكوا مسلك أصحابهم ، فسلكوا الوادي ظنًا منهم أنه يخرج بهم إلى أصحابهم وتبعهم بعض مماليك صلاح الدين ، فلما رآهم الفرنج بالوادي علموا أنهم جاهلون، فأتوهم وقاتلوهم ، وأما المملوك ، فإنه نزل عن فرسه وجلس على صخرة وأخذ قوسه بيده وحمى نفسه ، وجعلوا يرمونه بسهام الزنبورك ، وهو يرميهم ، فجرح منهم جماعة وجرحوه جراحات كثيرة ، فسقط فأتوه وهو بآخر رمق ، فتركوه وانصرفوا ، وهم يحسبونه ميتًا ، ثم إن المسلمين جاؤوا من الغد إلى موضعهم ، فرأوا القتلى ورأو المملوك حيًا فحملوه في كساء ، وهو لايكاد يعرف من الجراحات ، فأيسوا من حياته

www.alkottob.com

وأعرضوا عليه الشهادة وبشروه بالشهادة ، فتركوه ثمَّ عادوا إليه فرأوه وقد قويت نفسه ، فأقبلوا عليه بمشروب ، فعوفي ثم كان بعد ذلك لايحضر مشهدًا إلا كان له فيه الأثر العظيم .

ذكر مسير الفرنج إلى عكا ومحاصرتها

لما كثر جمع الفرنج بصور - على ما ذكرناه - من أن صلاح الدين كان كلما فتح مدينة أو قلعة أعطى أهلها الأمان ، وسيرهم إليها بأموالهم ونسائهم وأولادهم ، فاجتمع بها منهم عالم كثير لايعدّ ولايحصى ، ومن الأموال ما لايفنى على كثرة الإنفاق في السنين الكثيرة ، ثم إن الرهبان والقسس وخلقًا كثيرًا من مشهوريهم وفرسانهم لبسوا السواد وأظهروا الحزن على خروج البيت المقدس من أيديهم وأخذهم البطرك الذي كان بالقدس ، ودخل بهم بلاد الفرنج يطوفها بهم جميعا ويستنجدون أهلها ويستجيرون بهم ويحثونهم على الأخذ بثار البيت المقدس وصور والمسيح عليه السلام ، وجعلوا صورة رجل عربي والعربي يضربه ، وقد جعلوا الدماء على صورة المسيح عليه السلام ، وقالوا لهم هذا المسيح يضربه محمّد نبي المسلمين وقد جرحه وقتله ، فعظم ذلك على الفرنج ، فحشروا وحشدوا حتى النساء ، فإنهم كان معهم على عكّا عدّة من النساء يبارزون الأقران - على ما نذكره إن شاء الله تعالى - ومن لم يستطع الخروج استأجر من يخرج عوضه أو يعطيهم مالا على قدر حالهم ، فاجتمع لهم من الرجال والأموال ما لا يتطرق إليه الإحصاء .

ولقد حدثني بعض المسلمين المقيمين بحصن الأكراد ، وهو من أجناد صحابه الذين سلّموه إلى الفرنج قديمًا ، وكان هذا الرجل قد ندم على ما كان منه من موافقة الفرنج في الغارة على بلاد الإسلام والقتال معهم والسعي معهم ، وكان سبب اجتماعي به ما أذكره سنة تسعين وخمسمائة إن شاء الله تعالى قال لي هذا الرجل : إنه دخل مع جماعة من الفرنج من حصن الأكراد إلى البلاد البحرية التي للفرنج ، الروم في أربع شواني يستنجدون . قال : فانتهى بنا التطواف إلى رومية الكبرى ، فخرجنا منها وقد ملأنا الشواني نفرة .

وحدثني بعض الأسرى منهم أن له والدة ليس لها ولد سواه ، ولايملكون من الدنيا غير بيت باعته وجهزته بثمنه ، وسيرته لاستنقاذ البيت المقدس فأخذ أسيرًا ، وكان عند الفرنج من الباعث الديني والنفساني ما هذا حده ، فخرجوا على الصعب والذلول برًا وبحرًا من كل فجّ عميق ، ولولا الله تعالى لطف بالمسلمين ، وأهلك ملك الألمان لما خرج - على ما نذكره - عند خروجه - إلى الشام وإلا كان يقال : إن الشام ومصر كانتا للمسلمين ، فهذا كان سبب خروجهم ، فلمّا اجتمعوا بصور يموج بعضهم في بعض ومعهم الأموال العظيمة ، والبحر يمدهم بالأقوات والذخائر والعدد والرجال من بلادهم ، فضاقت عليهم صور باطنها وظاهرها ، فأرادوا قصد صيدا ، وكان ما ذكرناه فعادوا واتفقوا على قصد عكّا ومحاصرتها ومصابرتها ، فسارعوا إليها بفارسهم وراجلهم وقضهم وقضيضهم ، ولزموا البحر في مسيرهم لايفارقونه في السهل والوعر

www.alkottob.com

الضيق والسعة ، ومراكبهم تسير مقابلهم في البحر فيها سلاحهم وذخائرهم ، ولتكون عدّة لهم إن جاءهم ما لاقبل لهم به ركبوا فيها وعادوا ، وكان رحيلهم ثامن رجل ونزولهم على عكّا في منتصفه ، ولما كان سائرين كان يزك المسلمين يتخطفونهم ويأخذون المنفرد منهم ، ولما رحلوا جاء الخبر إلى صلاح الدين برحيلهم ، فسار حتى قاربهم ، ثمّ جمع أمراءه واستشارهم هل يكون المسير محاذاة الفرنج ومقاتلتهم وهم سائرون أو يكون في غير الطريق التي سلكوها ، فقالوا : لا حاجة بنا إلى احتمال المشقة في مسايرتهم ، فإن الطريق وعر وضيق ولا يتهيأ لنا ما نريده منهم ، والرأي أننا نسير في الطريق المهيع ونجتمع عليهم عند عكا فنفرقهم ونمزقهم ، فعلم ميلهم إلى الراحة المعجلة فوافقهم ، وكان رأيه مسايرتهم ومقاتلتهم وهم سائرون ، وقال : إن الفرنج إذ نزلوا لصقوا بالأرض ، فلا يتهيأ لنا إزعاجهم ولا نيل الغرض منهم ، والرأي قتالهم قبل الوصول إلى عكا فخالفوه ، فتبعهم وساروا على طريق كفركنا ، فسبقهم الفرنج ، وكان صلاح الدين قد جعل في مقابل الفرنج جماعة من الأمراء يسايرونهم ويناوشونهم القتال ويتخطفونهم ، ولم يقدم الفرنج عليهم مع قتلهم ، فلو أن العساكر اتبعت رأي صلاح الدين في مسايرتهم ومقاتلتهم قبل نزولهم على عكّا لكان بلغ غرضه وصدهم عنها ، ولكن إذا أراد الله أمرًا هيأ أسبابه ، ولما وصل صلاح الدين إلى عكا رأى الفرنج قد نزلوا عليها من البحر إلى البحر من الجانب الآخر ولم يبق للمسلمين إليها طريق ، فنزل صلاح الدين عليهم وضرب خيمته على تل كيسان ،

وامتدت ميمنته إلى تل الغياظية وميسرته إلى النهر الجاري ، ونزلت الأثقال بصفورية ، وسيّر الكتب إلى الأطراف باستدعاء العساكر ، فأتاه عسكر الموصل وديار بكر وسنجار وغيرها من بلاد الجزيرة ، وأتاه تقي الدين ابن أخيه، وأتاه مظفّر الدين بن زين الدين ، وهو صاحب حرّان والرها وكانت الأمداد تأتي المسلمين في البر وتأتي الفرنج في البحر ، وكان بين الفريقين مدّة مقامهم على عكا حروب كثيرة ما بين صغيرة وكبيرة ، منها اليوم المشهور ، ومنها ما هو دون ذلك ، وما عداها كان قتالاً يسيرًا من بعضهم مع بعض ، فلا حاجة إلى ذكره ، ولما نزل السلطان عليهم لم يقدر على الوصول إليهم ولا إلى عكا حتى انسلخ رجب ، ثم قاتلهم مستهل شعبان فلم ينل منهم ما يريد وبات الناس على تعبية ، فلما كان الغد باكرهم القتال بحدّه وحديده ، واستدار عليهم من سائر جهاتهم من بكرة إلى الظهر ، وصبر الفريقان صبرًا حار له من رآه، فلما كان وقت الظهر حمل عليهم تقي الدين حملة منكرة من الميمنة على من يليه منهم ، فأزاحهم عن مواقفهم ، فركب بعضهم بعضًا لايلوي أخ على أخ ، والتجؤوا إلى من يليهم من أصحابهم واجتمعوا بهم وأخلوا نصف البلد ، وملك تقي الدين مكانهم والتصق بالبلد وصار ما أخلوه بيده ، ودخل المسلمون البلد وخرجوا منه ، واتصلت الطرق وزال الحصن عمن فيه ، وأدخل صلاح الدين إليه من أراد من الرجال ، وما أراد من الذخائر والأموال والسلاح وغير ذلك ، ولو أن المسلمين لزموا قتالهم إلى الليل لبلغوا ما أرادوه ، فإن للصدمة الأولى روعة لكنهم لما نالوا منهم هذا

www.alkottob.com

القدر أخلدوا إلى الراحة وتركوا القتال وقالوا : نباكرهم غدا ونقطع دابرهم ، وكان في جملة من أدخله صلاح الدين إلى عكا من جملة الأمراء حسام الدين أبو الهيجاء السمين ، وهو من أكابر أمراء عسكره ، وهو من الأكراد الخطية من بلد إربل ، وقتل من الفرنج هذا اليوم جماعة كبيرة .

ذكر وقعة اخرى ووقعة العرب

ثمّ أن المسلمين نهضوا إلى الفرنج من الغد ، وهو سادس شعبان عازمين على بذل جهدهم واستنفاد وسعهم في استئصالهم ، فتقدّموا على تعبيتهم ، فرأوا الفرنج حذرين محتاطين قد ندموا على ما فرطوا فيه بالأمس ، وهم قد حفظوا أطرافهم ونواحيهم وشرعوا في حفر خندق يمنع من الوصول إليهم ، فألحّ المسلمون عليهم في القتال ، فلم يتقدّم الفرنج إليهم ولا فارقوا مرابضهم ، فلما رأى المسلمون ذلك عادوا عنهم ، ثمّ إن جماعة من العرب بلغهم أن الفرنج تخرج من الناحية الأخرى إلى الاحتطاب وغيره من أشغالهم ، فمكنوا لهم في معاطف النهر ونواحيه سادس عشر شعبان ، فلما خرج جمع من الفرنج على عادتهم حملت عليهم العرب ، فقتلوهم عن آخرهم وغنموا ما كان معهم وحملوا الرؤوس إلى صلاح الدين ، فأحسن إليهم وأعطاهم الخلع .

ذكر الوقعة الكبرى على عكا

لما كان بعد هذه الوقعة المذكورة بقي المسلمون إلى العشرين من شعبان كل يوم يغادون القتال مع الفرنج ويراوحونه ، والفرنج لايظهرون من معسكرهم ولايفارقونه ، ثم إن الفرنج اجتمعوا للمشورة فقالوا : إن عسكر مصر لم يحضروا الحال مع صلاح الدين هكذا فكيف يكون إذا حضروا ، والرأي أننا نلقى المسلمين غدًا لعلنا نظفر بهم قبل اجتماع العساكر والأمداد إليهم ، وكان كثير من عسكر صلاح الدين غائبًا عنه ، بعضهم مقابل أنطاكية ليردوا غائلة البيمند صاحبها عن أعمال حلب ، وبعضهم في حمص مقابل طرابلس ليحفظ ذلك الثغر أيضًا وعسكر في مقابل صور لحماية ذلك البلد ، وعسكر بمصر يكون بثغر دمياط والاسكندرية وغيرهما ، والذي بقي من عسكر مصر كانوا لم يصلوا لطول بيكارهم - كما ذكرناه قبل - وكان هذا ممّا أطمع الفرنج في الظهور إلى قتال المسلمين ، وأصبح المسلمون على عادتهم منهم من يتقدم إلى القتال ومنهم من هو في خيمته ، ومنهم من قد توجه في حاجته في زيارة صديق وتحصيل ما يحتاج إليه هو وأصحابه ودوابه إلى غير ذلك ، فخرج الفرنج من معسكرهم كأنّهم الجراد المنتشر يدبون على وجه الأرض قد ملؤوها طولاً وعرضًا ، وطلبوا ميمنة المسلمين وعليها تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين ، فلما رأى أن الفرنج نحوه قاصدين حذر هو وأصحابه فتقدموا إليه ، فلما قربوا منه تأخر عنهم ، فلما رأى صلاح الدين الحال ، وهو في القلب أمد تقي الدين برجال من عندهم ليتقوى بهم ، وكان

www.alkottob.com

عسكر ديار بكر وبعض الشرقيين في جناح القلب فلمّا رأى الفرنج قلة الرجال في القلب ، وأن كثيراً منهم قد ساروا نحو الميمنة مددا لهم عطفوا على القلب ، فحملوا حملة رجل واحد ، فاندفعت العساكر بين أيديهم منهزمين ، وثبت بعضهم ، فاستشهد جماعة منهم ، كالأمير مجلى بن مروان والظهير أخي الفقيه عيسى ، وكان والي البيت المقدس قد جمع بين الشجاعة والعلم والدين ، وكالحاجب خليل الهكاري وغيرهم من الشجعان الصابرين في مواطن الحرب ، ولم يبق بين أيديهم في القلب من يردهم فقصدوا التل الذي عليه خيمة صلاح الدين ، فقتلوا من مروا به ونهبوا، وقتلوا عند خيمة صلاح الدين جماعة منهم شيخنا جمال الدين أبو علي بن رواحة الحموي ، وهو من أهل العلم وله شعر حسن وما ورث الشهادة من بعيد ، فإن جده عبدالله بن رواحة صاحب رسول الله ﷺ قتله الروم يوم مؤتة ، وهذا قتله الفرنج يوم عكا ، وقتلوا غيره وانحدروا إلى الجانب الآخر من التل فوضعوا السيف فيمن لقوه ، وكان من لطف الله تعالى بالمسلمين أن الفرنج لم يلقوا خيمة صلاح الدين ولو ألقوها لعلم الناس وصولهم إليها وانهزام العساكر بين أيديهم فكانوا انهزموا أجمعون ، ثمّ إن الفرنج نظروا وراءهم فرأوا ، أمدادهم قد انقطعت عنهم فرجعوا خوفًا أن ينقطعوا عن أصحابهم ، وكان سبب انقطاعهم أن الميمنة وقفت مقابلهم فاحتاج بعضهم يقف مقابلها ، وحملت ميسرة المسلمين على الفرنج فاشتغل المدد بقتال من بها عن الاتصال بأصحابهم وعادوا إلى طرف خنادقهم ، فحملت الميسرة على

الفرنج الواصلين إلى خيمة صلاح الدين صادفوهم وهم راجعون فقاتلوهم، وثار بهم غلمان العسكر ، وكان صلاح الدين لمّا انهزم القلب قد تبعهم يناديهم ويأمرهم بالكرة ومعاودة القتال ، فاجتمع معه منهم جماعة صالحة ، فحمل بهم على الفرنج من وراء ظهورهم وهم مشغولون بقتال الميسرة فأخذتهم سيوف الله من كل جانب ، فلم يفلت منهم أحد بل قتل أكثرهم ، وأخذ الباقون أسرى .

وفي جملة من أسر مقدّم الداوية الذي كان قد أسره صلاح الدين وأطلقه ، فلما ظفر به الآن قتله ، وكانت عدّة القتلى سوى من كان إلى جانب البحر نحو عشرة آلاف قتيل فأمر بهم فألقوا في النهر الذي يشرب الفرنج منه ، وكان عامّة القتلى من فرسان الفرنج ، فإن الرجالة لم يلحقوهم ، وكان في جملة الأسرى ثلاث نسوة فرنجيات كن يقاتلن على الخيل ، فلما أسرن وألقى عنهن السلاح عرفن أنهن نساء وأما المنهزمون من المسلمين فمنهم من رجع من طبريّة ، ومنهم من جاوز الأردن وعاد ، ومنهم من بلغ دمشق ، ولولا أن العساكر تفرقت في الهزيمة لكانوا بلغوا من الفرنج من الاستئصال والإهلاك مرادهم ، على أن الباقين بذلوا جهدهم وجدوا في القتال وصمموا على الدخول مع الفرنج في معسكرهم لعلمهم يفزعون منهم فجاءهم الصريخ بأن رحالهم وأموالهم قد نهبت ، وكان سبب هذا النهب أن الناس لما رأوا الهزيمة حملوا أثقالهم على الدواب ، فثار بهم أوباش العسكر وغلمانه فنهبوه وأتوا عليه ، وكان في عزم صلاح الدين أن يباكرهم القتال والزحف ، فرأى اشتغال الناس بما

www.alkottob.com

ذهب من أموالهم وهم يسعون في جمعها وتحصيلها ، فأمر بالنداء بإحضار ما أخذ فأحضر منه ما ملأ الأرض من المفارش والعيب المملوءة والثياب والسلاح وغير ذلك فرد الجميع على أصحابه ففاته ذلك اليوم ما أراد فسكن روع الفرنج وأصلحوا شأن الباقين منهم .

ذكر رحيل صلاح الدين عن الفرنج وتمكنهم من حصر عكا

لما قتل من الفرنج ذلك العدد الكثير جافت الأرض من نتن ريحهم وفسد الهواء والجو ووجدت الأمزجة فسادا وانحرف مزاج صلاح الدين وحدث له قولنج مبرح ، وكان يعتاده فحضر عنده الأمراء ، وأشاروا عليه بالانتقال من ذلك الموضع وترك مضايقة الفرنج وحسنوه له ، وقالوا : قد ضيقنا على الفرنج ، ولو أرادوا الانفصال عن مكانهم لم يقدروا والرأي أننا نبعد عنهم بحيث يتمكنون من الرحيل والعود ، فإن رحلوا فقد كفينا شرهم وكفوا شرنا وإن أقاموا عاودنا القتال ورجعنا معهم إلى ما نحن فيه، ثمّ إن مزاجك منحرف والألم شديد ، ولو وقع إجاف لهلك الناس والرأي على كل تقدير البعد عنهم ووافقهم الأطباء على ذلك إليه إلى ما يريد الله أن يفعله ﴿ **وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال** ﴾ فرحلوا إلى الخروبة رابع شهر رمضان وأمر من بعكا من المسلمين بحفظها وإغلاق أبوابها والاحتياط ، وأعلمهم بسبب رحيله فلما رحل هو وعساكره أمن الفرنج وانبسطوا في تلك الأرض وعادوا وحصروا عكا وأحاطوا بها من البحر إلى البحر ومراكبهم أيضًا في البحر

تحصرها ، وشرعوا في حفر الخندق وعمل السور من التراب الذي يخرجونه من الخندق وجاؤوا بما لم يكن في الحساب وكان اليزك كل يوم يوافقهم ، وهم لايقاتلون ولايتحركون إنما هم معتمدون بحفر الخندق والسور عليهم ليتحصنوا به من صلاح الدين إن عاد إلى قتالهم ، فحينئذ ظهر رأي المشيرين بالرحيل وكان اليزك كل يوم يخبرون صلاح الدين بما يصنع الفرنج ويعظّمون الأمر عليه وهو مشغول بالمرض لايقدر على النهوض للحرب ، وأشار عليه بعضهم بأن يرسل العساكر جميعها إليها ليمنعهم من الخندق والسور ويقاتلوهم ويتخلّف هو عنهم ، فقال : إذا لم أحضر معهم لايفعلون شيئًا وربما كان من الشر أضعاف ما نرجوه من الخير ، فتأخَّر الأمر إلى أن عوفي ، فتمكَّن الفرنج وعملوا ما أرادوا وأحكموا أمورهم ، وحصنوا نفوسهم بما وجدوا إليه السبيل ، وكان من بعكّا يخرجون إليهم كل يوم ويقاتلونهم وينالون منهم بظاهر البلد .

ذكر وصول عسكر مصر والأسطول المصرى فى البحر

في منتصف شوال وصلت العساكر المصرية ومقدمها الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب ، فلمّا وصل قويت نفوس الناس به وبمن معه واشتدت ظهورهم ، واحضر معه من آلات الحصار من الدرق والطارقيات والنشاب والأقواس شيئًا كثيرًا ، ومعهم من الرجالة الجمّ الغفير ، وجمع صلاح الدين من البلاد الشاميّة رجالا كثيرًا ، وهو على عزم الزحف إليهم بالفارس والراجل ، ووصل بعده الأسطول المصرى

www.alkottob.com

ومقدمه الأمير لؤلؤ ، وكان شهمًا شجاعًا مقدامًا خبيرًا بالبحر والقتال فيه ميمون النقيبة ، فوصل بغتة فوقع على بطسة كبيرة للفرنج فغنمها وأخذ منها أموالاً كثيرة وميرة عظيمة ، فأدخلها إلى عكار ، فسكنت نفوس من بها بوصول الأسطول وقوي جنانهم .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة في صفر خطب لوليّ العهد أبي نصر محمد بن الخليفة الناصر لدين الله ببغداد ونثرت الدنانير والدراهم وأرسل إلى البلاد في إقامة الخطبة ففعل ذلك .

وفيها في شوال ملك الخليفة تكريت ، وسبب ذلك أن صاحبها وهو الأمير عيسى قتله إخوته وملكوا القلعة بعده ، فسير الخليفة إليهم عسكرًا ، فحصروها وتسلموها ، ودخل أصحابه إلى بغداد فأعطوا أقطاعا .

وفيها في صفر فتح الرباط الذي بناه الخليفة بالجانب الغربي من بغداد وحضر الخلق العظيم فكان يومًا مشهودًا .

وفي هذه السنة في رمضان مات شرف الدين أبو سعد عبدالله بن محمد بن هبة الله ابن أبي عصرون الفقيه الشافعي بدمشق ، وكان قاضيها وأضر وولي القضاء بعده ابنه ، وكان الشيخ من أعيان الفقهاء الشافعية.

وفيها في ذي القعدة توفّي الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري بالخروبة مع صلاح الدين ، وهو من أعيان أمراء عسكره ومن قدماء الأسدية وكان

فقهيًا جنديًا شجاعًا كريمًا ذا عصبية ومروءة وهو من أصحاب الشيخ الإمام أبي القاسم بن البرزي تفقه عليه بجزيرة ابن عمر ، ثم اتصل بأسد الدين شيركوه ، فصار إمامًا له ، فرأى من شجاعته ما جعل له أقطاعًا ، وتقدّم عند صلاح الدين تقدمًا عظيمًا .

وفيها في صقر توفّي شيخنا أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن وهبان المعروف بابن أفضل الزمان بمكة ، وكان رحمه الله عالمًا متبحرًا في علوم كثيرة خلاف فقه مذهبه والأصولين والحساب والفرائض والنجوم والهيئة والمنطق وغير ذلك ، وختم أعماله بالزهد ولبس الخشن ، وأقام بمكة - حرسها الله تعالى - مجاورًا فتوفّى بها وكان من أحسن الناس صحبة وخلقًا .

وفيها في ذي القعدة مات أبو طالب المبارك بن المبارك الكرخي مدرس النظامية ، وكان من أصحاب أبي الحسن بن الخل ، وكان صالحًا خيرًا له عند الخليفة والعامة حرمة عظيمة وجاه عريض ، وكان حسن الخط يضرب به المثل .

www.alkottob.com

ثم دخلت سنة ست وثمانين وخمسمائة
ذكر وقعة الفرنج واليزك وعود صلاح الدين إلى منازلة الفرنج

قد ذكرنا رحيل صلاح الدين عن عكّا إلى الخروبة لمرضه ، فلما برا أقام بمكانه إلى أنْ ذهب الشتاء ، وفي مدّة مقامه بالخروبة كان يزكه وطلائعه لاتنقطع عن الفرنج ، فلمّا دخل صفر من سنة ست وثمانين وخمسمائة سمع الفرنج أنّ صلاح الدين قد سار للصيد ورأى العسكر الذي في اليزك عندهم قليلاً ، وأنّ الوحل الذي في مرج عكّا كثير يمْنع من سلوكه من أراد أن ينجد اليزك ، فاغتنموا ذلك ، وخرجوا من خندقهم على اليزك وقت العصر ، فقاتلهم المسلمون وحموا أنفسهم بالنشاب ، وأحجم الفرنج عنهم حتى فنى نشابهم ، فحملوا عليهم حينئذ حملة رجل واحد ، فاشتد القتال وعظم الأمر ، وعلم المسلمون أنه لاينجيهم إلا الصبر وصدق القتال ، فقاتلوا قتال مستقتل إلى أن جاء الليل ، وقتل من الفريقين جماعة كثيرة ، وعاد الفرنج إلى خندقهم ، ولما عاد صلاح الدين إلى المعسكر سمع خبر الوقعة ، فندب الناس إلى نصر إخوانهم ، فأتاه الخبر أن الفرنج عادوا إلى خندقهم ، فأقام ، ثمّ إنه رأى الشتاء قد ذهب ، وجاءته العساكر من البلاد القريبة منه دمشق وحمص وحماه وغيرها ، فتقدم من الخروبة نحو عكّا ، فنزل بتل كيسان وقاتل

الفرنج كل يوم ليشغلهم عن قتال من بعكّا من المسلمين فكانوا يقاتلون الطائفتين ولايسأمون .

ذكر إحراق الأبراج ووقعة الأسطول

كان الفرنج في مدّة مقامهم على عكّا قد عملوا ثلاثة أبراج من الخشب عالية جدًا ، طول كل برج منها خمس طبقات ، كل طبقة مملوءة من المقاتلة وقد جمع أخشابها من الجزائر ، فإنّ مثل هذه الأبراج العظيمة لايصلح لها من الخشب إلا القليل النادر ، وغشّوها بالجلود والخل والطين والأدوية التي تمنع النار من إحراقها ، وأصلحوا الطرق لها ، وقدّموها نحو مدينة عكّا من ثلاث جهات ، وزحفوا بها من العشرين من ربيع الأول ، فأشرفت على السور وقاتل من بها من عليه فانكشفوا وشرعوا فى طم خندقها ، فأشرف البلد على أن يملك عنوة وقهرًا ، فأرسل أهله إلى صلاح الدين إنسانًا سبح في البحر ، فأعلمه ما هم فيه من الضيق ، وما قد أشرفوا عليه من أخذهم وقتلهم ، فركب هو وعساكره ، وتقدموا إلى الفرنج ، وقاتلهم من جميع جهاتهم قتالاً عظيمًا دائمًا يشغلهم عن مكاثرة البلد ، فافترق الفرنج فرقتين فرقة تقاتل صلاح الدين وفرقة تقاتل أهل عكّا إلا أن الأمر قد خفّ عمن بالبلد ، ودام القتال ثمانية أيام متتابعة آخرها الثامن والعشرون من الشهر ، وسئم الفريقان القتال وملوا منه لملازمته ليلا ونهارًا ، والمسلمون قد تيقنوا استيلاء الفرنج على البلد لما رأوا من عجز من فيه عن دفع الأبراج فإنهم لم يتركوا حيلة إلا عملوها ، فلم

www.alkottob.com

يفدْ ذلك ولم يغنِ عنهم شيئًا وتابعوا رمي النفط الطيار عليهم فلم يؤثر فيها ، فأيقنوا بالبوار والهلاك ، فأتاهم الله بنصر من عنده ، وأذن من إحراق الأبراج .

وكان سبب ذلك أن إنسانًا من أهل دمشق كان مولعًا بجمع آلات النفاطين ، وتحصيل عقاقير تقوي عمل النار ، فكان من يعرفه يلومه على ذلك وينكره عليه ، وهو يقول : هذه حالة لم أباشرها بنفسي إنما أشتهي معرفتها ، وكان بعكّا لأمر يريده الله ، فلما رأى الأبراج قد نصبت على عكّا شرع في عمل ما يعرفه من الأدوية المقوّية للنار بحيث لايمنعها شيء من الطين والخل وغيرهما ، فلمّا فرغ منها حضر عند الأمير قراقوش ، وهو متولّي الأمور بعكّا ، والحاكم فيها ، وقال له : يأمر المنجنيقي أن يرمي في المنجنيق المحاذي لبرج من هذه الأبراج ما أعطيه حتى أحرقه ، وكان عند قراقوش من الغيظ والخوف على البلد ومن فيه ما يكاد يقتله ، فازداد غيظًا بقوله ، وحرد عليه فقال له : قد بالغ أهل هذه الصناعة في الرمي بالنفط وغيره فلم يفلحوا ، فقال له من حضر : لعل الله تعالى قد جعل الفرج على يد هذا ، ولايضرنا أن نوافقه على قوله ، فأجابه إلى ذلك ، وأمر المنجنيقي بامتثال أمره ، فرمى عدّة قدور نفطًا وأدوية ليس فيها نار ، فكان الفرنج إذا رأوا القدر لايحرق شيئًا يصيحون ويرقصون ويلعبون على سطح البرج ، حتى علم أن الذي ألقاه قد تمكّن من البرج ألقى قدرًا مملوءة وجعل فيها النار ، فاشتعل البرج ، وألقى قدرًا ثانية وثالثة ، فاضطرمت النار في نواحي البرج ، وأعجلت من في طبقاته

الخمس عن الهرب والخلاص ، فاحترق هو ومن فيه ، وكان فيه من الزرديات والسلاح شيء كثير ، وكان طمع الفرنج بما رأوا أن القدور الأولى لاتعمل يحملهم على الطمأنينة وترك السعي في الخلاص حتى عجل الله لهم النار في الدنيا قبل الآخرة ، فلما احترق البرج الأول انتقل إلى الثاني - وقد هرب من فيه لخوفهم - فأحرقه وكذلك الثالث ، وكان يومًا مشهودًا لم يرَ الناس مثله والمسلمون ينظرون ويفرحون ، وقد اسفرّت وجوههم بعد الكآبة فرحًا بالنصر ، وخلاص المسلمين من القتل ، لأنهم ليس فيهم أحد إلا وله في البلد إما نسيب وإما صديق .

وحمل ذلك الرجل إلى صلاح الدين فبذل له الأموال الجزيلة والأقطاع الكثيرة ، فلم يقبل منه الحبة الفرد وقال : إنما عملته لله تعالى ولا أريد الجزاء إلا منه ، وسيّرت الكتبُ إلى البلاد بالبشائر ، وأرسل يطلب العساكر الشرقية ، فأول من أتاه عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي وهو صاحب سنجار وديار الجزيرة ، ثم أتاه علاء الدين ولد عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي سيّره أبوه مقدمًا على عسكره ، وهو صاح الموصل ، ثم وصل زين الدين يوسف صاحب إربل ، وكان كل منهم إذا وصل يتقدّم إلى الفرنج بعسكره ، وينضم إليه غيرهم ويقاتلونهم، ثم ينزلون ، ووصل الأسطول من مصر ، فلما سمع الفرنج بقربه جهّزوا إلى طريقه أسطولاً ليلقاه ويقاتله ، فركب صلاح الدين في العساكر جميعها وقاتلهم من جهاتهم ليشتغلوا بقتاله عن قتال الأسطول ليتمكن من دخول عكّا ، فلم يشتغلوا عن قصده بشيء ، فكان القتال بين

www.alkottob.com

الفريقين براً وبحراً ، وكان يوماً مشهوداً لم يؤرّخ مثله ، وأخذ المسلمون من الفرنج مركبًا فيه من الرجال والسلاح ، وأخذ الفرنج من المسلمين مثل ذلك إلا أن القتل في الفرنج كان أكثر منه في المسلمين ، ووصل الأسطول الإسلامي سالمًا .

ذكر وصول ملك الألمان إلى الشام وموته

في هذه السنة خرج ملك الألمان من بلاده ، وهو نوع من الفرنج من أكثرهم عددًا وأشدهم بأسًا وكان قد ازعجه ملك الإسلام البيت المقدس ، فجمع عساكره وازاح علتهم ، وسار عن بلاد وطريقه على القسطنطينية ، فأرسل ملك الروم بهذا إلى صلاح الدين يعرفه الخبر ويعده أنه لايمكنه من العبور في بلاده ، فلما وصل ملك الألمان إلى القسطنطينية عجز ملكه عن منعه من العبور لكثرة جموعه لكنه منع عنهم الميرة ولم يمكن أحدًا من رعيته من حمل ما يريدونهم إليهم ، فضاقت بهم الأزواد والأقوات وساروا حتى عبروا خليج القسطنطينية ، وساروا على أرض بلاد الإسلام ، وهي مملكة الملك قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن قلمش بن سلجق ، فلما وصلوا إلى أوائلها ثار بهم التركمان الأرج ، فما زالوا يسايرونهم ويقتلون من انفرد ويسرقون ما قدروا عليه ، وكان الزمان شتاء والبرد يكون في تلك البلاد شديدًا والثلج متراكمًا ، فأهلكهم البرد والجوع والتركمان ، فقلّ عددهم ، فلما قاربوا مدينة قونية خرج إليهم الملك قطب الدين ملك شاه بن قلج أرسلان ليمنعهم ، فلم يكن له بهم قوة ، فعاد

إلى قونية ، وبها أبوه قد حجر ولده المذكور عليه ، وتفرق أولاده في بلاده وتغلب كلُّ واحد منهم على ناحية منها ، فلما عاد عنهم قطب الدين أسرعوا السير في أثره فنازلوا قونية وأرسلوا إلى قلج أرسلان هدية وقالوا له : ما قصدنا بلادك ولا أردناها ، وإنما قصدنا البيت المقدس ، وطلبوا منه أن يأذن لرعيته في إخراج ما يحتاجون إليه من قوت وغيره فأذن في ذلك ، فأتاهم ما يريدون ، فشبعوا وتزودوا وساروا ، ثمّ طلبوا من قطب الدين أن يأمر رعيته بالكفّ عنهم وأن يسلم إليهم جماعة من أمرائه رهائن وكان يخافهم ، فسلم إليهم نيفًا وعشرين أميرًا كان يكرههم ، فساروا بهم معهم ولم يمتنع اللصوص وغيرهم من قصدهم والتعرّض إليهم ، فقبض ملك الألمان على من منعه من الأمراء وقيَّدَهم ، فمنهم من هلك في أسره ، ومنهم من فدى نفسه ، وسار ملك الألمان حتى أتى بلاد الأرمن وصاحبها لافون بن اصطفانة بن ليون ، فأمدهم بالأقوات والعلوفات وحكمهم في بلاده ، وأظهر الطاعة لهم ، ثمّ ساروا نحو أنطاكية ، وكان في طريقهم نهر ، فنزلوا عنده ودخل ملكهم إليه ليغتسل فغرق في مكان منه لايبلغ الماء وسط الرجل وكفى الله شره .

وكان معه ولد له فصار ملكًا بعده وسار إلى أنطاكية ، فاختلف أصحابه عليه ، فأحبَّ بعضهم العود إلى بلاده فتخلف عنه وبعضهم مال إلى تمليك أخ له ، فعاد أيضًا وأسار فيمن صحّت نيته له ، فعرضهم وكانوا نيفًا وأربعين ألفًا ، ووقع فيهم الوباء والموت ، فوصلوا إلى انطاكية وكأنهم قد نبشوا من القبور ، فتبرم بهم صاحبها ، وحسّن لهم المسير إلى

www.alkottob.com

الفرنج على عكا ، فساروا على جبلة ولاذقية وغيرهما من البلاد التي ملكها المسلمون ، وخرج أهل حلب وغيرها إليهم وأخذوا منهم خلقًا كثيرًا ومات أكثر من أخذ فبلغوا طرابلس وأقاموا بها أيامًا فكثر فيهم الموت ، فلم يبق منهم إلا نحو ألف رجل ، فركبوا في البحر إلى الفرنج الذين على عكا ، ولما وصلوا ورأوا ما نالهم في طريقهم وما هم فيه من الاختلاف عادوا إلى بلادهم ، فغرقت بهم المراكب ، ولم ينجُ منهم أحد، وكان الملك قلج أرسلان يكاتب صلاح الدين بأخبارهم ويعده أنه يمنعهم من العبور في بلاده ، فلما عبروا وخلفوها أرسل يتعذر بالعجز عنهم لأنّ أولاده حكموا عليه وحجروا عليه وتفرقوا عنه وخرجوا عن طاعته ، وأما صلاح الدين عند وصول الخبر بعبور ملك الألمان ، فإنه استشار أصحابه فأشار كثير منهم عليه بالمسير إلى طريقهم ومحاربتهم قبل أن يتصلوا بمن على عكا ، فقال : بل نقيم إلى أن يقربوا منها ، وحينئذ نفعل ذلك لئلا يستسلم من بعكا من عساكرنا ، لكنه سيّر من عنده من العساكر منها عسكر حلب وجبلية ولاذقية وشيزر وغير ذلك إلى أعمال حلب ليكونوا من أطراف البلاد يحفظونها من عاديتهم ، وكان حال المسلمين كما قال الله عز وجل : ﴿ **إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذا زغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا** ﴾ فكفى الله شرّهم ورد كيدهم في نحرهم، ومن شدة خوفهم أن بعض أمراء صلاح الدين كان له ببلد الموصل قرية ، وكان أخي رحمه الله يتولاها ، فحصل دخلها من حنطة وشعير وتبن ،

فأرسل إليه في بيع الغلة ، فوصل كتابه يقول لاتبع الحبّة الفرد ، واستكثر لنا من التبن ، ثمّ بعد ذلك وصل كتابه يقول تبيع الطعام فما بنا حاجة إليه ، ثم إن ذلك الأمير قدم الموصل فسألناه عن المنع من بيع الغلة ، ثم الإذن فيها بعد مدّة يسيرة ، فقال لما وصلت الأخبار بوصول ملك الألمان أيقنا أننا ليس لنا بالشام مقام فكتبت بالمنع من بيع الغلة لتكون ذخيرة لنا إذا جئنا إليكم ، فلما أهلكهم الله تعالى وأغنى عنها كتبت ببيعها والانتفاع بثمنها .

ذكر وقعة للمسلمين والفرنج على عكا

وفي هذه السنة في العشرين من جمادى الآخرة خرجت الفرنج فارسها وراجلها من وراء خنادقهم وتقدموا إلى المسلمين ، وهم كثير لايحصى عددهم ، وقصدوا نحو عسكر مصر ، ومقدمهم الملك العادل أبو بكر بن أيوب ، وكان المصريون قد ركبوا واصطفوا للقاء الفرنج ، فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديدًا فانحاز المصريون عنهم ، ودخل الفرنج خيامهم ونهبوا أموالهم ، فعطف المصريون عليهم ، فقاتلوهم من وسط خيامهم فأخرجوهم عنها ، وتوجّهت طائفة من المصريين نحو خنادق الفرنج ، فقطعوا المدد عن أصحابهم الذين خرجوا ، وكانوا متصلين كالنمل ، فلما انقطعت إمدادهم ألقوا بأيديهم ، وأخذتهم السيوف من كل ناحية ، فلم ينجُ منهم إلا الشريد ، وقتل منهم مقتلة عظيمة يزيد عدد القتلى على عشرة آلاف قتيل ، وكانت عساكر الموصل قريبة من عسكر مصر ، وكان

www.alkottob.com

مقدمهم علاء الذين خرم شاه بن عز الدين مسعود صاحب الموصل ، فحملوا أيضًا على الفرنج وبالغوا في قتالهم ونالوا منهم نيلاً كثيرًا ، هذا جميعه ولم يباشر القتالَ أحدٌ من الحلقة الخاص التي مع صلاح الدين ولا أحد من الميسرة ، وكان بها عماد الدين زنكي صاحب سنجار وعسكر إربل وغيرهم ، ولما جرى على الفرنج هذه الحادثة خمدت جمرتهم ولانت عريكتهم وأشار المسلمون على صلاح الدين بمباكرتهم القتال ومناجزتهم ، وهم على هذه الحال من الهلع والجزع فاتفق أنه وصله من الغد كتاب من حلب يخبر فيه بموت ملك الألمان ، وما أصاب أصحابه من الموت والقتل والأسر ، وما صار أمرهم إليه من القلة والذلة ، واشتغل المسلمون بهذه البشرى والفرح بها عن قتال من بإزائهم ، وظنّوا أن الفرنج إذا بلغهم هذا الخبر ازدادوا وَهنًا على وهنهم وخوفًا على خوفهم .

فلما كان بعد يومين أتت الفرنج أمداد في البحر مع كند من الكنود البحرية يقال له : الكندهري ابن أخي ملك إفرنسيس لأبيه وابن أخي ملك إنكلتار لأمه ، ووصل معه من الأموال شيء كثير يفوق الإحصاء ، فوصل إلى الفرنج فجند الأجناد وبذل الأموال ، فعادت نفوسهم قوية واطمأنت ، وأخبرهم أن الأمداد واصلة إليهم يتلو بعضها بعضًا ، فتماسكوا وحفظوا مكانهم ، ثمَّ أظهروا أنهم يريدون الخروج إلى لقاء المسلمين وقتالهم ، فانتقل صلاح الدين من مكانه إلى الخروبة في السابع والعشرين من جمادى الآخرة ليتسع المجال ، وكانت المنزلة قد أنتنت بريح القتلى ، ثمّ إن الكندهري نصب منجنيقًا ودبابات وعرادات ، فخرج

من بعكّا من المسلمين فأخذوها وقتلوا عندها كثيرًا من الفرنج ، ثم إن الكندهري بعد أخذ منجنيقاته أراد أن ينصب منجنيقًا ، فلم يتمكّن من ذلك لأن المسلمين بعكّا كانوا يمنعون من عمل ستائر يستتر بها من يرمى من المنجنيق ، فعملا تلا من تراب بالبعد من البلد ، ثم إن الفرنج كانوا ينقلون التل إلى البلد بالتدريج ، ويسترون به ويقربونه إلى البلد ، فلمّا صار من البلد بحيث يصل من عنده حجر منجنيق نصبوا وراءه منجنيقين ، وصار التل سترة لهما ، وكانت الميرة قد قلت بعكا فأرسل صلاح الدين إلى الإسكندرية يأمرهم بإنفاذ الأقوات واللحوم وغير ذلك في المراكب إلى عكا فتأخر إنفاذها فسير إلى نائبه بمدينة بيروت في ذلك ، فسيّر بطسة عظيمة مملوءة من كل ما يريدونه وأمر من بها ، فلبسوا ملبس الفرنج وتشبهوا بهم ورفعوا عليها الصلبان ، فلما وصلوا إلى عكّا لم يشك الفرنج أنها لهم فلم يتعرضوا لها ، فلما حازت ميناء عكّا أدخلها من بها ففرح بها المسلمون وانتعشوا وقويت نفوسهم ، وتبلغوا بما فيها إلى أن أتتهم الميرة من الإسكندرية ، وخرجت ملكة من الفرنج من داخل البحر في نحو ألف مقاتل ، فأخذت بنواحي الإسكندرية وأخذ من معها ، ثمَّ إن الفرنج وصلهم كتاب من بابا وهو كبيرهم الذي يصدرون عن أمره وقوله عندهم كقول النبيين لايخالف والمحروم عندهم من حرمه والمقرب من قربه وهو صاحب رومية الكبرى يأمرهم بملازمة ما هم بصدده ويعلمهم أنه قد أرسل إلى جميع الفرنج يأمرهم بالمسير إلى نجدتهم برًا وبحرًا ، ويعملهم بوصول الأمداد إليهم ، فازداد قوة وطمعًا .

www.alkottob.com

ذكر خروج الفرنج من خنادقهم

لما تتابعت الأمداد إلى الفرنج وجند لهم الكندهري جمعًا كثيرًا بالأموال التي وصلت معه عزموا على الخروج من خنادقهم ومناجزة المسلمين ، فتركوا على عكا من يحصرها ويقاتل أهلها وخرجوا حادي عشر شوال في عدد كالرمل كثرة وكالنّار جمرة ، فلما رأى صلاح الدين ذلك نقل أثقال المسلمين إلى ميمون ، وهو على ثلاثة فراسخ عن عكّا ، وكان قد عاد إليه من فرق من عساكره لما هلك ملك الألمان ، ولقي الفرنج على تعبية حسنة ، وكان أولاده الأفضل علي والظاهر غازي والظافر مما يلي القلب ، وأخوه العادل أبو بكر في الميمنة ، ومعه عساكر مصر ومن انضم إليه ، وكان في الميسرة عماد الدين صاحب سنجار وتقي الدين صاحب حماه ومعز الدين سنجرشاه صاحب جزيرة ابن عمر مع جماعة من أمرائه ، واتفق أن صلاح الدين أخذه مغس كان يعتاده فنصب له خيمة صغيرة على تل مشرف على العسكر ، ونزل فيها ينظر إليهم ، فسار الفرنج شرقي نهر هناك حتى وصلوا إلى رأس النهر ، فشاهدوا عساكر الإسلام وكثرتها فارتاعوا لذلك ، ولقيهم الجالشية وأمطروا عليهم من السهام ما كاد يستر الشمس ، فلما رأوا ذلك تحولوا إلى غربي النهر ولزمهم الجالشية يقاتلونهم والفرنج قد تجمعوا ولزم بعضهم بعضًا ، وكان غرض الجالشية أن تحمل الفرنج عليهم فيلقاهم المسلمون ويلتحم القتال فيكون الفصل ويستريح الناس ، وكان الفرنج قد ندموا على مفارقة خنادقهم ، فلزموا مكانهم وباتوا ليلتهم تلك ، فلما كان الغد عادوا نحو

عكّا ليعتصموا بخندقهم والجالشية في أكتافهم يقاتلونهم تارة بالسيوف وتارة بالرماح وتارة بالسهام ، وكلما قتل من الفرنج قتيل أخذوه معهم لئلا يعلم المسلمون ما أصابهم ، فلولا ذلك الألم الذي حدث بصلاح الدين لكانت هي الفصل ، وإنما الله أمر هو بالغه ، فلما بلغ الفرنج خندقهم ، ولم يكن لهم بعدها ظهور منه عاد المسلمون إلى خيامهم وقد قتلوا من الفرنج خلقًا كثيرًا ، وفي الثالث والعشرين من شوال أيضًا كمن جماعة من المسلمين ، وتعرض للفرنج جماعة أخرى ، فخرج إليهم أربعمائة فارس ، فقاتلهم المسلمون شيئًا من قتال ، وتطاردوا لهم ، وتبعهم الفرنج حتى جازوا الكمين ، فخرجوا عليهم فلم يفلت منهم أحد، واشتد الغلاء على الفرنج حتى بلغت غرارة الحنطة أكثر من مائة دينار صوري ، فصبروا على هذا ، وكان المسلمون يحملون إليهم الطعام من البلدان منهم الأمير أسامة مستحفظ بيروت كان يحمل الطعام وغيره ، ومنهم سيف الدين علي بن أحمد المعروف بالمشطوب كان يحمل من صيدا أيضًا إليهم ، وكذلك من عسقلان وغيرها لولا ذلك لهلكوا جوعًا خصوصًا في الشتاء عند انقطاع مراكبهم عند تهيج البحر .

ذكر تسيير البدل إلى عكا والتفريط فيه حتى أخذت

لما هجم الشتاء وعصفت الرياح خاف الفرنج على مراكبهم التي عندهم لأنها لم تمكن من الميناء ، فسيّروها إلى بلادهم صور والجزائر ، فانفتح الطريق إلى عكّا في البحر فأرسل أهلها إلى صلاح الدين يشكون

www.alkottob.com

الضجر والملالة والسآمة ، وكان بها الأمير حسام الدين أبو الهيجاء السمين مقدمًا على جندها ، فأمر صلاح الدين بإقامة البدل وإنفاذه إليها وإخراج من فيها ، وأمر أخاه الملك العادل بمباشرة ذلك، فانتقل إلى جانب البحر ونزل تحت جبل حيفا وجمع المراكب والشواني ، وكلما جاءه جماعة من العسكر سيّرهم إليها وأخرج عوضهم ، فدخل إليها عشرون أميرًا وكان بها ستون أميرًا فكان الذين دخلوا قليلاً بالنسبة إلى الذين خرجوا ، وأهمل نواب صلاح الدين تجنيد الرجال وإنقاذهم ، وكان على ذلك خزانة ماله قوم من النصارى ، وكانوا إذا جاءهم جماعة قد جندوا تعنتوهم بأنواع شتّى تارة بإقامة معرفة وتارة بغير ذلك ، فتفرق بهذا السبب خلق كثير ، وانضاف إلى ذلك تواني صلاح الدين ووثوقه بنوابه وإهمال النواب ، فانحسر الشتاء والأمر كذلك وعادت مراكب الفرنج إلى عكّا وانقطع الطريق إلا من سابح يأتي بكتاب ، وكان من جملة الأمراء الذين دخلوا إلى عكّا سيف الدين علي بن أحمد المشطوب وعز الدين أرسل مقدم الأسدية بعد جاولي وغيرهم ، وكان دخولهم عكّا أول سنة سبع وثمانين ، وكان قد أشار جماعة على صلاح الدين بأن يرسل إلى من بعكا النفقات الواسعة والذخائر والأقوات الكثيرة ، ويأمرهم بالمقام ، فإنهم قد جرّبوا وتدربوا ، واطمأنت نفوسهم على ما هم فيه ، فلم يفعل، وظن فيهم الضجر والملل وأن ذلك يحملهم على الضجر والفشل ، فكان الأمر بالضد .

ذكر وفاة زين الدين يوسف صاحب إربل ومسير أخيه مظفر الدين إليها

كان زين الدين يوسف بن زين الدين علي صاحب إربل قد حضر عند صلاح الدين بعساكره فمرض ومات ثامن عشر شهر رمضان ، وذكر العماد الكاتب في كتابه البرق الشامي ، قال : جئنا إلى مظفر الدين نعزيه بأخيه ، وظننّا به الحزن ، وليس له أخ غيره ولا ولد يشغله عنه ، فإذا هو في شغل شاغل عن العزاء مهتم بالاحتياط على ما خلفه ، وهو جالس في خيام أخيه المتوفّي ، وقد قبض على جماعة من أمرائه ، واعتقلهم وعجل عليهم ، وما أغفلهم منهم بلد أجي صاحب قلعة خفتيذكان ، وأرسل إلى صلاح الدين يطلب منه إربل لينزل عن حران والرها ، فأقطعه إياها ، وأضاف إليها شهرزور وأعمالها ودربندقرابلي وبني قفجاق ، ولما مات زين الدين كاتب من كان إربل مجاهد الدين قايماز لهواهم فيه وحسن سيرته كان فيهم وطلبوه إليهم ليملكوه ، فلم يجسر هو ولا صاحبه عز الدين أتابك مسعود بن مودود على ذلك خوفًا من صلاح الدين ، وكان أعظم الأسباب في تركها أن عز الدين كان قد قبض على مجاهد الدين ، فتمكن زين الدين من إربل ، ثمّ إنّ عز الدين أخرج مجاهد الدين من القبض وولاه نيابته وقد ذكرنا ذلك أجمع ، فلما ولاه النيابة عنه لم يمكنه ، وجعل معه إنسانًا كان من بعض غلمان مجاهد الدين ، فكان يشاركه في الحكم ، ويحل عليه ما يعقده ، فلحق مجاهد الدين من ذلك غيظ شديد ، فلما طلب إلى إربل قال لمن يثق إليه : لا أفعل لئلا يحكم فيها فلان ويكف يدي عنها ، فجاء مظفر الدين إليها

www.alkottob.com

وملكها وبقي غصّة في حلق البيت الأتابكي لا يقدرون على إساغته وسنذكر ما اعتمده معهم مرّة بعد أخرى إن شاء الله تعالى .

ذكر ملك الفرنج مدينة شلب وعودها إلى المسلمين

في هذه السنة ملك ابن الرنك ، وهو من ملوك الفرنج غرب بلا الأندلس مدينةشلب ، وهي من كبار مدن المسلمين بالأندلس ، واستولى عليها ، فوصل الخبر بذلك إلى الأمير أبي يوسف يعقوب بن يوسف بر عبد المؤمن ، صاحب الغرب والأندلس ، فتجهّز في العساكر الكثيرة ، وسار إلى الأندلس ، وعبر المجاز ، وسيَّر طائفة كثيرة من عسكره في البحر ونازلها وحصرها وقاتل من بها قتالاً شديدًا حتى ذلوا وسألوا الأمان فأمنهم ، وسلموا البلد وعادوا إلى بلادهم ، وسيَّر جيشًا من الموحدين ومعهم جمع كثير من العرب ، ففتحوا أربع مدن كان الفرنج قد ملكوها قبل ذلك بأربعين سنة ، وفتكوا في الفرنج ، فخافهم ملك طليطلة من الفرنج وأرسل يطلب الصلح فصالحه خمس سنين ، وعاد أبو يوسف إلى مراكش ، وامتنع من هذه الهدنة طائفة من الفرنج لم يرضوها ولا أمكنهم إظهار الخلاف ، فبقوا متوقفين حتى دخلت سنة إحدى وتسعين وخمسمائة، فتحركوا ، وسنذكر خبرهم هناك إن شاء الله تعالى .

ذكر الحرب بين غياث الدين وسلطان شاه بخراسان

كان سلطان شاه أخو خوارزم شاه قد تعرّض إلى بلاد غياث الدين

ومعز الدين ملكي الغورية من خراسان ، فتجهّز غياث الدين ، وخرج من فيروزكوه إلى خراسان سنة خمس وثمانين وخمسمائة ، فبقي يتردّد بين بلاد الطالقان وينجده ومرو وغيرها يريد حرب سلطان شاه ، فلم يزل كذلك إلى أن دخلت سنة ست وثمانين ، فجمع سلطان شاه عساكره ، وقصد غياث الدين ، فتصافا ، واقتتلا ، فانهزم سلطان شاه ، وأخذ غياث الدين بعض بلاده ، وعاد إلى غزنة .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة في ربيع الأول تسلم الخليفة الناصر لدين الله حديثة عانة ، وكان سيّر إليها جيشًا حصروها سنة خمس وثمانين ، فقاتلوا عليها قتالاً شديدًا ، ودام الحصار وقتل من الفريقين خلق كثير ، فلما ضاقت عليهم الأقوات سلَّموها على اقطاع عينوها ، ووصل صاحبها وأهلها إلى بغداد وأعطوا أقطاعا ثم تفرّقوا في البلاد ، واشتدت الحاجة بهم حتى رأيت بعضهم وأنه يتعرض بالسؤال إلى بعض خدم الناس نعوذ بالله من زوال نعمته وتحول عافيته .

وفي هذه السنة توفي مسعود بن البادر ، وكان مكثرًا من الحديث حسن الخط خيرًا ثقة .

وفيها توفي أبو حامد محمد بن عبدالله بن القاسم الشهرزورى بالموصل ، كان قاضيًا وقبلها ولي قضاء حلب وجميع الأعمال ، وكان رئيسًا جوادًا ذا مروءة عظيمة يرجع إلى دين وأخلاق .

www.alkottob.com

ثم دخلت سنة سبع وثمانين وخمسمائة
ذكر حصر عز الدين صاحب الموصل الجزيرة

في هذه السنة في ربيع الأول سار أتابك عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي صاحب الموصل إلى جزيرة ابن عمر فحصرها ، وكان بها صاحبها سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود ، وهو ابن اخي عز الدين ، وكان سبب حصره أن سنجر شاه كان كثير الأذى لعمّه عز الدين، والشناعة عليه والمراسلة إلى صلاح الدين في حقه ، تارة يقول : إنه يريد قصد بلادك ، وتارة يقول : إنه يكاتب أعداءك ويحثهم على قصدك إلى غير ذلك من الأمور المؤذية، وعز الدين يصبر على ما يكره لأمور ، تارة للرحم وتارة خوفًا من تسليمها إلى صلاح الدين ، فلما كان في السنة الماضية سار صاحبها إلى صلاح الدين وهو على عكّا في جملة من سار من أصحاب الأطراف ، وأقام عنده قليلاً وطلب دستورًا للعود إلى بلده فقال له صلاح الدين : عندنا من أصحاب الأطراف جماعة منهم عماد الدين صاحب سنجار وغيرها ، وهو أكبر منك ، ومنهم ابن عمك عز الدين وهو أصغر منك وغيرهم ، ومتى فتحت هذا الباب اقتدى بك غيرك ، فلم يلتفت إلى قوله وأصرّ على ذلك ، وكان عند صلاح الدين جماعة من أهل الجزيرة يستغيثون على سنجر شاه لأنه ظلمهم وأخذ أموالهم وأملاكهم ، فكان يخافه لهذا ولم يزل في طلب الإذن في العود

إلى البلد إلى عيد الفطر من سنة ست وثمانين ، فركب تلك الليلة سنجر شاه وجاء إلى خيمة صلاح الدين ، وأذن لأصحابه في المسير فساروا بالأثقال ، وبقي جريدة ، فلمّا وصل إلى خيمة صلاح الدين أرسل يطلب الإذن ، وكان صلاح الدين قد بات محمومًا وقد عرق فلم يمكن أن يأذن له ، فبقي كذلك مترددًا على باب خيمته إلى أن أذن له ، فلما دخل عليه هناه بالعيد وأكب عليه يودعه ، فقال له : ما علمنا بصحّة عزمك على الحركة فتصبر علينا حتى نرسل ما جرت به العادة ، فما يجوز أن تنصرف عنا بعد مقامك عندنا على هذا الوجه ، فلم يرجع وودّعه وانصرف ، وكان تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين قد أقبل من بلده حماه في عسكره ، فكتب إليه صلاح الدين يأمره بإعادة سنجر شاه طوعًا أو كرهًا ، فحكى له عن تقي الدين أنه قال : ما رأيت مثل سنجر شاه لقيته بعقبة فيق ، فسألته عن سبب انصرافه فغالطني فقلت له : سمعت بالحال ولايليق أن تنصرف بغير تشريف السلطان وهديته فيضيع تعبك ، وسألته العود فلم يصغ إلى قولي فكلمني كأنني بعض مماليكه ، فلما رأيت ذلك منه فقلت له : إن رجعت بالتي هي أحسن ؛ وإلا أعدتك كارهًا، فنزل عن دابته وأخذ ذيلي وقال : قد استجرت بك ، وجعل يبكي ، فعجبت من حماقته أولاً وذلته ثانيًا ، فعاد معي ، فلمّا عاد بقي عند صلاح الدين عشرة أيّام وكتب صلاح الدين إلى عز الدين أتابك يأمره بقصد الجزيرة ومحاصرتها ، وأخذها ، وأنه يرسل إلى طريق سنجر شاه ليقبض عليه إذا عاد فخاف عز الدين أن صلاح الدين قد فعل

www.alkottob.com

ذلك مكيدة ليشنع عليه بنكث العهد ، فلم يفعل شيئًا من ذلك بل أرسل إليه يقول أريد خطّك بذلك ومنشورًا منك بالجزيرة ، فترددت الرسل في ذلك إلى أن انقضت سنة ست وثمانين ، فاستقرت القاعدة بينهما ، فسار عز الدين إلى الجزيرة فحصرها أربعة أشهر وأيامًا آخرها شعبان ، ولم يملكها بل استقرت القاعدة بينه وبين سنجر شاه على يد رسول صلاح الدين ، فإنه كان قد أرسل بعد قصدها يقول : إن صاحب سنجار وصاحب إربل وغيرهما قد شفعا في سنجر شاه ، فاستقر الصلح على أن لعز الدين نصف أعمال الجزيرة ، ولسنجر شاه نصفها ، وتكون الجزيرة بيد سنجر شاه من جملة النصف ، وعاد عز الدين إلى الموصل ، وكان صلاح الدين بعد ذلك يقول : ما قيل لي عن أحد شيء من الشر فرأيته إلا كان دون ما يقال فيه إلا سنجرشاه ، فإنه كان يقال لي عنه أشياء استعظمتها ، فلما رأيته صغر في عيني ما قيل .

ذكر عبور تقي الدين الفرات وملكه حران وغيرها من البلاد الجزرية ومسيره إلى خلاط وموته

في هذه السنة في صفر سار تقي الدين من الشام إلى البلاد الجزرية حران والرها ، كان قد أقطعه أياها عمه صلاح الدين بعد أخذها من مظفر الدين مضافًا إلى ما كان له بالشام ، وقرّر معه أنه يقطع البلاد للجند ويعود وهم معه ليتقوى بهم على الفرنج ، فلما عبر الفرات وأصلح حال البلاد سار إلى ميافارقين ، وكانت له ، فلما بلغها تجدّد له طمع في

غيرها من البلاد المجاورة لها ، فقصد مدينة حاني من ديار بكر فحصرها وملكها ، وكان في سبعمائة فارس ، فلما سمع سيف الدين بكتمر صاحب خلاط بملكه حاني جمع عساكره وسار إليه ، فاجتمعت عساكره أربعة آلاف فارس ، فلما التقوا اقتتلوا ، فلم يثبت عسكر خلاط لتقي الدين بل انهزموا وتبعهم تقي الدين ودخل بلادهم ، وكان بكتمر قد قبض على مجد الدين بن رشيق وزير صاحبه شاه أرمن وسجنه في قلعة هناك ، فلمّا انهزم كتب إلى مستحفظ القلعة يأمره بقتل ابن رشيق ، فوصل القاصد وتقي الدين قد نازل القلعة ، فأخذ الكتاب وملك القلعة وأطلق ابن رشيق وسار إلى خلاط فحصرها ، ولم يكن في كثرة من العسكر فلم يبلغ منها غرضا ، فعاد عنها وقصد ملازكرد وحصرها ، وضيّق على من بها وطال مقامه عليها ، فلما ضاق عليهم الأمر طلبوا منه المهلة أيامًا ذكروها ، فأجابهم إليها ومرض تقي الدين ، فمات قبل انقضاء الأجل بيومين وتفرّقت العساكر عنها وحمله ابنه وأصحابه ميتًا إلى ميافارقين ، وعاد بكتمر قوي أمره ، وثبت ملكه بعد أن أشرف على الزوال ، وهذه الحادثة من الفرح بعد الشدة فإن ابن رشيق نجا من القتل وبكتمر نجا من أن يؤخذ .

ذكر وصول الفرنج من الغرب في البحر إلى عكا

وفي هذه السنة وصلت أمداد الفرنج في البحر إلى الفرنج الذين على عكا ، وكان أول من وصل منهم الملك فليب ملك أفرنسيس ، وهو من

www.alkottob.com

أشرف ملوكهم نسبًا وإن كان ملكه ليس بالكثير ، وكان وصوله إليها ثاني عشر ربيع الأول ، ولم يكن في الكثرة التي ظنوها ، وإنما كان معه ست بطس كبار عظيمة ، فقويت به نفوس من على عكا منهم ، ولحوا في قتال المسلمين الذين فيها ، وكان صلاح الدين بشفرعم ، فكان يركب كل يوم ويقصد الفرنج ليشغلهم بالقتال عن مزاحفة البلد ، وأرسل إلى الأمير أسامة مستحفظ بيروت ، يأمره بتجهيز ما عنده من الشواني والمراكب ، وتشحينها بالمقاتلة ، وتسييرها في البحر ليمنع الفرنج من الخروج إلى عكا ، ففعل ذلك وسير الشواني في البحر فصادفت خمسة مراكب مملوءة رجالاً من أصحاب ملك انكلتار الفرنج ، وكان قد سيرهم بين يديه وتأخر هو بجزيرة قبرس ليملكها ، فاقتتلت شواني المسلمين مع مراكب الفرنج ، فاستظهر المسلمون عليهم ، وأخذوهم وغنموا ما معهم من قوت ومتاع ومال وأسروا الرجال .

وكتب أيضًا صلاح الدين إلى من بالقرب من النواب له يأمرهم بمثل ذلك ففعلوا ، وأما الفرنج الذين على عكا ، فإنهم لازموا قتال من بها ونصبوا عليها سبع منجنيقات رابع جمادى الأولى ، فلما رأى صلاح الدين ذلك تحول من شفرعم ونزل عليهم لئلا يتعب العسكر كل يوم في المجيء إليهم والعود عنهم ، فقرب منهم ، وكانوا كلما تحركوا للقتال ركب وقاتلهم من وراء خندقهم ، فكانوا يشتغلون بقتالهم فيخف القتال عمن بالبلد ، ثم وصل ملك إنكلتار ثالث عشر جمادى الأولى ، وكان قد استولى في طريقه على جزيرة قبرس وأخذها من الروم ، فإنه لما وصل

إليها غدر بصاحبها وملكها جميعًا ، فكان ذلك زيادة في ملكه وقوة للفرنج ، فلما فرغ منها سار عنها إلى من على عكا من الفرنج ، فوصل إليهم في خمس وعشرين قطعة كبارًا مملوءة رجالاً وأموالاً ، فعظم به شر الفرنج ، واشتدت نكايتهم في المسلمين ، وكان رجل زمانه شجاعة ومكرًا وجلدًا وصبرًا ، وبلي المسلمون منه بالداهية التي لامثل لها . ولما وردت الأخبار بوصوله أمر صلاح الدين بتجهيز بسطة كبيرة مملوءة من الرجال والعدد والأقوات فتجهزت وسيرت من بيروت ، وفيها سبعمائة مقاتل : فلقيها ملك إنكلتار مصادفة : فقاتلها وصبر من فيها على قتالها فلما أيسوا من الخلاص ونزل مقدم من بها إلى أسفلها ، وهو يعقوب الحلبي مقدم الجندارية يعرف بغلام ابن شقتين ، فخرقها خرقًا واسعًا لئلا يظفر الفرنج بمن فيها وما معهم من الذخائر ، فغرق جميع ما فيها ، وكانت عكا محتاجة إلى رجال ، لما ذكرناه من سبب نقصهم ، ثم إن الفرنج عملوا دبابات وزحفوا بها ، فخرج المسلمون وقاتلوهم بظاهر البلد وأخذوا تلك الكباش ، فلما رأى الفرنج أن ذلك جميعه لاينفعهم عملوا تلا كبيرًا من التراب مستطيلاً ، وما زالوا يقربونه إلى البلد ، ويقاتلون من ورائه لاينالهم من البلد أذى حتى صار على نصف علوه ، فكانوا يستظلون به ويقاتلون من خلفه ، فلم يكن للمسلمين فيه حيلة لا بالنار ولا بغيرها ، فحينئذ عظمت المصيبة على من بعكا من المسلمين ، فأرسلوا إلى صلاح الدين يعرفونه حالهم ، فلم يقدر لهم على نفع .

www.alkottob.com

ذكر ملك الفرنج عكا

في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة استولى الفرنج لعنهم الله على مدينة عكا ، وكان أول وَهْنٍ دخل على من بالبلد ، أن الأمير سيف الدين علي بن أحمد الهكاري المعروف بالمشطوب كان فيها ، ومعه عدة من الأمراء كان هو أمثلهم وأكبرهم ، فخرج إلى ملك أفرنسيس ، وبذل تسليم البلد بما فيه على أن يطلق المسلمين الذين فيه ويمكنهم من اللحاق بسلطانهم ، فلم يجبه إلى ذلك ، فعاد علي بن أحمد إلى البلد ، فوهن من فيه وضعفت نفوسهم وتخاذلوا وأهمتهم أنفسهم ، ثم إن أميرين ممن كان بعكا لما رأوا ما فعلوا بالمشطوب والفرنج لم يجيبوا إلى الأمان اتخذوا الليل جملاً وركبوا في شيء صغير وخرجوا سرًا من أصحابهم ولحقوا بعسكر المسلمين وهم عز الدين أرسل الأسدي وابن عز الدين جاولي وسنقر الوشاقي ، ومعهم غيرهم ، فلما أصبح الناس ورأوا ذلك ازدادوا وهنًا إلى وهنهم وضعفًا إلى ضعفهم ، وأيقنوا بالعطب ، ثم إن الفرنج أرسلوا إلى صلاح الدين في معنى تسليم البلد ، فأجابهم إلى ذلك والشرط بينهم أن يطلق من أسراهم بعدد من في البلد ليطلقوا هم من بعكا وأن يسلم إليهم صليب الصلبوت ، فلم يقنعوا بما بذل ، فأرسل إلى من بعكا من المسلمين يأمرهم أن يخرجوا من عكا يدًا واحدة ويتركوا البلد بما فيه ، ووعدهم أنه يتقدم إلى تلك الجهة التي يخرجون منها بعساكره ، ويقاتل الفرنج فيها ليلحقوا به ، فشرعوا في ذلك واشتغل كل منهم باستصحاب ما يملكه ، فما فرغوا من أشغالهم حتى أسفر الصبح ، فبطل

ما عزموا عليه لظهوره ، فلما عجز الناس من حفظ البلد زحف إليهم الفرنج بحدهم وحديدهم ، فظهر من بالبلد على سوره يحركون أعلامهم ليراها المسلمون ، وكانت هي العلامة إذا اخترمهم أمر ، فلما رأى المسلمون ذلك ضجوا بالبكاء والعويل ، وحملوا على الفرنج من جميع جهاتهم طلبًا منهم أن الفرنج يشغلون عن الذين بعكا وصلاح الدين يحرضهم ، وهو في أولهم ، وكان الفرنج قد خفوا عن خنادقهم ومالوا إلى جهة البلد ، فقرب المسلمون من خنادقهم حتى كادوا يدخلونها عليهم ويضعون السيف فيهم ، فوقع الصوت فعاد الفرنج ومنعوا المسلمين ، وتركوا في مقابلة من بالبلد من يقاتلهم ، فلما رأى المشطوب أن صلاح الدين لايقدر على نفع ولايدفع عنهم ضرًا خرج إلى الفرنج ، وقرر معهم تسلم البلد وخروج من فيه بأموالهم وأنفسهم ، وبذل لهم عن ذلك مائتي ألف دينار وخمسمائة أسير من المعروفين ، وإعادة صليب الصلبوت وأربعة عشر ألف دينار للمركيس صاحب صور ، فأجابوه إلى ذلك وحلفوا له عليه ، وأن يكون مدة تحصيل المال والأسرى إلى شهرين ، فلما حلفوا له سلم البلد إليهم ودخلوه سلمًا فلما ملكوه غدروا واحتاطوا على من فيه من المسلمين وعلى أموالهم وحبسوهم ، وأظهروا أنهم يفعلون ذلك ليصل إليهم ما بذل لهم ، وراسلوا صلاح الدين في إرسال المال والأسرى والصليب حتى يطلقوا من عندهم ، فشرع في جمع المال ، وكان هو الأمان له إنما يخرج ما يحصل إليه من دخل البلاد أولاً بأول ، فلما اجتمع عنده من المال مائة ألف دينار جمع الأمراء واستشارهم ، فأشاروا

www.alkottob.com

بأن لايرسل شيئًا حتى يعاود يستحلفهم على إطلاق أصحابه ، وأن يضمن الداوية ذلك لأنهم أهل دين يرون الوفاء ، فراسلهم صلاح الدين في ذلك فقال الداوية : لانحلف ولا نضمن لأننا نخاف غدر من عندنا ، وقال ملوكهم : إذا سلمتم إلينا المال والأسرى والصليب ، فلنا الخيار فيمن عندنا ، فحينئذ علم صلاح الدين عزمهم على الغدر ، فلم يرسل إليهم شيئًا ، وأعاد الرسالة إليهم ، وقال : نحن نسلم إليكم هذا المال والأسرى والصليب ونعطيكم رهنًا على الباقي ، وتطلقون أصحابنا ، وتضمن الداوية الرهن ويحلفون على الوفاء لهم ، فقالوا : لانحلف إنما نرسل المائة ألف دينار التي حصلت والأسرى والصليب ، ونحن نطلق من أصحابكم من نريد ونترك من نريد حتى يجيء باقي المال ؛ فعلم الناس حينئذ غدرهم ، وإنما يطلقون غلمان العسكر والفقراء والأكراد ومن لايؤبه له ويمسكون عندهم الأمراء وأرباب الأموال ويطلبون منهم الفداء ، فلم يجبهم السلطان إلى ذلك ، فلما كان يوم الثلاثاء السابع والعشرين من رجب ركب الفرنج وخرجوا إلى ظاهر البلد بالفارس والراجل ، وركب المسلمون إليهم وقصدوهم ، وحملوا عليهم فانكشفوا عن مواقفهم، وإذ أكثر من كان عندهم من المسلمين قتلى قد وضعوا فيهم السيف واستبقوا الأمراء والمقدمين ومن كان له مال وقتلوا من سواهم من سوادهم وأصحابهم ومن لا مال له ، فلما رأى صلاح الدين ذلك تصرف في المال الذي كان جمعه وسير الأسرى والصليب إلى دمشق .

ذكر رحيل الفرنج إلى ناحية عسقلان وتخريبها

لما فرغ الفرنج - لعنهم الله - من إصلاح أمر عكا برزوا منها في الثامن والعشرين من رجب ، وساروا مستهل شعبان نحو حيفا مع شاطىء البحر لايفارقونه ، فلما سمع صلاح الدين برحيلهم نادى في عسكره بالرحيل فساروا ، وكان على اليزك ذلك اليوم الملك الأفضل ولد صلاح الدين ، ومعه سيف الدين إيازكوش وعز الدين جورديك وعدة من شجعان الأمراء ، فضايقوا الفرنج في مسيرهم وأرسلوا عليهم من السهام ما كان يحجب الشمس ، ووقعوا على ساقة الفرنج ، فقتلوا منها جماعة وأسروا جماعة ، وأرسل الأفضل إلى والده يستمده ويعرفه الحال ، فأمر العساكر بالمسير إليه ، فاعتذروا بأنهم ما ركبوا باهبة الحرب وإنما كانوا على عزم المسير لاغير فبطل المدد وعاد ملك الإنكلتار إلى ساقة الفرنج ، فحماها وجمعهم وساروا حتى أتوا حيفا ، فنزلوا بها ونزل المسلمون يقيمون قرية بالقرب منهم ، وأحضر الفرنج من عكا عوض من قتل منهم وأسر ذلك اليوم وعرض ما هلك من الخيل ، ثم ساروا إلى قيسارية والمسلمون يسايرونهم ويتحفظون منهم من قدروا عليه ، فيقتلونه لأن صلاح الدين كان قد أقسم أنه لايظفر بأحد منهم إلا قتله بمن قتلوا ممن كان بعكا ، فلما قاربوا قيسارية لاصقهم المسلمون وقاتلوهم أشد قتال فنالوا منهم نيلاً كثيرًا ونزل الفرنج بها ، وبات المسلمون قريبًا منهم ، فلما نزلوا خرج من الفرنج جماعة فأبعدوا عن جماعتهم ، فأوقع بهم المسلمون الذين

www.alkottob.com

كانوا في اليزك فقتلوا منهم وأسروا منهم ، ثم ساروا من قيسارية[1] إلى أرسُوف[2] ، وكان المسلمون قد سبقوهم إليها ولم يمكنهم مسايرتهم لضيق الطريق ، فلما وصل الفرنج إليهم حمل المسلمون عليهم حملة منكرة ألحقوهم بالبحر ودخله بعضهم ، فلما رأى الفرنج ذلك اجتمعوا ، وحملت الخيالة على المسلمين حملة رجل واحد ، فولوا منهزمين لايلوي أحد على أحد وكان كثير من الخيالة والسوقة قد ألفوا القيام وقت الحرب قريبًا من المعركة ، فلما كان ذلك اليوم كانوا على حالهم ، فلما انهزم المسلمون عنهم قتل منهم كثير والتجأ المنهزمون إلى القلب وفيه صلاح الدين ، فلو علم الفرنج أنها هزيمة لتبعتهم واشتهرت الهزيمة وهلك المسلمون لكن كان بالقرب من المسلمين شعرة كثيرة الشجر فدخلوها وظنها الفرنج مكيدة ، فعادوا وزال عنهم ما كانوا فيه من الضيق ، وقتل من الفرنج كند كبير من طواغيتهم ، وقتل من المسلمين مملوك لصلاح الدين اسمه أياز الطويل ، وهو من الموصوفين بالشجاعة والشهامة لم يكن في زمانه مثله فلما نزل الفرنج نزل المسلمون وأعنة خيلهم بأيديهم ، ثم سار الفرنج إلى يافا ، فنزلوها ولم يكن بها أحد من المسلمين فملكوها ، ولما كان من المسلمين بأرسوف من الهزيمة ، ما ذكرناه ، سار صلاح الدين عنهم إلى الرملة واجتمع بأثقاله بها وجمع الأمراء ، واستشارهم فيما

(١) قَيْسارِيَة : بلد على ساحل بحر الشام تعدّ في أعمال فلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة أيام .

(٢) أرسوف : مدينة على ساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا .

يفعل ، فأشاروا عليه بتخريب عسقلان وقالوا له : قد رأيت ما كان منا بالأمس وإذا جاء الفرنج إلى عسقلان ووقفنا في وجوههم نصدهم عنها فهم لاشك يقاتلوننا لننزاح عنها وينزلون عليها ، فإذا كان ذلك عدنا إلى مثل ما كنا عليه على عكا ويعظم الأمر علينا لأن العدو قد قوي بأخذ عكا وما فيها من الأسلحة وغيرها ونحن قد ضعفنا بما خرج عن أيدينا ، ولم تطل المدة حتى نستجد غيرها ، فلم تسمح نفسه بتخريبها وندب الناس إلى دخولها وحفظها ، فلم يجبه أحد إلى ذلك وقالوا : إن أردت حفظها فادخل أنت معنا أو بعض أولادك الكبار ، وإلا فما يدخلها منا أحد لئلا يصيبنا ما أصاب أهل عكا ، فلما رأى الأمر كذلك سار إلى عسقلان وأمر بتخريبها تاسع عشر شعبان ، وألقيت حجارتها في البحر ، وهلك فيها من الأموال والذخائر التى للسلطان والرعية ما لايمكن حصره ، وعفى أثرها حتى لايبقى للفرنج في قصدها مطمع ، ولما سمع الفرنج بتخريبها أقاموا مكانهم ولم يسيروا إليها .

وكان المركيس - لعنه الله - لما أخذ الفرنج عكا قد أحس من ملك إنكلتار بالغدر به ، فهرب من عنده إلى مدينة صور ، وهي له وبيده ، وكان رجل الفرنج رأيا وشجاعة وكل هذه الحروب هو أثارها ، فلما خربت عسقلان أرسل إلى ملك إنكلتار يقول له : مثلك لاينبغي أن يكون ملكًا ، ويتقدم على الجيوش تسمع أن صلاح الدين قد خرب عسقلان وتقيم مكانك يا جاهل لما بلغك أنه قد شرع في تخريبها كنت سرت إليه مُجدًا ، فرحلته وملكتها صفوا عفوًا بغير قتال ولا حصار ، فإنه

www.alkottob.com

ما خربها إلا وهو عاجز عن حفظها ، وحق المسيح لو أنني معك كانت عسقلان اليوم بأيدينا لم يخرب منها غير برج واحد ، فلما خربت عسقلان رحل صلاح الدين عنها ثاني شهر رمضان ، ومضى إلى الرملة فخرب حصنها وخرب كنيسة لدّ ، وفي مدة مقامه لتخريب عسقلان كانت العساكر مع الملك العادل أبي بكر بن أيوب تجاه الفرنج ، ثم سار صلاح الدين إلى القدس بعد تخريب الرملة ، فاعتبره وما فيه من سلاح وذخائر، وقرر قواعده وأسبابه وما يحتاج إليه وعاد إلى المخيم ثامن رمضان ، وفي هذه الأيام خرج ملك إنكلتار من يافا ، ومعه نفر من الفرنج في معسكرهم ، فوقع به نفر من المسلمين فقاتلوهم قتالاً شديدًا ، وكاد ملك إنكلتار يؤسر ففداه بعض أصحابه بنفسه ، فتخلص الملك وأسر ذلك الرجل ، وفيها أيضًا كانت وقعة بين طائفة من المسلمين وطائفة من الفرنج انتصر فيها المسلمون .

ذكر رحيل الفرنج إلى نطرون

لما رأى صلاح الدين أن الفرنج قد لزموا يافا ، ولم يفارقوها وشرعوا في عمارتها رحل من منزلته إلى النطرون ثالث عشر رمضان وخيم به ، فراسله ملك إنكلتار يطلب المهادنة ، فكانت الرسل تتردّد إلى الملك العادل أبي بكر بن أيوب أخي صلاح الدين ، فاستقرت القاعدة أن ملك إنكلتار يزوج أخته من العادل ، ويكون القدس وما بأيدي المسلمين من بلاد الساحل للعادل ، ويكون عكا وما بيد الفرنج من البلاد لأخت

إنكلتار ، مضافًا إلى مملكة كانت لها داخل البحر قد ورثتها من زوجها ، وأن يرضى الداوية بما يقع الاتفاق عليه ، فعرض العادل ذلك على صلاح الدين فأجاب إليه ، فلما ظهر الخبر اجتمع القسيسون والأساقفة والرهبان إلى أخت إنكلتار وأنكروا عليها ، فامتنعت من الإجابة ، وقيل كان المانع منه غير ذلك - والله أعلم - وكان العادل وملك إنكلتار يجتمعان بعد ذلك ويتجاريان حديث الصلح ، وطلب من العادل أن يسمعه غناء المسلمين ، فأحضر له مغنية تضرب بالجنك ، فغنت له ، فاستحسن ذلك ولم يتم بينهما صلح ، وكان ملك إنكلتار يفعل ذلك خديعة ومكرًا ، ثم إن الفرنج أظهروا العزم على قصد بيت المقدس ، فسار صلاح الدين إلى الرملة جريدة ، وترك الأثقال بالنطرون وقرب من الفرنج ، وبقي عشرين يومًا ينتظرهم ، فلم يبرحوا ، فكان بين الطائفتين مدة المقام عدة وقعات في كلها ينتصر المسلمون على الفرنج ، وعاد صلاح الدين إلى النطرون ، ورحل الفرنج من يافا إلى الرملة ثالث ذي القعدة على عزم قصد البيت المقدس ، فقرب بعضهم من بعض ، فعظم الخطب واشتد الحذر ، فكان كل ساعة يقع الصوت في العسكرين من بعض ، فعظم الخطب واشتد الحذر ، فكان كل ساعة يقع الصوت في العسكرين باللقاء فلقوا من ذلك شدة شديدة ، وأقبل الشتاء وحالت الأحوال والأمطار بينهما .

ذكر مسير صلاح الدين إلى القدس

لما رأى صلاح الدين أن الشتاء قد هجم ، والأمطار متوالية متتابعة

www.alkottob.com

والناس منها في ضنك وحرج ، ومن شدة البرد ولبس السلاح والسهر في تعب دائم ، وكان كثير من العساكر قد طال ببكارها ، فأذن لهم في العود إلى بلادهم للاستراحة والإراحة ، وسار هو إلى البيت المقدس فيمن بقى معه ، فنزلوا جميعًا داخل البلد فاستراحوا مما كانوا فيه ، ونزل هو بدار الأقصى مجاور بيعة قمامة ، وقدم إليه عسكر مصر مقدمهم الأمير أبو الهيجاء السمين ، فقويت نفوس المسلمين بالقدس ، وسار الفرنج من الرملة إلى النطرون ثالث ذي الحجة على عزم قصد القدس ، فكانت بينهم وبين يزك والمسلمين وقعات أسر المسلمين في وقعة منها نيفا وخمسين فارسًا من مشهوري الفرنج وشجعانهم ، وكان صلاح الدين لما دخل القدس أمر بعمارة سوره ، وتجديد ما رث منه ، فأحكم الموضع الذي ملك البلد منه وأتقنه وأمر بحفر خندق خارج الفصيل ، وسلم كل برج إلى أمير يتولى عمله ، فعمل ولده الأفضل من ناحية باب عمود إلى باب الرحمة وأرسلنا أتابك عز الدين مسعود صاحب الموصل جماعة من الجصاصين لهم في قطع الصخر اليد الطولى ، فعملوا له هناك برجا وبدنة، وكذلك جميع الأمراء ، ثم إن الحجارة قلّت عند العمالين ، فكان صلاح الدين رحمه الله يركب وينقل الحجارة بنفسه على دابته من الأمكنة البعيدة فيقتدى به العسكر ، فكان يجمع عنده من العمالين في اليوم الواحد من يعملون قدر عدة أيام .

ذكر عود الفرنج إلى الرملة

في العشرين من ذي الحجة عاد الفرنج إلى الرملة ، وكان سبب عودهم أنهم كانوا ينقلون ما يريدونه من الساحل ، فلما أبعدوا عنه كان المسلمون يخرجون على من يجلب لهم الميرة ، فيقطعون الطريق ويغنمون ما معهم ، ثم إن ملك إنكلتار قال لمن معه من الفرنج الشاميين ، صوّروا لي مدينة القدس فإني ما رأيتها ، فصوروها له ، فرأى الوادي يحيط بها ما عدا موضعاً يسيرًا من جهة الشمال ، فسأل عن الوادي وعن عمقه ، فأخبر أنه عميق وعر المسالك ، فقال : هذه مدينة لايمكن حصرها مهما كان صلاح الدين حيًا وكلمة المسلمين مجتمعة ، لأننا إن نزلنا في الجانب الذي يلي المدينة بقيت سائر الجوانب غير محصورة ، فيدخل إليهم منها الرجال ، الذخائر وما يحتاجون إليه ، وإن نحن افترقنا ، فنزل بعضنا من جانب الوادي ، وبعضنا من الجانب الآخر جمع صلاح الدين أصحابه وواقع إحدى الطائفتين ، ولم يكن للطائفة الأخرى إنجاد أصحابهم ، لأنهم إن فارقوا مكانهم خرج مَنْ بالبلد من المسلمين فغنموا ما فيه ، وإن تركوا فيه من يحفظه وساروا نحو أصحابهم ، فإلى أن يتخلصوا من الوادي ، ويلحقوا بهم قد فرغ صلاح الدين منهم ، هذا سوى ما يتعذر علينا من إيصال ما يحتاج إليه من العلوفات والأقوات ، فلما قال لهم ذلك علموا صدقه ، ورأوا قلة الميرة عندهم ، وما يجري للجالبين لهما من المسلمين ، فأشاروا عليه بالعود إلى الرملة ، فعادوا خائبين خاسرين .

www.alkottob.com

ذكر قتل قزل أرسلان

في شعبان من هذه السنة قتل قزل أرسلان واسمه عثمان بن أيلدكز . وقد ذكرنا أنه ملك البلد بعد وفاة البهلوان ملك أران وأذربيجان وهمذان وأصفهان والري وما بينهما ، وأطاعه صاحب فارس وخوزستان ، واستولى على السلطان طغرل ، فاعتقله في بعض القلاع ، ودانت له البلاد ، وفي آخر أمره سار إلى أصفهان والفتن بها متصلة من لدن توفي البهلوان إلى ذلك الوقت ، فتعصب على الشافعية ، وأخذ جماعة من أعيانهم فصلبهم ، وعاد إلى همذان ، فتعصب على الشافعية ، وأخذ جماعة من أعيانهم فصلبهم ، وعاد إلى همذان وخطب لنفسه بالسلطنة ، وضرب النوب الخمس ، ثم إنه دخل ليلة قتل إلى منزله لينام ، وتفرق أصحابه فدخل إليه من قتله على فراشه ، ولم يعرف قاتله ، فأخذ أصحابه بابه ظنّاً وتخمينًا وكان كريمًا حسن الاخلاق يحب العدل ويؤثره ويرجع إلى حلم وقلة عقوبة .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة قدم معزّ الدين قيصر شاه بن قلج أرسلان صاحب بلاد الروم على صلاح الدين في رمضان ، وكان سبب قدومه أن والده عز الدين قلج أرسلان فرق مملكته على أولاده ، وأعطى ولده هذا ملطية ، وأعطى ولده قطب الدين ملكشاه سيواس ، فاستولى قطب الدين على أبيه، وحجر عليه وأزال حكمه وألزمه أن يأخذ ملطية من أخيه ، وسلمها

إليه ، فخال معز الدين فسار إلى صلاح الدين ملتجئًا إليه معتضدًا به، فأكرمه صلاح الدين وزوجه بابنة أخيه الملك العادل ، فامتنع قطب الدين من قصده ، وعاد معز الدين إلى ملطية في ذي القعدة وحدثني من أثق به قال : رأيت صلاح الدين وقد ركب ليودع هذا معز الدين فترجل له معز الدين وترجل صلاح الدين وودعه راجلاً ، فلما أراد الركوب عضده هذا معز الدين وركب ، وسوى ثيابه علاء الدين خرمشاه بن عز الدين صاحب الموصل ، قال فعجبت من ذلك ، وقلت ما تبالى يا ابن أيوب أي موتة تموت يركبك ملك سلجوقي وابن أتابك زنكى .

وفيها توفي حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين وهو ابن أخت صلاح الدين وعلم الدين سليمان بن جندر ، وهو من أكابر أمراء صلاح الدين أيضًا . وفي رجب توفي الصفي بن القابض ، وكان متولي دمشق لصلاح الدين يحكم في جميع بلاده .

www.alkottob.com

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين وخمسمائة

ذكر عمارة الفرنج عسقلان

في هذه السنة في المحرم رحل الفرنج نحو عسقلان ، وشرعوا في عمارتها ، وكان صلاح الدين بالقدس ، فسار ملك إنكلتار جريدة من عسقلان إلى يزك المسلمين ، فواقعهم وجرى بين الطائفتين قتال شديد انتصف بعضهم من بعض ، وفي مدة مقام صلاح الدين بالقدس ما برحت سراياه تقصد الفرنج ، فتارة تواقع طائفة منهم وتارة تقطع الميرة عنهم ومن جملتها سرية كان مقدما فارس الدين ميمون القصرى ، وهو من مقدمي المماليك الصلاحية خرج على قافلة كبيرة للفرنج فأخذها وغنم ما فيها .

ذكر قتل المركيس وملك الكندهري

في هذه السنة في ثالث عشر ربيع الآخر قتل المركيس الفرنجي لعنه الله صاحب صور ، وهو أكبر شياطين الفرنج ، وكان سبب قتله أن صلاح الدين راسل مقدم الإسماعيلية ، وهو سنان أن أرسل من يقتل ملك إنكلتار ، وإن قتل المركيس فله عشرة آلاف دينار ، فلم يمكنهم قتل ملك إنكلتار ، ولم يره سنان مصلحة لهم لئلا يخلو وجه صلاح الدين من الفرنج ويتفرغ لهم ، وشره في أخذ المال ، فعدل إلى قتل المركيس ،

فأرسل رجلين في زي الرهبان واتصلا بصاحب صيدا وابن بارزان ، صاحب رملة ، وكانا مع المركيس بصور ، فأقامها معهما ستة أشهر يظهران العبادة ، فانس بهما المركيس ووثق إليهما ، فلما كان بعد التاريخ عمل الأسقف يصور دعوة المركيس فحضرها وأكل طعامه وشرب وخرج من عنده ، فوثب عليه الباطنيان المذكوران ، فجرحاه جراحًا وثيقة ، وهرب أحدهما ودخل كنيسة يختفي فيها ، فاتفق أن المركيس حمل إليها ليشد جراحه ، فوثب عليه ذلك الباطني فقتله ، وقتل الباطنيان بعده ، ونسب الفرنج قتله إلى وضع من ملك إنكلتار لينفرد بملك الساحل الشامي، فلما قتل ولي بعده مدينة صور كند من الفرنج من داخل البحر يقال له الكندهري ، وتزوَّج بالملكة في ليلته ، ودخل بها وهي حامل ، وليس الحمل عندهم مما يمنع النكاح ، وهذا الكندهري هو ابن أخت ملك إفرنسيس من أبيه ، وابن أخت ملك إنكلتار من أمه ، وملك هذا كندهري بلاد الفرنج بالساحل بعد عود ملك إنكلتار ، وعاش إلى سنة أربع وتسعين وخمسمائة ، فسقط من سطح فمات ، وكان عاقلاً كثير المداراة ، والاحتمال ، ولما رحل ملك إنكلتار إلى بلاده أرسل هذا كندهري إلى صلاح الدين يستعطفه ويستميله يطلب منه خلعة ، وقال : أنت تعلم أن لبس القباء والشربوش عندنا عيب وأنا ألبسهما منك محبة لك ، فأنفذ إليه خلعة سنية منها القباء والشربوش ، فلبسهما بعكا .

www.alkottob.com

ذكر نهب بني عامر البصرة

في هذه السنة في صفر اجتمع بنو عامر في خلق كثير وأميرهم عميرة وقصدوا البصرة ، وكان الأمير بها اسمه محمد بن إسماعيل ينوب عن مقطعها الأمير طغرل مملوك الخليفة الناصر لدين الله ، فوصلوا إليها يوم السبت سادس صفر ، فخرج إليهم الأمير محمد فيمن معه من الجند ، فوقعت الحرب بينهم بدرب الميدان بجانب الخربة ، ودام القتال إلى آخر النهار ، فلما جاء الليل ثلم العرب في السور عدة ثلم ، ودخلوا البلد من الغد ، فقاتلهم أهل البلد فقتل بينهم قتلى كثيرة من الفريقين ، ونهبت العرب الخانات بالشاطىء وبعض محال البصرة ، وعبر أهلها إلى شاطىء الملاحين ، وفارق العرب البلد في يومهم ، وعاد أهله إليه ، وكان سبب سرعة العرب في مفارقة البلد أنهم بلغهم أن خفاجة والمنتفق قد قاربوهم ، فساروا إليهم وقاتلوهم أشد قتال ، فظفرت عامر وغنمت أموال خفاجة والمنتفق وعادوا إلى البصرة بكرة الاثنين ، وكان الأمير قد جمع من أهل البصرة والسواد جمعًا كثيرًا ، فلما عادت عامر قاتلهم أهل البصرة ومن اجتمع معهم ، فلم يقوموا للعرب ، وانهزموا ، ودخل العرب البصرة ونهبوها ، وفارق البصرة أهلها ونهبت أموالهم ، وجرت أمور عظيمة ونهبت القوافل وغيرها يومين ، وفارقها العرب ، وعاد أهلها إليها ، وقد رأيت هذه القصة بعينها في سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة والله أعلم .

ذكر ما كان من ملك إنكلتار

في تاسع جمادى الأولى من هذه السنة استولى الفرنج على حصن الداروم فخربوه ، ثم ساروا إلى البيت المقدس ، وصلاح الدين فيه فبلغوا بيت نوبة ، وكان سبب طمعهم أن صلاح الدين فرق عساكره الشرقية وغيرها لأجل الشتاء ويستريحوا وليحضر البلد عوضهم ، وسار بعضهم مع ولده الأفضل وأخيه العادل إلى البلاد الجزرية - لما نذكره إن شاء الله تعالى ، وبقي من حلقته الخاص بعض العساكر المصرية ، فظنوا أنهم ينالون غرضًا ، فلما سمع صلاح الدين بقربهم منه فرق أبراج البلد على الأمراء ، وسار الفرنج من بيت نوبة إلى قلونية سلخ الشهر ، وهي فرسخين من القدس ، فصب المسلمون عليهم البلاء ، وتابعوا إرسال السرايا قبل الفرنج منهم بما لاقبل لهم به ، وعلموا أنهم إذا نازلوا القدس كان الشر إليهم أسرع والتسلط عليهم أمكن ، فرجعوا القهقرى ، وركب المسلمون أكتافهم بالرماح ، والسهام ، ولما بعد الفرنج عن يافا سيّر صلاح الدين سرية من عسكره إليها فقاربوها وكمنوا عندها ، فاجتاز بهم جماعة من فرسان الفرنج مع قافلة ، فخرجوا عليهم ، فقتلوا منهم وأسروا وغنموا ، وكان ذلك آخر جمادى الأولى .

ذكر استيلاء الفرنج على عسكر للمسلمين وقفل

في تاسع جمادى الآخرة بلغ الفرنج الخبر بوصول عسكر من مصر ، ومعهم قفل كبير ومقدم العسكر فلك الدين سليمان أخو العادل لأمه ،

www.alkottob.com

ومعه عدّة من الأمراء ، فأسرى الفرنج إليهم فواقعهم بنواحي الخليل ، فانهزم الجند ، ولم يقتل منهم أحد من المشهورين إنما قتل من الغلمان والأصحاب ، وغنم الفرنج خيامهم وآلاتهم ، وأما القفل فإنه أخذ بعضه، وصعد من نجا جبل الخليل ، فلم يقدم الفرنج على اتباعهم ، ولو اتبعوهم نصف فرسخ لأتوا عليهم ، وتفرق من نجا من القفل وتقطعوا ، ولقوا شدة إلى أن اجتمعوا . حكى لي بعض أصحابنا ، وكنا قد سيرنا معه شيئًا للتجارة إلى مصر ، وكان قد خرج في هذه القفل قال : لمّا وقع الفرنج علينا كنا قد رفعنا أحمالنا للسير ، فحملوا علينا وأوقعوا بنا ، فضربت جمالي وصعدت الجبل ، ومعي عدة أجمال لغيري ، فلحقنا قوم من الفرنج ، فأخذوا الجمال التي في صحبتي ، وكنت بين أيديهم بمقدار رمية سهم ، فلم يصلوا إلي ، فنجوت بما معي وسرت لا أدري أين أقصد وإذ قد لاح لي بناء كبير على جبل ، فسألت عنه فقيل لي هذا الكرك ، فوصلت إليه ثم عدت منه إلى القدس سالمًا ، وسار هذا الرجل من القدس سالمًا ، فلما بلغ بزاعة عند حلب أخذه الحرامية ، فنجا من العطب وهلك عند ظنه السلامة .

ذكر سير الأفضل والعادل إلي بلاد الجزيرة

قد تقدَّم ذكر موت تقي الدين عمر بن صلاح الدين واستيلاء ولده ناصر الدين محمد على بلاد الجزيرة ، فلما استولى عليها أرسل إلى صلاح الدين يطلب تقريرها عليه مضافًا إلى ما كان لأبيه بالشام ، فلم ير

صلاح الدين أن مثل تلك البلاد تسلم إلى صبي ، فما أجابه إلى ذلك ، فحدث نفسه بالامتناع على صلاح الدين لاشتغاله بالفرنج ، فطلب الأفضل علي بن صلاح الدين من أبيه أن يقطعه ما كان لتقي الدين ، وينزل عن دمشق ، فأجابه إلى ذلك وأمره بالمسير إليها ، فسار إلى حلب في جماعة من العسكر ، وكتب صلاح الدين إلى أصحاب البلاد الشرقية مثل صاحب الموصل وصاحب سنجار وصاحب الجزيرة وصاحب ديار بكر وغيرها يأمرهم بإنفاذ العساكر إلى ولده الأفضل ، فلما رأى ولد تقي الدين ذلك علم أنه لاقوة له بهم ، فراسل الملك العادل ، عم أبيه يسأله إصلاح حاله مع صلاح الدين ، فأنهى ذلك إلى صلاح الدين ، وأصلح حاله وقرر قاعدته بأن يقرر له ما كان لأبيه بالشام ، وتؤخذ منه البلاد الجزرية ، وهي حران الرها وسميساط وميافارقين وحاني العادل ، وسيره إلى ابن تقي الدين ليتسلم منه البلاد ويسيره إلى صلاح الدين ويعيد الملك الأفضل أين أدركه ، فسار العادل فلحق الأفضل بحلب ، فأعاده إلى أبيه، وعبر العادل الفرات وتسلم البلاد من ابن تقي الدين ، وجعل نوابه فيها واستصحب ابن تقي الدين معه وعاد إلى صلاح الدين بالعساكر ، وكان عوده في جمادى الآخرة من هذه السنة .

ذكر عود الفرنج على عكا

لما عاد الملك الأفضل فيمن معه ، وعاد الملك العادل وابن تقي الدين فيمن معهما من عساكرهما ، ولحقتهم العساكر الشرقية ، عسكر الموصل

www.alkottob.com

وعسكر ديار بكر وعسكر سنجار وغير ذلك من البلاد ، واجتمعت العساكر بدمشق أيقن الفرنج أنهم لاطاقة لهم بها إذا فارقوا البحر ، لعادوا نحو عكا يظهرون العزم على قصد بيروت ومحاصرتها ، فأمر صلاح الدين ولده الأفضل أن يسير إليها في عسكره والعساكر الشرقية جميعها معارضًا للفرنج في مسيرتهم نحوها ، فسار إلى مرج العيون ، واجتمعت العساكر معه ، فأقام هنالك ينتظر مسير الفرنج ، فلما بلغهم ذلك أقاموا بعكّا ولم يفارقوها .

ذكر ملك صلاح الدين يافا

لما رحل الفرنج نحو عكّا كان قد اجتمع عند صلاح الدين عسكر حلب وغيرها ، فسار إلى مدينة يافا ، وكانت بيد الفرنج ، فنازلها وقاتل من بها منهم ، وملكها في العشرين من رجب بالسيف عنوة ونهبها المسلمون وغنموا ما فيها وقتلوا الفرنج وأسروا كثيرًا ، وكان بها أكثر ما أخذوه من عسكر مصر والقفل الذي كان معهم ، - وقد ذكر ذلك - وكان جماعة من المماليك الصلاحية قد وقفوا على أبواب المدينة ، وكل من خرج من الجند ومعه شيء من الغنيمة أخذوه منه ، فإن امتنع ضربوه وأخذوا ما معه قهرًا ، ثم زحفت العساكر إلى القلعة ، فقاتلوا عليها آخر النهار وكادوا يأخذونها ، فطلب من بالقلعة الأمان على أنفسهم ، وخرج البطرك الكبير الذي لهم ومعه عدة من أكابر الفرنج في ذلك ، وتردّدوا ، وكان قصدهم منع المسلمين عن القتال ، فأدركهم الليل وواعدوا المسلمين

أن ينزلوا بكرة غد ويسلموا القلعة ، فلما أصبح الناس طالبهم صلاح الدين بالنزول عن الحصن فامتنعوا ، وإذ قد وصلهم نجدة من عكّا وأدركهم ملك انكلتار ، فأخرج من بيافا من المسلمين ، وأتاه المدد من عكا وبرزوا إلى ظاهر المدينة ، واعترض المسلمين وحده وحمل عليهم فلم يتقدّم إليه أحد ، فوقف بين الصفين واستدعى طعاما من المسلمين ونزل أكل ، فأمر صلاح الدين عسكره بالحملة عليهم وبالجد في قتالهم ، فتقدم إليه بعض أمرائه يعرف بالجناح ، وهو أخو المشطوب بن علي ابن أحمد الهكّاري ، فقال له : يا صلاح الدين قل لمماليكك الذين أخذوا أمس الغنيمة وضربوا الناس بالحماقات يتقدمون فيقاتلون ، إذا كان القتال فنحن وإذا كانت الغنيمة فلهم ، فغضب صلاح الدين من كلامه ، وعاد عن الفرنج ، وكان - رحمه الله - حليمًا كريمًا لمقدرة ، ونزل في خيامه ، وأقام حتى اجتمعت العساكر ، وجاء إليه ابنه الأفضل وأخوه العادل وعساكر الشرق ، فدخل بهم إلى الرملة لينظر ما يكون منه ومن الفرنج ، فلزم الفرنج يافا ولم يبرحوا منها .

ذكر الهدنة مع الفرنج وعود صلاح الدين إلى دمشق

في العشرين من شعبان من هذه السنة عقدت بين المسلمين والفرنج هدنة لمدّة ثلاث سنين وثمانية أشهر ، أولها هذا التاريخ وافق أول أيلول ، وسبب الصلح أن ملك انكلتار لما رأى اجتماع العساكر ، وأنه لايمكنه مفارقة ساحل البحر وليس بالساحل للمسلمين بلد يطمع فيه ، قد طالت

www.alkottob.com

غيبته عن بلاده ، وأرسل صلاح الدين في الصلح وأظهر من ذلك ضد ما كان يظهره أولا ، فلم يجبه صلاح الدين إلى ما طلب ظنًا منه أنه يفعل ذلك خديعة ومكرًا ، وأرسل يطلب منه المصاف والحرب ، فأعاد الفرنجي رسله مرّة بعد مرّة ، وترك تتمة عمارة عسقلان وعن غزة والداروم والرملة، وأرسل إلى الملك العادل في تقرير هذه القاعدة ، فأشار هو وجماعة الأمراء بالإجابة إلى الصلح ، وعرفوه ما عند العسكر من الضجر والملل ، وما قد هلك من أسلحتهم ودوابهم ونفذ من نفقاتهم ، وقالوا : إن هذا الفرنجي إنما طلب الصلح ليركب البحر ويعود إلى بلاده ، فإن تأخّرت إجابته إلى أن يجيء الشتاء وينقطع الركوب في البحر نحتاج نبقي ههنا سنة أخرى ، وحينئذ يعظم الضرر على المسلمين ، وأكثروا القول له في هذا المعنى ، فأجاب حينئذ إلى الصلح ، فحضر رسل الفرنج وعقدوا الهدنة وتحالفوا على هذه القاعدة ، وكان في جملة من حضر عند صلاح الدين باليان بن بارزان الذي كان صاحب الرملة ونابلس ، فلمّا حلف صلاح الدين قال له : ما عمل أحد في الإسلام ما عملت ، ولا هلك من الفرنج مثل ما هلك منهم هذه المدة ، فإننا احصينا من خرج إلينا في البحر من المقاتلة ، فكانوا ستمائة ألف رجل ما عاد منهم إلى بلادهم من كل عشرة واحد ، بعضهم قتلتهم أنت وبعضهم مات وبعضهم غرق، ولما انفصل أمر الهدنة أذن صلاح الدين للفرنج في زيارة بيت المقدس ، فزاروه وتفرقوا ، وعادت كل طائفة إلى بلادها ، وأقام بالساحل الشامي ملكًا على الفرنج والبلاد التي بأيديهم الكندهري ، وكان خيّر الطبع قليل الشر

رفيقًا بالمسلمين محبًا لهم ، وتزوج بالملكة التي كانت تملك بلاد الفرنج قبل أن يملكها صلاح الدين - كما ذكرناه - ، وأما صلاح الدين فإنه بعد تمام الهدنة سار إلى البيت المقدس ، وأمر بإحكام سوره ، وعمل المدرسة والرباط والبيمارستان وغير ذلك من مصالح المسلمين ، ووقف عليها الوقوف وصام رمضان بالقدس ، وعزم على الحج والإحرام منه فلم يمكنه ذلك ، فسار عنه خامس شوال نحو دمشق واستناب بالقدس أميرًا اسمه جورديك ، وهو من المماليك النورية ، ولما سار عنه جعل طريقه على الثغور الإسلامية كنابلس وطبرية وصفد وتبنين وبيروت ، وتعهد هذه البلاد وأمر بإحكامها ، فلما كان في بيروت أتاه بيمند صاحب أنطاكية ، وأعمالها ، واجتمع به وخدمه ، فخلع عليه صلاح الدين وعاد إلى بلده ، فلما عاد رحل صلاح الدين إلى دمشق ، فدخلها في الخامس والعشرين من شوال ، وكان يوم دخوله إليها يومًا مشهودًا ، وفرح الناس به فرحا عظيما لطول غيبته وذهاب العدو عن بلاد الإسلام .

ذكر وفاة قلج أرسلان

في هذه السنة منتصف شعبان ، توفّي الملك قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن قتلش بن سلجوق السلجوقي بمدينة قونيّة ، وكان له من البلاد قونية وأعمالها وأقصرا وسيواس وملطيّة وغير ذلك من البلاد ، وكانت مدّة ملكه نحو تسع وعشرين سنة ، وكان ذا سياسة حسنة وهيبة عظيمة وعدل وافر وغزوات كثيرة إلى بلاد الروم ، فلما كبر فرّق بلاده

www.alkottob.com

على أولاده فاستضعفوه ولم يلتفتوا إليه وحجر عليه ولده قطب الدين ، وكان قلج أرسلان قد استناب في مدينة ملكه رجلاً يعرف باختيار الدين حسن ، فلما غلب قطب الدين على الأمر قتل حسنًا ، ثم أخذ والده وسار به إلى قيسارية ليأخذ من أخيه الذي سلمها إليه أبوه فحصرها مدة فوجد والده قلج أرسلان فرصة فهرب ودخل وحده ، فلما علم قطب الدين ذلك عاد إلى قونية وأقصر فملكها ، ولم يزل قلج أرسلان يتحول من ولد إلى ولد ، وكل منهم يتبرم به حتى مضى إلى ولده غياث الدين كيخسرو صاحب مدينة برغلوا ، فلما رآه فرح به وخدمه وجمع العساكر ، وسار هو معه إلى قونية فملكها وسار إلى أقصرا ومعه والده قلج أرسلان فحصرها ، فمرض أبوه ، فعاد به إلى قونية فتوفّي بها ودفن هناك ، وبقي ولده غياث الدين في قونية مالكًا لها حتى أخذها منه أخوه ركن الدين سليمان - على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

وقد حدثني بعض من أثق إليه من أهل العلم مما يحكيه ، وكان قد وصل تلك البلاد بغير هذا - ونحن نذكره - قال : إن قلج أرسلان قسّم بلاده بين أولاده في حياته ، فسلّم دوقاط إلى ابنه ركن الدين سليمان ، وسلم قونية إلى ولده كيخسرو غياث الدين ، وسلم أنقرة وهي التي تسمّي أنكوريّة إلى ولده محيي الدين ، وسلم ملطية إلى ولده معزّ الدين قيصر شاه ، وسلم ابلستين إلى ولده مغيث الدين ، وسلم قيسارية إلى ولده نور الدين محمود ، وسلم سيواس واقصرا إلى ولده قطب الدين ، وسلم تكسار إلى ولد آخر ، وسلم أماسيا إلى ولد أخيه ، هذه أمهات البلاد ،

وينضاف إلى كل بلد من هذه ما يجاورها من البلاد الصغار التي ليست مثل هذه ، ثم إنه ندم على ذلك وأراد أن يجمع الجميع لولده الأكبر قطب الدين وخطب له ابنة صلاح الدين يوسف صاحب مصر والشام ليقوى به، فلما سمع باقي أولاده بذلك امتنعوا عليه وخرجوا عن طاعته وزال حكمه عنهم ، فسار يتردّد بينهم على سبيل الزيارة فيقيم عند كل واحد منهم مدّة وينتقل إلى الآخر ، ثم إنه مضى إلى ولده كيخسروا صاحب قونية على عادته ، فخرج إليه ولقيه وقبل الأرض بين يديه وسلم قونية إليه وتصرف عن أمره فقال لكيخسرو : أريد أسير إلى ولدي الملعون محمود - وهو صاحب قيسارية - وتجيء أنت معي لآخذها منه ، فتجهز وسار معه وحصر محمودًا بقيسارية فمرض قلج أرسلان وتوفّي عليها ، فعاد كيخسرو وبقي كل واحد من الأولاد على البلد الذي بيده .

وكان قطب الدين صاحب أقصرا وسيواس إذا أراد أن يسير من إحدى المدينتين إلى الأخرى يجعل طريقه على قيسارية وبها أخوه نور الدين محمود ، وليست على طريقه إنما كان يقصدها ليظهر المودة لأخيه والمحبة له ، وفي نفسه الغدر ، فكان أخوه محمود يقصده ويجتمع به ، ففي بعض المرات نزل بظاهر البلد على عادته وحضر أخوه محمود عنده غير محتاط ، فقتله قطب الدين وألقى رأسه إلى أصحابه وأراد أخذ البلد، فامتنع من به من أصحاب أخيه عليه ، ثم أنهم سلموه إليه على قاعدة استمرّت بينهم ، وكان عند محمود أمير كبير وكان يحذره من أخيه قطب الدين ويخوفه ، فلم يصغ إليه ، وكان جوادًا كثير الخير والتقدُّم في الدولة

www.alkottob.com

عند نور الدين ، فلما قتل قطب الدين أخاه قتل حسنًا معه وألقاه على الطريق ! فجاء كلب يأكل من لحمه ، فثار الناس وقالوا : لاسمعًا ولا طاعة هذا رجل مسلم وله ههنا مدرسة وتربة وصدقات دارة وأفعال حسنة لاتتركه تأكله الكلاب ، فأمر به فدفن في مدرسته ، وبقي أولاد قلج أرسلان على حالهم ، ثم إنَّ قطب الدين مرض ومات ، فسار أخوه ركن الدين سليمان صاحب دوقاط إلي سيواس ، وهي تجاوره فملكها ، ثم سار منها إلى قيسارية واقصرا ، ثم بقي مديدة ، وسار إلى قونية وبها أخوه غياث الدين فحصره بها وملكها ، ففارقها غياث الدين إلى الشام ، ثم إلى بلد الروم ، وكان من أمره - ما نذكره إن شاء الله تعالى - ، ثم سار بعد ذلك إلى ركن الدين إلى نكسار وأماسيا ، فملكها ، وسار إلى ملطية سنة سبع وتسعين وخمسمائة فملكها ، وفارقها أخوه معزّ الدين إلى الملك العادل أبي بكر بن أيوب ، وكان هذا معزّ الدين تزوّج ابنة للعادل، فأقام عنده واجتمع لركن الدين ملك جميع الأخوة ما عدا أنقرة ، فإنها منيعة لايوصل إليها ، فجعل عليها عسكرًا يحصرها صيفًا وشتاء ثلاث سنين ، فتسلمها سنة إحدى وستمائة ، ووضع على أخيه الذي كان بها من يقتله إذا فارقها ، فلما سار عنها قتل وتوفّي ركن الدين في تلك الأيام، ولم يسمع خبر قتل أخيه بل عاجله الله تعالى لقطع رحمه وإنما أوردنا هذه الحادثة ههنا لنتبع بعضها بعضا ، ولأني لم أعلم تواريخ كل حادثة منها لأثبته فيه .

ذكر ملك شهاب الدين أجمير وغيرها من الهند

قد ذكرنا سنة ثلاث وثمانين غزوة شهاب الدين الغوري إلى بلد الهند وانهزامه ، وبقي إلى الآن وفي نفسه الحقد العظيم على الجند الغورية الذين انهزموا وما ألزمهم من الهوان ، فلما كانت هذه السنة خرج من غزنة ، وقد جمع عساكره ، وسار فيها يطلب غزوة الهندي الذي هزمه تلك النوبة ، فلما وصل إلى پرشاوور تقدم إليه شيخ من الغورية كان يدل عليه، فقال له : قد قربنا من العدو وما يعلم أحد أين يمضي ولا من يقصد ولا نرد على الأمراء سلاما وهذا لايجوز فعله ، فقال له السلطان : أعلم أنني منذ هزمني هذا الكافر ما نمت مع زوجتي ولا غيرت ثياب البياض عني ، وأنا سائر إلى عدوي ومعتمد على الله تعالى لا على الغورية ولا على غيرهم ، فإن نصرني الله سبحانه ونصر دينه فمن فضله وكرمه وإن انهزمنا فلا تطلبوني فما انهزمت ولو هلكت تحت حوافر الخيل، فقال له الشيخ : سوف ترى بني عمك من الغورية ما يفعلون فينبغي أن تكلمهم وترد سلامهم ففعل ذلك ، وبقي أمراء الغورية يتضرعون ويقولون سوف ترى ما نفعل .

وسار إلى أن وصل إلى موضع المصاف الأول وجازه مسيرة أربعة أيام وأخذ عدة مواضع من بلاد العدو فلما سمع الهندي تجهّز وجمع عساكره وسار يطلب المسلمين ، فلما بقي بين الطائفتين مرحلة عاد شهاب الدين وراء ، والكافر في أعقابه أربعة منازل ، فأرسل الكافر إليه يقول له اعطني

www.alkottob.com

يدك أنك تصافقني في باب غزنة حتى أجيء وراءك ، وإلا فنحن مثقلون ومثلك لايدخل البلاد شبيه اللصوص ، ثم يخرج هاربًا ما هذا فعل السلاطين ، فأعاد الجواب إنني لا اقدر على حربك ، وتم على حاله عائدًا إلى أن بقي بينه وبين بلاد الإسلام ثلاثة أيام ، والكافر في أثره يتبعه حتى لحقه قريبًا من مرندة ، فجرد شهاب الدين من عسكره سبعين ألفًا وقال : أريد هذه الليلة تدورون حتى تكونوا وراء عسكر العدو ، وعند صلاة الصبح تأتون أنتم من تلك الناحية وأنا من هذه الناحية ففعلوا ذلك، وطلع الفجر ، ومن عادة الهنود أنهم لايبرحون من مضاجعهم إلى أن تطلع الشمس ، فلمّا أصبحوا حمل عليهم عسكر المسلمين من كل جانب وضربت الكوسات ، فلم يلتفت ملك الهند إلى ذلك ، وقال : من يقدم علي أنا هذا ، والقتل قد أكثر في الهنود ، والنصر قد ظهر للمسلمين ، فلما رأى ملك الهند ذلك احضر فرسًا له سابقًا وركبه ليهرب، فقال له أعيان أصحابه : إنك حلفت لنا أنك لاتخلينا وتهرب ، فنزل عن الفرس وركب الفيل ووقف موضعه والقتال شديد والقتل قد كثر في أصحابه ، فانتهى المسلمون إليه وأخذوه أسيرًا ، وحينئذ عظم القتل والأسر في الهنود ، ولم ينج منهم إلا القليل ، وأحضر الهندي بين يدي شهاب الدين ، فلم يخدمه فأخذ بعض الحجاب بلحيته وجذبه إلى الأرض حتى أصابها جبينه وأقعده بين يدي شهاب الدين ، فقال له شهاب الدين: استأسرتني ما كنت تفعل بي ؟ فقال الكافر : قد استعملت لك قيدًا من ذهب أقيدك به ، فقال شهاب الدين بل نحن ما نجعل لك من القدر ما نقيدك ، وغنم المسلمون من الهنود أموالاً كثيرة وأمتعة عظيمة ،

وفي جملة ذلك أربعة عشر فيلا من جملتها الفيل الذي جرح شهاب الدين في تلك الوقعة ، وقال ملك الهند لشهاب الدين : إن كنت طالبا بلاد فما بقي فيها من يحفظها وإن كنت طالب أموال فعندي أموال تحمل أجمالك، فسار شهاب الدين وهو معه إلى الحصن الذي له يعول عليه ، وهو أجمير فأخذه وأخذ جميع البلاد التي تقاربه ، وأقطع جميع البلاد لمملوكه قطب الدين أيبك وعاد إلى غزنة وقتل ملك الهند .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة قبض على أمير الحاج طاشتكين ببغداد ، وكان نعم الأمير عادلاً في الحاج رفيقا بهم محبًا لهم له أوراد كثيرة من صلوات وصيام ، وكان كثير الصدقة لا جرم وقفت أعماله بين يديه فخلص من السجن - على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

وفيها خرج السلطان طغرل بن أرسلان بن طغرل من الحبس بعد موت قزل أرسلان ابن أيلدكز ، والتقى هو وقتغ أينانج بن البهلوان بن أيلدكز ، فانهزم أينانج إلى الري علي ما نذكره إن شاء الله تعالى - سنة تسعين وخمسمائة .

وفيها في رجب توفّي الأمير السيد علي بن المرتضى العلوي الحنفي مدرس جامع السلطان ببغداد . وفي شعبان منها توفّي أبو علي الحسن بن هبة الله بن البوقي الفقيه الشافعي الواسطي ، وكان عالمًا بالمذهب انتفع به الناس .

www.alkottob.com

ثم دخلت سنة تسع وثمانين وخمسمائة
ذكر وفاة صلاح الدين وبعض سيرته

في هذه السنة في صفر توفي صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي صاحب مصر والشام والجزيرة وغيرها بدمشق ومولده بتكريت ، وقد ذكرنا سبب انتقالهم منها ، وملكهم مصر سنة أربع وستين وخمسمائة ، وكان سبب مرضه أنه خرج يلتقي الحاج ، فعاد ومرض من يومه مرضا حادا بقي به ثمانية أيام ، وتوفي - رحمه الله - وكان قبل مرضه قد أحضر ولده الأفضل عليًا وأخاه الملك العادل أبا بكر واستشارهما فيما يفعل ، وقال : قد تفرغنا من الفرنج وليس لنا في هذه البلاد شاغل ، فأي جهة نقصد ؟ فأشار عليه أخوه العادل بقصد خلاط لأنه كان قد وعده إذا أخذها أن يسلمها إليه ، وأشار ولده الأفضل بقصد بلد الروم التي بيد أولاد قلج أرسلان ، وقال : هي أكثر بلادًا وعسكرًا ومالاً وأسرع مأخذًا ، وهي أيضًا طريق الفرنج إذا خرجوا على البر ، فإذا ملكناها منعناهم من العبور فيه ، فقال : كلاكما مقصر ناقص الهمة بل أقصد أنا بلد الروم وقال لأخيه : تأخذ أنت بعض أولادي وبعض العسكر وتقصد خلاط ، فإذا فرغت أنا من بلد الروم جئت إليكم وندخل منها أذربيجان ، ونتصل ببلاد العجم ، فما فيها من يمنع عنها ثم أذن لأخيه العادل في المضي إلى الكرك ، وكان له وقال له تجهّز واحضر

لتسير ، فلما سار إلى الكرك مرض صلاح الدين وتوفي قبل عوده - وكان رحمه الله - كريمًا حليمًا حسن الأخلاق متواضعًا صبورًا على ما يكره كثير التغافل عن ذنوب أصحابه يسمع من أحدهم ما يكره ولايعلمه بذلك ولايتغير عليه .

وبلغني أنه كان جالسًا وعنده جماعة ، فرمى بعض المماليك بعضًا بسرموز ، فأخطأته ، ووصلت إلى صلاح الدين فأخطأته ، ووقعت بالقرب منه ، فالتفت إلى الجهة الأخرى يكلم جليسه ليتغافل عنها ، وطلب مرة الماء فلم يحضر ، وعاود الطلب في مجلس واحد خمس مرات فلم يحضر ، فقال : يا أصحابنا والله قد قتلني العطش ، فأحضر الماء فشربه ، ولم ينكر التواني في إحضاره ، وكان مرّة قد مرض مرضًا شديدًا أرجف عليه بالموت ، فلما برىء منه وأدخل الحمام كان الماء حارًا ، فطلب ماء باردًا فأحضره الذي يخدمه فسقط من الماء شيء على الأرض ، فناله منه شيء فتألم لضعفه ، ثم طلب البارد أيضًا فأحضر ، فلما قاربه سقطت الطاسة على الأرض ، فوقع الماء جميعه عليه ، فكاد يهلك ، فلم يزد على أن قال للغلام : إن كنت تريد قتلي فعرفني ، فاعتذر إليه فسكت عنه .

وأما كرمه فإنه كان كثير البذل لايقف في شيء يخرجه ، ويكفي دليلا على كرمه أنه لما مات لم يخلف في خزائنه غير دينار واحد صوري وأربعين درهمًا ناصرية ، وبلغني أنه اخرج في مدّة على عكا قبالة الفرنج

www.alkottob.com

ثمانية عشر ألف دابة من فرس وبغل سوى الجمال ، وأما العين والثياب والسلاح ، فإنه لايدخل تحت الحصر ، ولما انقرضت الدولة العلوية بمصر أخذ من ذخائرهم من سائر الأنواع ما يفوت الإحصاء ، ففرقه جميعه .

وأما تواضعه فإنه كان ظاهراً لم يتكبر على أحد من أصحابه ، وكان يعيب الملوك المتكبرين بذلك ، وكان يحضر عنده الفقراء والصوفية ، ويعمل لهم السماع ، فإذا قام أحدهم لرقص أو سماع يقوم له ، فلا يعقد حتى يفرغ الفقير ، ولم يلبس شيئًا مما ينكره الشرع ، وكان عنده علم ومعرفة وسمع الحديث واسمعه ، وبالجملة فكان نادراً في عسكره كثير المحاسن والأفعال الجميلة عظيم الجهاد في الكفار ، وفتوحه تدل على ذلك، وخلف سبعة عشر ولدًا ذكرًا .

ذكر حال أهله وأولاده بعده

لما مات صلاح الدين بدمشق كان معه بها ولده الأكبر الأفضل نور الدين عليّ ، وكان قد حلف له العساكر جميعهم غير مرة في حياته ، فلما مات ملك دمشق والساحل والبيت المقدس وبعلبك وصرخد وبصرى وبانياس وهونين وتبنين وجميع الأعمال إلى الداروم ، وكان ولده الملك العزيز عثمان بمصر فاستولى عليها واستقر ملكه بها ، وكان ولده الظاهر غازي بحلب فاستولى عليها وعلى جميع أعمالها مثل حارم وتل باشر وإعزاز وبرزية ودرب ساك ومنبج وغير ذلك ، وكان بحماة محمود بن تقي الدين عمه ، فأطاعه وصار معه ، وكان بحمص شيركوه بن محمد

بن شيركوه ، فأطاع الملك الأفضل ، وكان الملك العادل بالكرك قد سار إليه كما ذكرنا فامتنع فيه ولم يحضر عند أحد أولاد أخيه فأرسل إليه الملك الأفضل يستدعيه ليحضر عنده فوعده ولم يفعل ، فأعاد مراسلته ، وخوفه من الملك العزيز صاحب مصر ، ومن أتابك عز الدين صاحب الموصل ، فإنه كان قد سار عنها إلى بلاد العادل الجزرية - على ما نذكره - ويقول له إن حضرت جهزت العساكر وسرت إلى بلادك حفظتها ، وإن اقمت قصدك أخي الملك العزيز لما بينكما من العداوة ، وإذا ملك عز الدين بلادك ، فليس له دون الشام مانع ، وقال لرسوله : إن حضر معك وإلا فقل له قد أمرني إن سرت إليه بدمشق عدت معك ، وإن لم تفعل أسير إلى الملك العزيز احالفه على ما يختار ، فلما حضر الرسول عنده وعده بالمجيء ، فلما رأى أن ليس معه منه شيء غير الوعد أبلغه ما قيل له في معنى موافقة العزيز ، فحينئذ سار إلى دمشق وجهز الأفضل معه عسكر من عنده ، وأرسل إلى صاحب حمص وصاحب حماة وإلى أخيه الملك الظاهر بحلب ، يحثّهم على إنفاذ العساكر من العادل إلى البلد الجزرية ليمنعها من صاحب الموصل ، ويخوفهم إن هم لم يفعلوا ، ومما قال لأخيه الظاهر : قد عرفت صحبة أهل الشام لبيت أتابك فوالله لئن ملك عز الدين حرّان ليفركن أهل حلب عليك ولتخرجن منها وأنت لاتعقل ، وكذلك يفعل في أهل دمشق ، فاتفقت كلمتهم على تسيير العساكر معه ، فجهزوا عساكرهم وسيروها إلى العادل ، وقد عبر الفرات فعسكر عساكرهم بنواحي الرها بمرج الرحان ، وسنذكر ما كان منه إن شاء الله تعالى .

www.alkottob.com

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٨/٨٠٩٥

I.S.B.N 977- 01 - 5726 - 0

www.alkottob.com

ومازال نهر العطاء يتدفق، تتفجر منه ينابيع المعرفة والحكمة من خلال إبداعات رواد النهضة الفكرية المصرية وتواصلهم جيلاً بعد جيل. ومازلنا نتشبث بنور المعرفة حقاً لكل إنسان ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة فى كل بيت.

شبَّت التجربة المصرية «القراءة للجميع» عن الطوق ودخلت «مكتبة الأسرة» عامها الخامس يشع نورها ليضيء النفوس ويثرى الوجدان بكتاب فى متناول الجميع ويشهد العالم للتجربة المصرية بالتألق والجدية وتعتمدها هيئة اليونسكو تجربة رائدة تحتذى فى كل العالم الثالث، ومازلت أحلم بالمزيد من لألىء الإبداع الفكرى والأدبى والعلمى تترسخ فى وجدان أهلى وعشيرتى أبناء وطنى مصر المحروسة، مصر الفن، مصر التاريخ، مصر العلم والفكر والحضارة.

سوزان مبارك

مكتبة الأسرة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٨

مائة وخمسون قرشاً

القراءة للجميع
مهرجان صيف ٩٨
جمعية الرعاية المتكاملة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

www.alkottob.com